إبراهيم عبد المجيد

الإسكندرية في غيمة



إبراهيم عبد المجيد

حينما تسمع في منتصف الليل فرقة من المغنين
تمر في الطريق غير مرئية
بموسيقاها الصاخبة
بصياحها الذي يصم الآذان
كف عن أن تندب حظك الذي ضاع
كن كمن هو على أهبة الاستعداد من قديم
كشجاع جريء
كما [illegible]
أهلا [illegible]
اقترب بخطى ثابتة من [illegible]
واستمع بحزن
استمع حتى النهاية إلى الأصداء المبتعدة
واستمتع بها
استمتع بالنغمات الرائعة من الفرقة الخفية
التي تمضي إلى الزوال
ودعها
ودع الإسكندرية
الإسكندرية التي تضيع منك
إلى الأبد.

«عندما تخلت الآلهة عن أنطونيو»
ـ قسطنطين كفافيس

الإسكندرية في غيمة

دار الشروق

الإسكندرية في غيمة

الإسكندرية في غيمة

إبراهيم عبد المجيد

تصميم الغلاف: حلمي التوني

الطبعة الأولى ٢٠١٢

الطبعة الثانية ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٩٦١٥

ISBN 978-977-09-3179-0

حينما تسمع في منتصف الليل فرقة من المغنين
تمر في الطريق غير مرئية
بموسيقاها الصاخبة
بصياحها الذي يصم الآذان
كف عن أن تندب حظك الذي ضاع
كن كمن هو على أهبة الاستعداد من قديم
كشجاع جريء
كما لو كنت أهلا لها حقا
أهلا لمدينة مثل هذه
اقترب بخطى ثابتة من النافذة
واستمع بحزن
استمع حتى النهاية إلى الأصداء المبتعدة
واستمتع بها
استمتع بالنغمات الرائعة من الفرقة الخفية
التي تمضي إلى الزوال
ودّعها
ودّع الإسكندرية
الإسكندرية التي تضيع منك
إلى الأبد.

«عندما تخلت الآلهة عن أنطونيو»

قسطنطين كفافيس

-١-

الوقت يجري بالنصف الثاني من العام ١٩٧٥، وأخبار الرئيس «السادات» تحتل العناوين الرئيسية للصحف. سافر إلى فرنسا فأعلنت فرنسا أن طائرات الميراج ستحلّق قريبا في سماء مصر.

من هناك سافر إلى نيويورك، فأعلن الرئيس الأمريكي جيرالد فورد عن تزويد مصر قريبا بالأسلحة الأمريكية.

خطب الرئيس السادات في الأمم المتحدة، واقترح ضم منظمة التحرير الفلسطينية إلى مؤتمر جينيف المزمع انعقاده لبحث الأوضاع في الشرق الأوسط. كانت الأوضاع انفرادا بين مصر وإسرائيل في المباحثات، التي ترتب عليها حتى الآن الانسحاب الثاني، وإخلاء جنوب سيناء من الجيش الإسرائيلي، وعودة حقول البترول.

كانت سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفيتي غير راضين عن هذا الانفراد بالمباحثات، ولا عن التقارب الشديد بين السادات والغرب.

في إنجلترا أعلن السادات في طريق عودته، أن الغرب يستطيع تزويد مصر بأسلحة لا يقدر عليها الاتحاد السوفيتي. وكان الممثل العالمي عمر الشريف قد أعلن في نيويورك أثناء زيارة السادات، أنه سوف يعود إلى مصر، ويبني قرية سياحية على الساحل الشمالي للإسكندرية، بينما يعرض فيلم «النداهة» المأخوذ عن رواية يوسف إدريس بسينما ريفولي بالقاهرة، وسينما راديو بالإسكندرية، وتعرض سينما رويال بالإسكندرية فيلم «طار فوق عش المجانين One Flew Over The Cuckoos nest» الذي سبقته شهرة الممثل جاك نيلسون، وبالطبع مخرجه مليوش فورمان Milos forman. وكانت مسرحية «انتهى الدرس يا غبي» لاتزال تحقق نجاحا كبيرا على مسرح باب اللوق، وتم الإعلان عن القبض على ثلاث سيدات تزوجت كل منهن برجلين، وظهرت موضة الشتاء الجديدة في ملابس الرجال، الجاكت الواسع، والجيبان الخارجيان الكبيران، والياقات العريضة، وأعلن وزير التموين أنه لا تغيير في أسعار اللحوم، وأنها لن تزيد على خمسة وسبعين قرشا للكيلو جرام، وأعلن لأول مرة عن إنشاء سبع شركات جديدة لتجارة القطن، تطرح أسهمها للجماهير كخطوة على طريق الدولة الرأسمالية الجديد، كما أعلن عن رفض إنشاء الأحزاب السياسية، والاكتفاء بفكرة المنابر للاتجاهات السياسية داخل تنظيم الاتحاد الاشتراكي، تنظيم الدولة السياسي الوحيد منذ عهد عبد الناصر، ولقد وصل عدد المنابر حتى الآن إلى أربعين منبرا، وقيل إنها بداية طيبة للتقارب بينها، وتكوين الأحزاب فيما بعد!

هاجم شخص مخمور في وضح النهار، بنات مدرسة الورديان الثانوية بالإسكندرية، وهن خارجات من المدرسة، وتوفيت في

نهاية سبتمبر درية شفيق رائدة الحركة النسائية والوطنية الكبيرة، بنت مدينة طنطا التي حصلت على الدكتوراة من السوربون في فرنسا، وترجمت القرآن إلى الإنجليزية والفرنسية، وأصدرت في الأربعينات مجلة «المرأة الجديدة». سقطت من شرفة منزلها في الزمالك. قيل إنها انتحرت بسبب العزلة التي صارت فيها. كما أعلن محافظ الإسكندرية، عن بدء ردم جزء كبير من بحيرة مريوط في منطقة محرم بك بزبالة المدينة لإقامة حديقة دولية.

في غرب الإسكندرية، بحي الدخيلة الذي كان دائما بعيدا عن المدينة لا ترتفع فيه البنايات، وله شاطئ هادئ جميل، وتشتهر بناته وسيداته بالبشرة البيضاء والوجوه المستديرة والعيون الواسعة، بدأ غزو الوافدين على الإسكندرية من الدلتا والصعيد، يبنون في جنوب الحي، في الأرض المنخفضة الرملية التي يسميها أهل الدخيلة بالجبل!، بيوتا صغيرة في أزقة ضيقه، عشوائية التخطيط، بالاعتداء على الأرض، أو شرائها من أصحابها «البدو» الذين وضعوا عليها أيديهم منذ عشرات السنين، ولا يسكنون بها.

كان حي الدخيلة قبل ذلك، قد شهد في الستينيات خروج سكانه من اليونانيين، كما هجره عدد من الفنانين والفنانات الذين كانوا يمضون الصيف فيه، وأغلقوا بيوتهم وانتقلوا إلى «العجمي»، في الوقت الذي تأسست فيه في الولايات المتحدة الأمريكية شركة ميكروسوفت، وظهر أول جهاز كومبيوتر في العالم في الأسواق.

* * *

منذ ثلاثة أيام بدأت نوة «المكنسة»، التي يأتي مطرها شديدا على الإسكندرية. هكذا تكون العشرة أيام الأخيرة من نوفمبر كل عام. كانت السحب السوداء تندفع فتتصادم بقوة، ويملأ البرق الخاطف المتقطع فضاء المدينة، يتلوه رعد متتابع مزلزل. من يحرس المدينة الليلة غير الملائكة في السماء؟

المطر لا ينقطع. يظهره خاطفا في الأعالي ضوء البرق، بينما تظهره قريبا من الأرض أضواء أعمدة الإنارة، ولا ينقطع صوته وهو يصطدم بأسطح المنازل، أو الشوارع الأسفلتية، ولا صوت المياه التي تفيض على الأرصفة من الميازيب فوق أسطح المنازل ومن البلكونات، وتتلقف ذلك كله البالوعات التي تنتظره من عام إلى عام.

انقطع صوت الهواء الذي كان يعربد منذ قليل، لكن على شواطئ الإسكندرية لا يزال الصوت عاليا، ممتزجا بصوت الموج. وفي صالة شقة عائلة «يارا» يجلس أبوها وأمها أمام التلفزيون، ينعمان بالدفء الصادر من جهاز التكييف، ينتظران بعد قليل بث فيلم «قطار الليل». أمها وأبوها يعشقان رقص سامية جمال، «الليدي» كما يصفانها، غير المبتذلة، ويحبان أداء الممثل ستيفان روستي، الذي وصل شره في هذا الفيلم إلى مداه.

فؤاد أخو يارا ذهب كعادته في رحلة طويلة، مع السفينة التجارية التي يعمل ضابطا عليها، إلى أمريكا الجنوبية. سيعود بعد شهور طويلة ليبدأ رحلة أخرى حول العالم. هكذا دائما ضباط الكلية البحرية التجارية، التي اختارها أبوه له، وأحبها هو بدوره.

حجرة يارا بها دولاب خشبي من الأبنوس يقول عنه أبوها إنه تحفة، وهي تعرف أنه بالفعل تحفة. اشتراه أبوها، كما اشترى كثيرا من أثاث البيت، من بعض اليهود الذين تركوا المدينة بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ . يقول أبوها دائما إنه رفض أن يدفع لأصحابها سعرا أقل من سعرها ذلك الوقت، الذي هو أكبر بكثير من سعرها الأصلي. كانوا متسرعين يريدون الفرار من سياسة عبد الناصر، لكن بعضهم، كما يقول أبوها، كانوا أصدقاء له، يضاربون في البورصة معه في المنشية، التي كانت إجازتها الرسمية الأحد، لكنها تغلق أبوابها يوم السبت أيضا، وفي الأعياد اليهودية، مع الأعياد الإسلامية والمسيحية، لكثرة العاملين فيها من اليهود. ويضحك ويقول غير خجلان، لا من يارا ولا من أمها، كنا نتعلم الحب في شبابنا مع بنات المدرسة اليهودية في شارع شكّور. ودائما يشرد عنهم ويتحدث ذاهلا كأنه يرى فيلما في الهواء، فيحكي عن السماسرة الذين كانوا يملئون مقاهي ميدان محمد علي، بالذات على الجانب الأيمن إذا وجهت نظرك إلى البورصة، حيث المقاهي والرصيف المتسع يمتلئ أيضا بالصيارفة يتاجرون في العملة، والميدان أبيض حتى لو لم تشرق الشمس. ثم يغمض عينيه عما يرى ويسكت.

غير الدولاب في حجرة يارا، كانت هناك شماعة أيضا من الأبنوس، لها ثمانية رءوس، أربعة من أعلى، وأربعة أقل طولا من أسفل، فوقها قليل من ملابسها. وهي تجلس الآن إلى مكتب فرنسي الطراز مطعم بالنحاس، على قوائمه الأربعة نحت لامرأة ترفع عنقود عنب إلى فمها. أمام المكتب مقعدان مطعمان بالصدف، كذلك مقعدها الذي تجلس عليه، وفي الركن طقطوقة فارسية يرجع

تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي، حصل عليها أبوها من مزاد في شارع توفيق قبل ثورة يوليو، شارع عرابي بعد ذلك، حيث محلات الأثاث العريقة، ومحل هانو، الذي كان به كافتيريا تتحدث عن جمالها الإسكندرية.

في جانب من الغرفة سرير من النحاس، جواره كوميدينو صغير، وفوق مكتبها كتب وكراسات وحافظة أقلام وراديو صغير، أعلنت أكثر من مرة أنها لا تحرك مؤشره عن البرنامج الموسيقي، الذي لم تكن تعرف بوجوده من قبل، حتى حدثها عنه نادر حبيبها.

- يبدو أنني سأمضي عمري أقرأ وأكتب وأسهر مع البرنامج الموسيقي.

هكذا قال لها، وحدثها عن الموسيقى الكلاسكية، التي صار من محبيها، وعن الوقت الساحر الذي يبدأ بعد الثانية صباحا، وحتى السادسة، مع الموسيقى الخفيفة، إذ نادرا ما يكون هناك مذيع يقطع ما يبثه البرنامج، وفي أغلبها تكون موسيقى تصويرية لأفلام سبق له أن شاهد الكثير منها.

فعلت يارا ما فعله نادر، وقالت متفوقة عليه في الوصف، إن الموسيقى لا تتهادى قادمة من السماء، بل تفتح لها أبواب السماء، وتطير بها بين السحب البيض مع الملائكة.

أول ما أعلنا حبهما كان العام الماضي في حديقة أنطونياس، التي وجداها وقد حظر دخول الجمهور إليها. لماذا؟ صارت منطقة عسكرية منذ هزيمة ١٩٦٧. لكننا انتصرنا في حرب أكتوبر؟! لا يزال

بها مركز عسكري. لا تزال محظورة. هكذا أعلنهما أحد الجنود الذي بدا مندهشا من سؤالهما. أمضيا اليوم في حديقة الحيوان القريبة على بعد خطوات قليلة.

كان الرواد قليلين ذلك اليوم، والجو ربيعيا تفتحت فيه الورود على الأغصان. في اللحظة التي قرر فيها نادر أن يتشجع ويخطف قبلة، سبقته هي وقبلته بسرعة على شفتيه. انفتحت عيناه بلذة طاغية في سحرها لم يمر بها من قبل. كانت هذه أول قبلة في حياته. سرت اللذة من شفتيه إلى جسده كله، وأغمض عينيه من النشوة وقال «الله»!! وجد نفسه يفكر ما أجمل طعم النساء، ثم فتح ذراعيه من جديد يهتف «الله.الله» وبصوت عال هذه المرة. دار حول نفسه فكاد يقع.أسندته بكفيها ضاحكة وقالت «الناس حوالينا» لكنها تركته يحيط كتفيها بذراعه ويمشيان متساندين، ثم وضعت ذراعها في ذراعه فراحت طراوة ثديها ودفئه، يمشيان إلى ذراعه، ثم إلى روحه بلذة لم يكذب حين قال إنه لم يعرفها من قبل.

يارا الآن في حجرتها تبتسم، ويراودها خاطر أن تفتح النافذة لترى البرق في السماء، وترى المطر مسرعا إلى الأرض. البرق الخاطف يظهرمن خلف شيش وزجاج النافذة العالية. إنها عمارات «بحري» إيطالية الطراز التي تطل على الميناء الشرقي، وصوت النخيل الملكي الذي يحرك أغصانه الهواء يصل إليها. تريد أن ترى ولو للحظة السفن الراسية بعيدا، كيف تتحرك عالية هابطة فوق الماء. وتريد أن ترى الفلائك القريبة أيضا كيف لا يسحبها الموج، رغم إدراكها أنها مشدودة إلى مكانها «بالهلب» المعدني الكبير الثقيل، وربما أكثر من

«هلب». تريد أن ترى من بعيد قلعة قايتباي في الظلام، وأضواء النادي اليوناني حتى لو أغلق أبوابه، ونادي اليخت. هل هناك أحد بهما الآن؟

فتحت الزجاج برفق فنفذ إليها هواء بارد من فتحات الشيش الخشبي.. «مجنونة». قالت لنفسها وهي تعيد إغلاق الزجاج. عادت تسأل نفسها هل يمكن أن تفتح الشيش دون أن يشعر أبوها وأمها بذلك؟ اندماجهما مع فيلم «قطار الليل» لن يجعلهما غافلين عن صوت الهواء الذي سيدخل الغرفة.

بهدوء أغلقت باب الغرفة الذي كان مواربا. هكذا يمكن أن لا يصلهما صوت. فتحت الزجاج. أمسكت بأكرة الشيش قليلا فوجدتها باردة جدا. فتحت الشيش قليلا فاندفع هواء شديد بارد إلى وجهها وصدرها. ماذا تريد يارا الليلة؟

تريد أن يحملها الهواء ويطير بها في السماء. ابتسمت في سعادة. كان ما فتحته من الشيش كافيا أن ترى الظلام أمامها يعم كل شيء في الميناء الشرقي المواجه لها، ورأت قلعت قايتباي أشد ظلمة عما حولها. من يصدق أن مكانها كان فنار الإسكندرية، يزيد عن ارتفاعها أربع أو خمس مرات، وظل رابضا قرونا طويلة يهدي السفن، معلنا أنه أحد معجزات الدنيا السبع! هل كان هناك عشاق يأتون إليه نهارا كما يأتون الآن إلى القلعة؟ لكن تتالى صوت الرعد فأغلقت بسرعة النافذة مندهشة من جنونها.

كانت موسيقى «البوليرو» تملأ فضاء الغرفة. تريد حقا أن ترقص. شاهدت راقصة الباليه مره في برنامج «مع الباليه» التلفزيوني، وهي ترقص على الموسيقى الجميلة لرافاييل. راحت تحرك ساقيها على

إيقاع الموسيقى. متى تمتلك حقا حرية الفراشة؟ إنها تذهب مع نادر إلى حديقة النزهة لتبادل القبلات، وإلى منطقة «سموحة» حيث الأشجار الكثيفة والفراغ، والفلل القليلة جدا التي تبدو خالية من سكانها. لا يراهما أحد وسط الاتساع الهائل المليء بأشجار النخيل والكافور والصفصاف وأشجار الموز، وهما يتبادلان الأحضان والقبلات. وفي كل مرة رغم ما يتحرك فيهما من بهجة، يشرد نادر ويقول متى نكون معا بين جدران أربعة لا نخاف أن يرانا أحد؟ تعرف أنه يدعوها إلى الشقة التي يقيم فيها مع أصحابه، زملاؤهما في الكلية. تربّت على يده ولا ترد، وتقمع رغبة داخلها، رغبة كبيرة في الإجابة بنعم. لكنها ضحكت الآن وجلست إلى مكتبها. نظرت إلى كتاب الفلسفة الحديثة، المفتوح من قبل على درس عن «نيتشة». قالت هي ليلة «السوبرمان». وقبل أن تعاود المذاكرة، سمعت طرقات خفيفة على الباب ثم انفتح. كانت أمها وقد اتسعت عيناها بدهشة وحيرة وهمست:

ـ كاريمان!

اندهشت يارا أكثر فعادت الأم تقول:

ـ إنها واقفة في الخارج. رأيتها من العين السحرية بعد أن دق الجرس. هل أنتما على ميعاد؟

قالت يارا في دهشة أكبر:

ـ لا. لماذا تأتي في هذا الجو؟

أجابت الأم:

ـ بسرعة أخرجي افتحي لها الباب.

قطعت يارا الصالة الكبيرة التي يجلس فيها أبوها مندمجا مع الفيلم. عادت أمها تجلس جوار أبيها. كلاهما في ملابس منزلية شتوية فوقها روب أنيق، وأمامهما طبق به الكاجو والفستق وعين الجمل. «المكسّرات» التي غابت عن مصر طويلا أيام عبد الناصر، ثم عادت تغزو الأسواق غالية الثمن.

* * *

كانت الساعة قد دخلت في العاشرة، ونادر لايزال يجلس في الصالة الصغيرة ذات الضوء الكابي، ويشعر أنه في مكان قديم لم يمر عليه من قبل أحد. أكثر من ساعة وهو ينتظر، ولا ينقطع صوت الأنين الذي لا يعرف مصدره. المخبر الذي وصل إلى بيته في حوالي الخامسة مساء، أعطاه ورقة صغيرة، تعلنه أن يذهب الليلة إلى مقر مباحث أمن الدولة بشارع الفراعنة في الساعة الثامنة والنصف. لم يستغرق الأمر غير دقيقة عند الباب حين خرج ليرى من الطارق وعاد واجما. كان أبوه قد انتهى للتو من صلاة المغرب، وأمه في المطبخ تعد صينية السمك، وأخوه الصغير مع الأم في المطبخ يستعجل الطعام. رآه أبوه يعود واجما فسأله:

ـ من كان بالباب؟

لم يرد نادر للحظة بدا فيها شاردا ثم قال:

ـ لا أحد. شخص أخطأ في العنوان. يريد جيراننا.

ودخل إلى غرفته صامتا. غرفة بسيطة بها سرير قديم، ومكتب قديم، ودولاب معدني قديم أيضا، وأرفف خشبية على الحائط عليها عدد قليل من الكتب. تعوّد أن يستعير الكتب من مكتبة الكلية، ومكتبة البلدية، وأكثر الكتب الصادرة حديثا إن لم يستطع شراءها يستعيرها من عم السيد، بائع الكتب في محطة الرمل، نظير قرش صاغ للكتاب، أو قرشين، أو حتى خمسة قروش إذا كان الكتاب غاليا. روايات دستويفسكي تشغل مكانا واضحا بين الكتب بحجمها الكبير. لماذا حقا كان حريصا على شرائها رغم أنه كان يمكن أن يستعيرها أيضا؟ ولماذا قرأها دائما في ليالي الشتاء الباردة وصوت المطر كما هو الليلة لا يكف عن الوصول إليه؟ يحلم دائما بيوم يزور فيه روسيا، ويسهر حتى الصباح وسط ليالي الجليد البيضاء.

كان قد انتهى اليوم من قراءة رواية «دكتور زيفاجو» بعد أسبوع من المتعة والألم. توقف عند الأشعار الأخيرة. توقف عند كل شيء فيها، ويردد الآن لنفسه.

«لا يزال ظلام الليل مخيما

ولم يحن بعد للفضاء أن ينثر

حتى هذا الوقت

نجومه التي لا تعد.»

دائما بينما كانت «لارا» تجري أمامه في فضاء الحقول، والبنايات التي يحاصرها الجليد والموت، والحرب ومعسكرات الاعتقال، كان اسم حبيبته يارا ووجهها يمشيان فوق صفحات الرواية، ويجد

نفسه يقول يارا. يارا. وكثيرا ما يقرأ لارا يارا، ويطرد عن نفسه هاجس الفراق الذي أصاب لارا وزيفاجو.

في هذه اللحظات وهو في غرفته كانت مقطوعة «مارش السلاف March Slav» لتشايكوفسكي تملأ من الراديو الفضاء حوله. وكما يحدث في كل مرة يندهش كيف ينطقها المذيع «مارش العبيد». ولا ينتبه إلى أن السلاف «Slav» اسم جنس بشري وليس العبيد Slaves. لا ينسى ما قاله الدكتور حسين فوزي، السندباد المصري، في أحد دروس الموسيقى التي يقدمها مساء كل خميس بالبرنامج الثاني بالراديو، كيف كتب تشايكوفسكي اللحن للأوركسترا حين انقلبت صربيا الأرثوذكسية ضد الدولة العثمانية عام ١٨٧٦، ووقفت روسيا الأرثوذكسية أيضا مع صربيا، وأرسلت جنودها ليحاربوا معها. كان اللحن تمجيدا للشعوب السلافية ضد العثمانية. لكن ليس ذلك مهما الآن، فهو مرتبك لا يعرف ما سيحدث الليلة، والرجل الذي جاءه بورقة الاستدعاء، لابد يمشي الآن تحت المطر والريح، أو يقف بينهما على شاطئ المكس الخالي ينتظر الأوتوبيس. هل استدعاؤه أمر مهم جدا ليأتي هذا الرجل وسط هذا الجو وبهذه السرعة؟ وماذا يحدث لو لم يذهب؟

كانت ساعة مع الموسيقى العربية قد بدأت بأغنية «سجى الليل» لمحمد عبد الوهاب، والتي كتبها الشاعر أحمد شوقي، ولدهشته الكبيرة، وجد نفسه ينسى أمر الاستدعاء، ويفكر كيف أن لحن أغنية سجى الليل قائم على مساحة لحنية من مارش السلاف. أدهشه الاكتشاف وابتسم. فكر كيف لم يدرك ذلك من قبل، ولا أدركه أحد من نقاد الموسيقى الذين يتهمون محمد عبد الوهاب دائما بالسرقة

من الموسقى الغربية. لكنه أحب أن محمد عبد الوهاب كان يعرف في وقت مبكر جدا موسيقى تشايكوفسكي!

وأعجبه أن يدرك ذلك هو أو يفكر فيه، رغم القلق الذي يشمله من هذا الاستدعاء المفاجئ. إذن هو قادر على مواجهة الاستدعاء. لكنه عاد يسأل نفسه: لماذا لم يعرف حقا من المخبر سبب استدعائه؟ لم يكن ليجيب. لقد تناول منه الورقة واجما كأنه كان ينتظره. لفت نظره فقط كف الرجل الكبيرة، الأكبر مما تعود أن يرى من أيادي الناس، وهو يسلمه الورقة!

رأى أمامه رواية دكتور زيفاجو مفتوحة على آخر صفحة فأغلقها. جاءته رائحة السمك الشهية وقد فتحت أمه باب الغرفة وقالت باسمة:

ـ صنية سمك تحلف بيها. تعال تعشّى.

ـ شبعان.

اندهشت وقالت:

ـ لا.. بابا اشترى المياس اليوم مخصوص من أجلك. اشترى اثنين كيلو بثلاثة جنيهات دفعة واحدة.

لم يتحرك من مكانه. سألته وهي تنظر إلى عينيه:

ـ مالك يا نادر. ماذا يشغل بالك؟

ـ عندي مشوار مهم. أحد أصدقائي مريض ولا بد أن أزوره.

ـ في هذا الجو؟

ـ اعذريني يا ماما. ثم إنك تعرفين أني أحب المطر.

لم يبد أنها اقتنعت. رأى ذلك على وجهها. قال:

ـ طيب.هاتي لي الأكل هنا.

وجد ذلك حلا حتى لا يأكل بينهم وهو شارد. بسرعة عادت بالصينية، فوقها طبق كبير به سمكتان من المياس الكبير مشويتان، وطبق آخر به أرز أحمر. سمكتا المياس تحوطهما شرائح الطماطم والبصل والفلفل وقليل من شرائح البطاطس. هذه الوجبة التي يعشقها هل تنسد نفسه حقا عنها؟

بدأ يأكل على مهل، ثم لم يستطع أن يقاوم. لابد أن يظهر لأمه الفرح الذي تعودت عليه منه حين تطهو السمك. لن يتركها أبدا في قلق تفكر بالذي يشغله عن أكلها الذي يحبه.

انتهى وارتدى ملابسه بسرعة. بنطلونا وقميصا فوقه بلوفرفوقه جاكيت شمواه، وغادر البيت بعد أن أخبر والديه أنه سيبيت الليلة مع أصحابه بعد أن يزور صاحبه المريض.

يعرفون أنه يقضي أكثر ليالي العام الدراسي مع أصحابه الغرباء عن المدينة، في شقة استأجروها بالقرب من الكلية. في البداية لم يكن أبوه راضيا عن ذلك، لكنه يراه يقضي وقته كله في القراءة، ويعرف أنه مشغول بها عن أي شيء آخر، لذلك اقتنع بما قالته له الأم، وماذا سيفعل نادر مع أصحابه غير ما يفعله هنا. القراءة؟

بسرعة كان يقف على شاطئ المكس، عند نهاية خط الأوتوبيس رقم «١»، خلفه كازينو «زفير» المغلق منذ زمن، ونادي المجد الرياضي الذي لا يزيد على شقة في البيت الصغير، بها صالة للفرجة على

التلفزيون، وغرفة للعب البنج بونج. وجوار البيت «كشك» سجائر عم أحمد العجوز، وأمامه كالعادة محطة السكة الحديد القديمة، التي لا تمر عليها القطارات، ولا يعمل فيها أحد.

لم يتأخر الأوتوبيس في الوصول. توقف فنزل منه رجلان أسرعا وسط الريح والمطر، وعم أحمد الذي رآه يقف أمام نادي المجد وتحت البلكونة سأله:

ـ إلى أين تذهب في هذا الجو يا أستاذ نادر؟

كان نادر ينظر إلى الأمواج الهادرة العالية يتمدد صوتها في الفضاء، ويكاد يدخل في بعضه من البرد. قال:

ـ مشوار مهم يا عم أحمد.

ـ ربنا معاك يا ابني.

أسرع داخلا الأوتوبيس الذي لم يغادره سائقه، بينما نزل الكمساري في اتجاه عم أحمد، وعاد مسرعا يحمل زجاجة «سباتس»، وقال للسائق وهو يرفعها أمامه:

ـ لا يفلّ الحديد إلا الحديد. إذن لا يفل البرد إلا البرد.

ثم قال لنادر:

ـ أهلا يا أستاذ. قرأت مرة في الجورنال أنهم في روسيا يأكلون الآيس كريم في عز البرد، ونحن لسنا أقل منهم.

ابتسم نادر، وقدم له قرش صاغ ثمن التذكرة، فقال الكمساري للسائق:

ـ لا تنتظر. لن يخرج أحد من بيته الليلة إلا هذا الأستاذ المجنون. هيا بنا.

ابتسم نادر من جديد وتحرك السائق بالأوتوبيس. راح نادر ينظر إلى نوافذ البيوت القديمة. كلها مغلقة. كذلك نافذة شقتهم. سرعان ما مرّ الأوتوبيس بمساكن خفر السواحل المنخفضة الصامته أيضا لا يظهر بينها أحد. سيدخل الأوتوبيس في شارع المكس، وسيرى في طريقه كل شيء صامتا. مخازن الجيش على اليمين، والسلخانة وشركات دباغة الجلود على اليسار تتسلل رائحتها إلى الفضاء. سيمر على مدرسة الورديان الثانوية للبنات، ومدرسته قديما، طاهر بك الإعدادية، وسيمر على مقهى خفاجي الذي سيظهر خلف زجاجه بعض الحضور كالأشباح وسط الظلام. هل يكون عيسى سلماوي هنا الليلة في المقهى القريب من بيته، ولا يذهب إلى أتينيوس في محطة الرمل؟ يقول لهم إنه دائما في الصباح في مقهى خفاجي، ودائما في المساء بأتينيوس. هل يكسر القاعدة الليلة بسبب المطر والبرد؟ وهل يترك هو الأوتوبيس ويخبره بأمر الاستدعاء؟ لا. ليذهب ينهي كل شيء وحده.

كان الأوتوبيس قد تجاوز شارع المكس، ودخل إلى منطقة مينا البصل، ثم إلى شارع السبع بنات، والمنشية، ولدهشته حين وصل الأوتوبيس إلى محطة الرمل كان خمسة أشخاص قد ركبوا طوال الطريق ولم يفطن لهم. مشى وحده إلى شارع الفراعنة. كان المطر قد صار خفيفا وهو يمشي في شارع صفية زغلول الذي أغلقت كل محلاته تقريبا، ثم عرج إلى شارع السلطان حسين، ولما دخل شارع الفراعنة وقف أمام الفيللا التي صارت مقر مباحث أمن الدولة. رأى

الأشجار العالية التي تحيط بها. الظلام في الشوارع الجميلة المحيطة. النور الشحيح الذي يأتي من الفيللا. كانت الساعة الثامنة والنصف. تماما حسب الموعد.

لكنها الآن العاشرة ولم يدخل بعد إلى صاحب الاستدعاء. لم يتغير النور الشحيح في الصالة، ولم ينقطع الأنين الذي لا يعرف مصدره. لكن رجلا قصير القامة ظهر أمامه فجأة، دون أن يحدث أي صوت، وأشار إلى باب غرفة في نهاية الصالة، كان موصدا طوال الوقت لم يدخل ولم يخرج منه أحد، وقال:

ـ تفضل.

نهض بسرعة وتقدم، لكن الرجل أمسك بذراعه لحظة ثم قال:

ـ أفضل شيء أن تقول الحقيقة لتخرج بسرعة. ستقابل سيد بيه عبد الباري رئيس مباحث أمن الدولة. هو رجل طيب ولا تضايقه.

قال الرجل القصير ذلك برفق واختفى. لم ينتبه نادرأين اختفى الرجل حقا من أمامه. كما لم ينتبه من قبل من أين ظهر!

* * *

وجه كاريمان الأحمرمن البرد أخذ عيني يارا ودهشتها. جعلها تبتسم كطفلة لم تر ذلك من قبل. لقد دخلت عليها كاريمان وعلى رأسها «بونيه» أزرق، وعلى جسدها بالطو أزرق أيضا، وعلى عنقها إيشارب سماوي، فبدا كأن البرد كله تركز على وجهها وأنفها الذي يكاد يشتعل من الإحمرار. قالت:

ـ طبعا مندهشة من حضوري المفاجئ.

قالت يارا مبتسمة:

ـ على العكس سعيدة جدا. مندهشة فقط من جمالك.

ابتسمت كاريمان وفركت يديها قائلة:

ـ الله على الدفا.

وخلعت البالطو لتضعه على الشماعة، والإيشارب أيضا، ثم عادت تفرك يديها بقوة وتقول:

ـ نفسي أشرب قهوة.

ـ أسهل حاجة.

قالت يارا ذلك، وبسرعة أخرجت من كوميدينو صغير في أحد الأركان «سبرتاية» وكنكة وفنجانين صغيرين وبرطمانين صغيرين أيضا في أحدهما بن وفي الثاني سكر وزجاجة ماء. قالت كاريمان وهي تنظر إلى كل ذلك:

ـ نفسي أضع في حجرتي عدة قهوة كهذه. أمي لا توافق.

قالت يارا في دهشة:

ـ لماذا؟

ـ زوج أمي في الحقيقة يقول لأمي إن البنات لا يشربن القهوة.

ضحكت يارا بصوت عال ضحكة قصيرة وقالت:

ـ مجنون.

قالت كاريمان:

ـ أكثر من ذلك يقول إن البنت التي تشرب قهوة يمكن أن تدخن الحشيش أيضا.

ـ فعلا مجنون رسمي.

ـ كل شوية يقول لي ملابسك قصيرة وينظر إلى ساقي في الداخلة والخارجة. ماعلينا هل أدخن سيجارة؟

ارتبكت يارا للحظة ثم قالت:

ـ طبعا.

وبسرعة أغلقت باب الغرفة الموارب قليلا.

أخرجت كاريمان من حقيبتها علبة سجائر «كليوباترا» وولاعة «رونسون» وأشعلت سيجارة. أخذت نفسا عميقا وأغمضت عينيها لحظات، ثم نفثت الدخان ببطئ وهي تفتح عينيها من جديد. بدا كأنها تزيح هما ثقيلا عن صدرها.

انتهت يارا من إعداد القهوة، وقدمت لكاريمان فنجانا أمسكت به، وقربته من أنفها تشمه، بينما تنظر يارا إليها سعيدة. قالت كاريمان:

ـ لماذا لم تأت إلى الكلية اليوم؟

ـ الجو غير مشجع على الخروج.

شردت كاريمان قليلا وكسا وجهها حزن خفيف ثم قالت:

ـ كان بودي أن أبقى في البيت لكن..

وعادت إلى الشرود من جديد ثم قالت:

ـ أمي ذهبت إلى عملها بالمدرسة، وبقى زوج أمي في البيت، فخرجت إلى الكلية.

فكرت يارا قليلا ثم قالت:

ـ ما هي حكاية زوج أمك يا كاريمان؟

ـ سافل. يتحرش بي.

ـ إلى هذه الدرجة؟

هزت كاريمان رأسها وقالت:

ـ لا تشغلي بالك. المهم. ظهر اليوم بكلية الحقوق طلبة يحملون السلاسل الحديدية، وهاجموا بعض الطلبة اليساريين. إنهم من الجماعات الإسلامية.

علت الدهشة وجه يارا غير مصدقة فاستمرت كاريمان.

ـ أكيد سيظهرون في كليتنا.

سألتها يارا:

ـ خايفة على حسن؟

ـ وعلى نادر طبعا. الاثنان لم يأتيا اليوم. أكيد بسبب الشتا.

زاد ارتباك يارا فقالت كاريمان:

ـ لابد أن ننتبه الأيام القادمة.

فكرت يارا هل هذا حقا هو ما جعل كاريمان تزورها في هذا الجو؟ سيذهب الجميع غدا أو بعد غد إلى الكلية وسيعرفون بما جرى. لكن كاريمان قالت:

ـ هل يمكن أن أبيت عندك الليلة؟

ابتسمت يارا سعيدة وقالت:

ـ طبعا.

وبسرعة وقفت تفتح الدولاب تخرج منه قميص نوم شتوي.

ـ ملابسي ستكون واسعة قليلا، لكن السرير صغير وسيدفئنا معا.

نظرت إليها كاريمان نظرة طويلة وهي تتناول منها قميص النوم وقالت؟

ـ عيناكي العسليتان جميلتان. لامعتان ونديتان كأنهما ستبكيان.

قالت يارا ضاحكة:

ـ أين أنا من كاريمان الشقراء وعينيها الخضراوين، اسمعي الموسيقى الجميلة معي، غيري ثيابك وتمددي جواري على السرير.

تساءلت كاريمان:

ـ لمن هذه الموسيقى؟

ـ برودين، لاتسأليني من هو، يمكن أن أعرف عنه شيئا فيما بعد. المهم المقطوعة اسمها «ملحمة الأمير إيجور» سمعتها من قبل كثيرا

جدا. ميزة البرنامج الموسيقي أنه كثيرا ما يعيد المقطوعات. تحفظيها. عشقت هذه المقطوعة. دائما تذاع هذا الوقت بالليل.

ولم تستطع يارا أن تمنع نفسها من النظر إلى كاريمان وهي تخلع الجوب والبلوزة لترتدي قميص النوم. ابتسمت معجبة من تكوين جسدها البديع، ووجدت نفسها تسألها:

ـ هل أعجبك فيلم النداهة؟

ضحكت كاريمان، ودخلت جوارها تحت اللحاف وهي تقول:

ـ حسن لم يعطني فرصة أستمتع بالفيلم. طوال الفيلم يبوس فيَّ.

ضحكت يارا ضحكتها القصيرة المبهجة وقالت:

ـ كأنهما متفقان. حسن ونادر. لقد فعل نادر بي ذلك أيضا ونحن نشاهد الفيلم. لكن الأغنية جميلة جدا وخوفتني.

قالت كاريمان:

ـ طبعا الفيلم لم يستطع أن يصل إلى المعنى العميق للرواية. الحكاية ليست سذاجة القروي أو القروية أمام المدينة، ولا سذاجة الجهل أمام العلم.هي شيء كأنه القدر. لكل إنسان ندّاهة خفية إلى مصير غامض.

ـ الغريب ما قاله لي نادر بعد أن خرجنا من الفيلم. راح يشرح التاريخ الأسطوري للنداهة منذ العصر اليوناني. حكى لي حكاية السيرينيات، ربّات الغواية، اللاتي كان البحارة يسمعون غنائهن في البحر، فيتركون السفن ويلقون بأنفسهم وسط الماء ولا يعودون.

وحكى لي كيف شاهد فيلم «أوليس» في سينما درجة ثانية منذ سنوات، ورأى كيف حاول «أوليس» أن لا يستجيب لصوت الغواية، فجعل البحارة الذين سدوا آذانهم يربطونه إلى صاري السفينة دون أن يسد أذنيه، وكيف لم يستطع البقاء مربوطا وهو يسمع أصوات السيرينيات، فمزق الأربطة وكاد يلقي بنفسه في البحر، لولا أن أمسك به البحارة، وكانت السفينة قد ابتعدت.

قالت كاريمان ضاحكة:

ـ كل منهما مجنون..

ضحتكا. ثم ران عليهما الصمت لحظات، وكانت موسيقى ملحمة الأميرإيجور قد انتهت، وبعدها ملأت فضاء الحجرة موسيقى

فيلم الأب الروحي. يارا تعرفها جيدا، لكن علا وجهها خوف وهي تتذكر أغنية ليلى جمال في فيلم النداهة.

شيء من بعيد نادى لي

جرى لي ما جرى لي

ومش بإيدي يابا

مش بإيدي يابا..

لاحظت كاريمان شرودها فسألتها:

ـ إلى أين ذهبت؟

ابتسمت يارا ولم ترد. قالت كاريمان:

ـ ليتنا لا ننام. نظل نسمع الموسيقى ونتكلم حتى الصباح..

* * *

حين دخل نادر الغرفة رآها كبيرة جدا، ورأى رئيس المباحث يجلس إلى مكتب ضخم عند نهايتها. لم يرفع الرجل وجهه إليه. كان يكتب شيئا في ورقة أمامه، وأشار إليه أن يجلس، بينما ظل مشغولا بما يكتب، لحظات يفكر فيها نادر في صوت الأنين الذي لم ينقطع هنا أيضا، ويذكر الأفلام الأجنبية عن المعتقلات النازية، وما قرأه في الصحف عن المعتقلات في عهد جمال عبد الناصر، ويقول لنفسه هذا لا يحدث في مصر الآن. لكن صورا من التعذيب في فلم «الكرنك» المعروض منذ الصيف في السينما تعود تتجسد أمامه. في لحظات فكر في يارا. يارا أجمل من سعاد حسني فهل يصلون إليها؟ وأكثر من ذلك دفع نفسه ليفكر في الاعتذار لسعاد حسني، وتخيل أنه قابلها وراح يعتذر لها لأنه فكر أن هناك من هي أجمل منها، وراح يتأمل ابتسامتها الجميلة التي تفتح له أرجاء الكون وتملأه بالبهجة، وشعر براحة جميلة وهو يفكر في شيء غير التعذيب والإهانة قاصدا أن يشجع نفسه.

في النهاية رفع رئيس المباحث وجهه إليه، وكان قد انتهى مما يكتب، فكاد نادر يضحك بقوة. لم يتوقع أبدا هذا الشبه الكبير بينه وبين مصطفى الحلاق الذ ي يحلق عنده في المكس. كأنه توأمه. هذا سبب آخر ليشعر بالاطمئنان. سيتعامل معه باعتباره مصطفى الحلاق، وليس أبدا سيد بيه عبد الباري. وربما يفكر أن يلتقي بزوجته أيضا ليحكي عنها القصص الخرافية التي يحكيها زبائن

مصطفى الحلاق عن زوجته «ليلى» الجميلة حقا، التي يعرف الجميع أن حكاياتهم عنها كلها من أحلامهم، وأن أحدا منهم لم يلتق بها، وأقصى ما فعله أن رآها تمر أمامه في الشارع، لكنهم لا يتوقفون عن الحكي..

ـ أهلا يا سي نادر.

ارتبك نادر الذي عاد من خيالاته.

ـ تشرب شاي؟

ـ شكرا يا أفندم.

ـ أنت تشتغل أم تدرس؟

ـ الاثنان يا أفندم. أعطي دروسا خصوصية لأبناء الجيران في الحي، وأدرس في كلية الآداب. أساعد نفسي.

ـ إذن أنت الوحيد الذي تمتلك المال بين زملائك؟

ـ مش فاهم!

ـ يعني تصرف على مجلات الحائط من مالك.

ابتسم نادر وقال:

ـ مجلات الحائط لا تكلف شيئا. حضرتك عارف سعر فرخ الورق المقوى أربعة قروش لا أكثر. المجلة فرخ واحد عليه المقالات. القلم الجاف أيضا بقرشين.

هزّ سيد بيه عبد الباري رأسه وصمت قليلا، ليعود صوت الأنين

عاليا أكثر. صوت أنين امرأة هذه المرة. لكن نادر قرر أن يتماسك بأقصى ما يستطيع، وهكذا أنكر تهمة أنه شيوعي. قال ليس تهمة أن يكون الإنسان شيوعيا، هذا من ناحية، كما أنه ليس معنى إنهم يدرسون الماركسية في الكلية أنه شيوعي، ففي قسم الفلسفة يدرسون كل النظريات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية. وإذا كانوا غير متوافقين هو وأصحابه مع سياسة الرئيس السادات، خاصة سياسته الجديدة التي تقرب مصر من إسرائيل وأمريكا، وتتخلى عن حليفها الأصيل الاتحاد السوفيتي، وعن فضائها ومجالها الحيوي، العالم العربي، فذلك فقط لأنهم مصريون يحبون وطنهم.

أعطاه سيد بيه عبد الباري فرصة كبيرة للحديث، لأنه يريد أن يعرف منه كل خبايا نفسه، وأبدى له إعجابا بما يقول، ليستدرجه ليقول أكثر. ونادر الذي لم يتزحزح عن تصوره لسيد بيه عبد الباري باعتباره مصطفى الحلاق، راح يجيب عن كل الأسئلة باستفاضة وبلا خوف. قال إنه لا يعرف أن في مصر أحزابا شيوعية سرية، وإنه يعرف ذلك الآن لأول مرة من سيد بيه، وكذلك لا يعرف بشر زهران ولا حسن حافظ ولا كاريمان شيئا عن ذلك. هم أصدقاؤه ويعرف كل شيء عنهم. وأراد أن يمزح قليلا فقال إن بشر زهران مثلا يحرر المجلات رغبة في الشهرة أكثر من كونه عملا سياسيا، لأن بشر قصير القامة. وفي هذه اللحظة ارتبك خوفا أن يكون سيد بيه عبد الباري قصير القامة، لكن الرجل ضحك، فاطمأن نادر، واستطرد أن حسن فنان يكتب المسرحية والقصة، ويميل إلى مسرح العبث أكثر.

عناوين مسرحياته تدل على ذلك. «العين تمشي والقدم تنظر»

«شمس الليل وقمر النهار» هل لهذا علاقة بالشيوعية؟ حتى قصته الأخيرة القصيرة جدا المنشورة بآخر مجلة علقوها، اسمها «القلق القديم»، عن أعداء لا يأتون المدينة فيتحول أهلها إلى أقزام؟ إنها قصة مستوحاة من رواية «صحراء التتار» لدينو بوتزاتي. فقط أضاف إليها حكاية التحول إلى أقزام.

كانت عينا سيد بيه عبد الباري تتسعان في دهشة حقيقيه ثم قال:

ـ دينو بوتزاتي هذا أجنبي؟

ـ كاتب إيطالي.

ـ هل هو معكم في الحزب؟

ارتبك نارد، ثم أحس بالرغبة في الضحك، لكنه تماسك وقال:

ـ يا أفندم لا حزب ولا غيره. نحن فنانون غاضبون، وبوتزاتي هذا كاتب إيطالي كبير مثل بيرانديللو مثلا، وروايته قديمة ترجمت إلى العربية، وتباع على الأرصفة بعشرة قروش. نحن لا نحب السياسة.

نظر إليه سيد بيه عبد الباري نظرة طويلة ثم قال:

ـ ويارا.. ألا تحبها أيضا؟

هنا ارتبك نادر. ضاعت منه صورة مصطفى الحلاق التي احتلت وجه سيد بيه عبد الباري، وقفزت مكانها صورة الرجل الذي حاول اغتصاب سعاد حسني في فيلم الكرنك، لكن استطاع أن يخفي ألمه ويقول:

ـ أرجوك يا أفندم لا داعي للحديث عن يارا.

اتسعت عينا سيد بيه كأنه أدرك نقطة ضعفه. وقال:

ـ خائف عليها؟

أغمض نادر عينيه، وبدأ يشعر برعب حقيقي، ثم قال بصوت خافت:

ـ أجل.

مرّت لحظات صمت، لاحظ فيها نادر نظرة سيد بيه عبد الباري العميقة إليه، فراح ينظر إلى الأرض كي لا يظهر ضعفه أكثر من ذلك، وإذا بسيد بيه عبد الباري يقول:

ـ طيب. دعنا من يارا الآن. لو سألتك هل في مصر حرية أم لا فماذا ستقول؟

ـ لا.

خرجت الإجابة من نادر بسرعة دون أن يفكر. ظهر الغيظ على وجه سيد بيه عبد الباري، فقال نادر بسرعة وقد عادت من جديد صورة مصطفى الحلاق تحتل وجه الرجل:

ـ آسف. أنا أصلا وجودي لذالك أقول لا.

ـ ماذا تعني؟

هنا انطلق نارد في الكلام كمن وجد مهربا حقيقيا:

ـ الوجودية ترى الإنسان يولد من دون إرادة، ويموت دون إرادة،

وبين الميلاد والموت يعيش الإنسان كما يريد له الناس، فهو أيضا غير حر. الآخرون هم الجحيم، والحرية الوحيدة هي في الانتحار.

ارتبك سيد بيه عبد الباري هذه المرة. لاحظ نادر ذلك فاستمر يتحدث بسرعة وشجاعة:

ـ الوجودية أنتجت حركة الهيبز مثلا في أوروبا، ومغنين فوضويين مثل جولييت جريكو. الخروج على المألوف هو المعنى الوحيد للوجود. الإنسان لا يحب أن يكون ملتزما بشيء. يحب أن يكون لا منتميا لشيء؟

بدا سيد بي عبد الباري شاردا حقا كأنه يفكر في شيء آخر، ثم قال فجأة وهو يشير إلى الخارج:

ـ تفضل.

ـ أخرج؟

ـ طبعا. لن تنفعنا بشيء.

وقف نادر بسرعة قائلا في حماس:

ـ متشكر جدا يا أفندم.

لم يكن يدري وهو يخرج مسرعا، أن سيد بيه عبد الباري كان يتابعه بنظراته في قرف.

لم يصدق نادر أنه غادر المبنى إلا بعد أن لفحه الهواء البارد، ورأى أمامه خيوط المطر في الفضاء المظلم. رأى أمامه شارع فؤاد الذي اندفع في اتجاهه، فأسرع تحت البلكونات يحتمي من المطر.

لاحظ أن القمر موجود بعيد جدا فوق السحب التي تحجب ضوءه، ووجد نفسه يضحك ويهتف:

«ينصر دينك يا مصطفى يا حلاق».

سيأخذ طريقه الآن إلى محطة الرمل، وسيركب الترام ليصل إلى الشقة يحكي كل شيء لأصحابه، ويكون جميلا لو ذهبوا الليلة إلى «نوال بوط» Nawal Boat، ليسهروا حتى الصباح مع نوال. سيحكي لها في الملهى كل ما جرى ويضحك. لن يحكي شيئا ليارا، وسيطلب من أصحابه ألا يخبروها بشيء. يارا طائر الجنة لا يحب أن يصيبها بأي خوف. نوال سيتسع صدرها له، ستخفف عنه، وستشعره بالاطمئنان.

يحتاج حقا اليوم أكثر من أي يوم أن يعرف لماذا تهتم بهم نوال صاحبة الملهى، هم الشباب الشيوعيون كما قالت عنهم ضاحكة من قبل. هل سيعرف سرها الليلة؟ لكن الوقت مهما أسرع في الطريق سيكون متأخرا. الساعة تقترب من منتصف الليل. فليؤجل نوال بوط إلى ليلة أخرى.

كانت كل المحلات حوله مغلقة، ويسأل نفسه كل هذا الظلام في الطريق الليلة؟

وحيدا دخل إلى شارع صفية زغلول أيضا. لم ير أحدا في الطريق، وكل المحلات أيضا مغلقة. لم ينتبه إلى أفيشات الأفلام على سينما مترو أوريالتو أو حتى الهمبرا وستراند عند نهاية الشارع. في محطة الرمل كان باعة الكتب جميعا قد لموا فرشهم وأغلقوا أكشاكهم الملحقة بالحائط. لا أحد أيضا. الترام الواقف مضيء من الداخل،

لكن لا أحد يتجه إليه. يبدو منسيًّا من زمان هنا. وحين تحرك به كان وحده. في محطة الأزاريطة ركب رجل في حوالي الأربعين من العمر، والمدهش أنه ترك عربة الترام الخالية كلها وجلس أمامه، ثم راح يفرك يديه من البرد وينفخ فيهما، رغم أنه يرتدي بالطو أسود ثقيلا، وحول عنقه كوفية من الصوف.

ـ نوّة المكنسة.

قال الرجل ولم يرد هو. كان يفكر هل أرسل سيد بيه عبد الباري هذا الرجل خلفه. ثم قال الرجل:

ـ لها نصيب كبير من اسمها. تكنس كل شيء على الأرض.

ابتسم هذه المرة. لا يظن أن رئيس مباحث أمن الدولة بهذا الغباء ليرسل شخصا لا يرى غيره.

بسرعة وصل الترام إلى محطة كامب شيزار، وبسرعة غادر هو الترام، وبسرعة صعد السلم الصغير للمحطة ليجد الشارع خاليا، والمحلات أيضا مغلقة، والريح اشتدت وصارت تطير الأوراق على الأرض، ولا تزال المياه تجري إلى البالوعات رغم أن المطر صار خفيفا جدا. بسرعة دخل أحد الأزقة. سمع صوت الموج وقابله الهواء وهو يتجه إلى شارع تانيس. المسافة قصيرة لا تزيد على عشرين مترا، ثم دخل الشارع والهواء يتحرك حوله. صعد سلم البيت وراح يدق جرس الباب أكثر من مرة. تأخّر الرد عليه حتى سمع صوت أحمد باسم الخشن.

ـ الصبر يا بني آدمين.

ابتسم. فتح أحمد الباب، كالعادة رآه يسد الطريق بقامته الفارعة وصدره العريض. لكن أحمد اندهش من مرآه وقال:

ـ ادخل بسرعة. أنت غرقان.

دخل ليرى حسن حافظ جالسا في الصالة، ومعه بشر زهران، بينما أغلق أحمد الباب وعاد إليهم يقول:

ـ شكلك يا نادر هربان من كارثة..

كان نادر مندهشا من عودة حسن بسرعة من المنصورة التي سافر إليها منذ أسبوع. تساءل:

ـ عدت يا حسن؟ قلت إنك ستمضي أسبوعين.

وتصافحا. لكن أحمد الذي بدا يستكمل حديثا سابقا اندفع يقول:

ـ لعلمكم نسوان القرية عندنا جميلة جدا لكن العيب في الكلوتات.

ضحك بشر وابتسم حسن ابتسامته التي لا تكتمل، وبدا لنادر أنه لن يحكي لهم ما جرى معه لأن أحمد انطلق يتحدث:

ـ الكلوتات كلها إما «عبك» أو «تيل نادية».

وجد نادر نفسه يكاد ينسى ما كان فيه. ويندهش لأنه أتى هنا ليحكي ولم يتوقع أبدا هذا الحديث. وجد نفسه يضحك مع بشر، ولا تزيد ابتسامة حسن، بينما أحمد يواصل الحديث:

ـ يا أخي اليوم رأيت في محل «برستيج» بشارع سعد زغلول، في الفاترينة أقصد، كلوتات عبارة عن فتلة. وأي فتلة؟ وبكم الكلوت؟

جنيهان مرة واحدة. قلت للبائع لماذا جنيهان. لومليمان ممكن. دا حتى البضاعة يمكن أن تقع منه.

لم يستطيعوا التوقف عن الضحك، وارتفع صوت حسن وهو يضحك هذه المرة، لكن بشر قال:

ـ اسكت يا أحمد لو سمحت. نريد أن نعرف لماذا جاء نادر في هذا الجو.

وكان نادرقد قرر أن يقطع الطريق على كلام أحمد فقال:

ـ أنا قادم من أمن الدولة.

حط عليهم الصمت والدهشة. تبادل بشر وحسن النظرات في انزعاج، لكن أحمد قال:

ـ سأدخل أنا إلى سعدية. خليكم في أمن الدولة. لن ترتاحوا إلا إذا قبض عليكم جميعا.

وتحرك ناحية حجرته.

نادر يعرف أسماء النساء اللاتي يأتي بهن أحمد إلى الشقة، ويعرف أيضا أسماء الطالبات اللاتي يأتي بهن، ويحرص هو وبشر وحسن أن لا يكونوا موجودين وقت حضورالطالبات حتى لا يسببوا لهن أي حرج. وجد نفسه يسأل في ارتياب:

ـ من سعدية هذه؟

قال بشر:

ـ لا تقلق، بائعة السوداني على محطة الشاطبي. فوجئنا به يدخل وهي معه وفي يده علبة رابسو قال إنها ستستحم بها.

لم يستطع نادر أن يضحك، وظل الذهول على وجهه. عاد إليهم أحمد قبل أن يدخل الغرفة ليقول:

ـ وطِّي صوتك. تسمعك تزعل وتمشي.

ثم قال لنادر:

ـ وحياتك استحمت بالرابسو وصارت بيضا قشطة. ماذا أفعل؟ زهقت من النسوان الحلوة.

وتركهم بسرعة ضاحكا هذه المرة ودخل غرفته. قال بشرلنادر:

ـ حسن لم يكن بالمنصورة. ذهب عن طريق مكتب رعاية الطلبة إلى معسكر في العامرية. طبعا كان معه طلاب من أكثر من كلية. دربوهم على الكاراتيه، وأعطوهم محاضرات ضد اليساريين، وآخر الأسبوع أعطوا كل طالب عشرة جنيهات.

بدا نادر مذهولا جدا. قال حسن:

ـ لقد وافقت مدير المكتب لأعرف ماذا يحدث حولنا. طبعا لن أستمر معهم. والعشرة جنيهات سأحتفظ بها حتى نذهب إلى نوال بوط لنصرفها هناك. ليس معقولا أن تعزمنا نوال في كل مرة. الأيام القادمة صعبة. مصر تتغير ولابد أن ننتبه. كانت المحاضرات كلها في المعسكر عن الرأسمالية والحرية التي تنتظر مصر في كل شيء، وضد الشيوعية باعتبارها فكرا شموليا.

ثم ابتسم الابتسامة التي لا تكتمل وقال:

ـ ولاد قحبة.

حط عليهم الصمت لحظات فقال بشر لنادر:

ـ والأن إحك لنا ماذا دار معك.

كان نادر يفكر هل هي صدفة أن يتم استدعاؤه إلى أمن الدولة في الوقت الذي يتم فيه تدريب طلاب على ضرب الشيوعيين؟

* * *

كان دفء كبير قد شمل غرفة يارا الآن والوقت يقترب من الفجر. سكت المطر ولم يعد إلا صوت النخيل الملكي يحركه الهواء في الخارج، وصوت الموج صار أكثر هدوءا. كل شيء نائم في الكون حول يارا وكاريمان اللتين لا زالتا يقظتين. كاريمان جالسة مربعة فوق السرير ترتكن بظهرها إلى الحائط، ويارا ممددة تستند بظهرها إلى ظهر السرير. قالت يارا وقد تألقت عيناها:

ـ هذه موسيقى دكتور زيفاجو. أعرفها أيضا. سأقرأ الرواية قريبا. نادر كان يقرأها وحدثني عنها كثيرا.

ثم ضحكت وقالت:

ـ المشكلة أني لم أتعود قراءة الروايات، وهو يقول إنها ضخمة جدا.

هزت كاريمان كتفها ضاحكة وقالت:

ـ لا تقرئيها.

ـ أخاف يزعل.

ـ إذا اقرئيها.

ضحكت يارا ضحكة قصيرة مبهجة ارتفع فيها صوتها ثم قالت:

ـ كان نفسي أشوف الفيلم مع نادر. الفيلم كان ممنوع في مصر بعد النكسة. الحكومة كانت محتجة على عمر الشريف. قالوا إنه بعد النكسة عام ١٩٦٧ قال كلاما في هوليوود في صالح إسرائيل. عندما جاء السادات إلى الحكم عرضوا الفيلم. لم أره. كنت في السنة الإعدادية.من شهر كان في سينما فؤاد. قلت لنادر أخاف أدخل سينما درجة ثانية. أخاف من الجمهور. ليتني ذهبت معه..

وبدت يارا متألمة بطريقة أدهشت كاريمان، التي اقتربت منها وقبلتها ثم قالت:

ـ أنت رقيقة جدا يا يارا. كيف تعيشين بيننا؟ له الحق نادر أن يكتب فيك الشعر.

تألقت عينا يارا وقالت:

ـ تسمعي شعره الجديد؟

قالت كاريمان:

ـ شعر وموسيقى ويارا. ليس هناك أجمل من ذلك.

مدت يارا يدها تحت الوسادة فأخرجت كراسة.

ضحكت كاريمان. قالت يارا بفخر:

ـ أضعها تحت رأسي دائما..

وفتحت الكراسة وكاريمان تضحك. أغمضت عينيها لحظات، ثم بدأت تقرأ..

«تهفو روحي إلى أنامل حبيبتي

أسبح بشفتي فوقها

ينبض قلبي بصوت قبلاتي»

اتسعت عينا كاريمان، وكادت تعبر عن إعجابها ودهشتها، لكنها آثرت الصمت لتستمر يارا.

«أنامل حبيبتي شمع أثيري

ضوء كالماء

ونور كالهواء

كنورالعذراء

حين تتجلى بالليل

لراهب وحيد

في دير بعيد

في صحراء»

وأغمضت يارا عينيها من جديد. قالت كاريمان:

ـ الله على الجمال..

قالت يارا:

ـ اسمعي للنهاية.

وعادت تقرأ:

«هنا الإسكندرية

على شاطئها بكى العشاق

حملت أمواج البحر كل قصص الحب الضائعة

وعادت بها أحزانا.

في سحب خريفية»

«هنا الإسكندرية

قصص الحب قد يحملها الموج

لكن لا يطويها النسيان»

«هنا الإسكندرية

لن أودعها

لن تضيع قصة حبي

ستحملها كل الجدران

في قلبي تصميم

وفي روحي شجاعة

حتى لو تخلت الآلهة عني
سآخذ حبيبتي معي
وأذهب مع السمّان
حين ينتهي الشتاء
إلى بلاد لا أعرفها
لكني على يقين
إنها ستستقبلني
بالنساء يغنين
فوق أسطح المنازل
وبالرجال يعزفن
على الجيتار في الطرقات
وستظل قصة حبي خلفي
أغنية فوق الإسكندرية
حتى أعود إليها من جديد
وقد صارت قصتي أشجارا
تملأ فضاءها»

-٢-

لم يكن الصباح دافئا لتجلس روايح وغادة في البلكونة الكبيرة كما تفعلان دائما في الصباحات المشمسة. تعودان متعبتين قبل الفجر من ملهى اللؤلؤة الزرقاء. تستيقظان عادة في الحادية عشرة. تستحمان وتجلسان في البلكونة تشربان في فخر، النسكافيه التي لم تكن معروفة في البلاد من قبل ممزوجة بالحليب، ثم تمشط كلاهما شعرها.

جلستا اليوم في الصالة. روايح وغادة تسكنان شقة الدور الثاني منذ أربع سنوات. بالكاد في الثلاثين من العمر، وإن بدتا أكبر من ذلك. أحيانا تنضم إليهما أخريات، لكن سرعان ما تختفين. الدور الأول للبيت شقة مهجورة، لا يعرف أحد لماذا يغلقها صاحب البيت. البيت محاط بسور تفصله عنه مسافة صغيرة خالية من الورود والأشجار التي يبدو أن صاحب البيت القديم بناه على هذا النحو كي يزرعها. بقيت الأرض متربة. والرجل الخمسيني العمر الذي يأتي كل شهر لتحصيل الإيجار، قال عنه أبو الحسن المكوجي، وسمسار الشقق أيضا، إنه اشتراه من صاحبه اليوناني الذي غادر مصر عام ١٩٦٢.

بيوت الشارع كان أصحابها يونانيين أو شوام أو يهود، أو مصريين موسرين. سكان البيوت كانوا كذلك، والبيوت في معظمها بنيت قبل ثورة ١٩٥٢، أقلها بني في الخمسينيات. التزم أصحابها بقوانين البناء، فلا يرتفع البيت عن عرض الشارع مرة ونصف، لذلك كلها تقريبا لا ترتفع عن ثلاثة أدوار، أو أربعة إذا كان البيت يقع على ناصيتين، على شارع تانيس وأحد الأزقة المؤدية إلى الكورنيش أو شارع بور سعيد.

حين أقيمت جامعة الإسكندرية مع بداية الأربعينيات، بدأت بكليات قليلة. كان طلابها سكندريين، لديهم عائلاتهم وبيوتهم. إزدادت الكليات في الخمسينيات، وبدأ توافد الطلاب من الريف عليها. كانت المدينة الجامعية لإسكان الطلبة المغتربين، التي تم بناؤها في منطقة سموحة بين المزارع والأشجار، كافية لاستيعابهم. لكن لم يكن ممكنا أن يستمر ذلك، خاصة بعد أن أعلن جمال عبد الناصر مجانية التعليم عام ١٩٦١. ازدادت أعداد الطلاب المغتربين، وبدأ بعض أصحاب البيوت القدامى من المصريين، أو الجدد الذين يشترون بيوت الشارع من أصحابها الأجانب الذين يرحلون عن الإسكندرية بسبب سياسة التأميم للمصانع والبنوك الأجنبية، يستثمرون بعض الشقق في إسكان الطلاب الغرباء. هكذا عرف الطلاب الطريق إلى شارع تانيس، وكذلك شارع طيبة على الناحية الأخرى من شارع بورسعيد، أكثر من غيرهما من شوارع الإسكندرية، لقربهما من أكثر الكليات ازدحاما، الآداب والحقوق والتجارة والتربية، التي تتجاور كلها في منطقة واحدة. كذلك عرف الطريق إلى الشارعين، طلاب الكليات الأبعد، مثل الهندسة والزراعة والطب والصيدلة. في هذين الشارعين حرية

يفتقدها الطلاب ساكنو المدينة الجامعية في سموحة، التي بدورها لم تعد تكفي الغرباء.

كان من الطبيعي أن تعرف نساء الملاهي الليلية على الكورنيش، الموازي تماما لشارع تانيس، الطريق إلى كثير من الشقق أيضا لتسكنها، ومن ثم الطريق إلى شقق الطلاب.هكذا بدأ السكان الأصليون من أهل الإسكندرية هجرة الشارعين، والفرار منهما، كذلك السكان الجدد الذين سكنوا الشقق التي خلت برحيل الأجانب من قبل. لم يكن ذلك صعبا، فالشقق كثيرة ومتوفرة في كامب شيزار وسبورتنج وكليوباترا، وأصحابها يطلقون فيها البخور متمنين أن يسكنها أحد. صارشارعا طيبة وتانيس دون غيرهما مدرسة لتعليم الحب والجنس. فاقت شهرة شارع تانيس شارع طيبة، ومشى في المدينة المثل القائل «عايز تهيص روح شارع تانيس» شيئا فشيئا هجرت كل العائلات الشقق، وصارت الشقق كلها تقريبا للطلاب ونساء الليل.

اختفى معظم البوابين، ولم يتبق منهم إلا القليل، الذين بدورهم صاروا يسهلون القوادة. تماما كما يفعل بعض المكوجية، الذين يضعون دائما ستارة خلف ترابيزة المكواة وخلفهم وهم يعملون، فإذا سأله الزبون رفع الستارة ليجد خلفها امرأتين أو ثلاث يختار بينهن.

روائح وغادة تسكنان تحت الشقة التي يسكنها حسن حافظ وأحمد باسم، اللذان يشترك معهما في السكن بشر زهران ونادرسعيد.

كانت روائح تقلّب في مجلة «البلاي بوي» التي أعطاها لها أحد رواد الملهى من العاملين على السفن التجارية، وكانت لا تكف عن فتح عينيها على آخرهما دهشة، وتهز رأسها، فقالت غادة:

ـ هل ستظلين كثيرا تقلبين هذه المجلة؟

ـ لا أصدق أن هناك مجلات على هذا النحو. كل حاجة باينة. ما رأيك لو أقطع صفحاتها وأعلقها على الحائط.

صرخت غادة:

ـ مجنونة! هذه مجلة ممنوعة. تودينا في داهية.

ثم ضحكت وقالت:

ـ أعطها للجماعة فوق يلصقون صورها على الجدران. هم على الأقل رجال ولن يؤذيهم أحد مثلنا. كذلك يسخنوا أكثر.

ضحكنا، وقالت روائح:

ـ أنتهي من شرب النسكافيه وأصعد إليهم بالمجلة، وبالمرة أهزأ سي أحمد بسبب المرأة التي كانت معه منذ أيام.

قالت غادة مندهشة:

ـ امرأه غيرنا؟!

ـ شفتها وهي تصعد معه بعد المغرب في عز الشتا. استغل الظلام ولونها الأسود وتصور أن لن يراهما أحد.

ضحكنا أكثر. شردت غادة قليلا ثم قالت:

ـ لا أعرف لماذا لا يتجاوب معنا نادرولا حسن أبدا. يجلسان معنا ويأكلان معنا ويتكلمان معنا، ولكن لا ينامان معنا أبدا.

ـ خائبان.

قالت روائح ذلك، لكن غادة قالت:

ـ يبدو أنهما يحبان.

نظرت إليها روائح في استغراب.

ـ حب! ماذا يعني الحب؟

ثم طوت المجلة ونهضت لتصعد بها إلى الدور التالي، لكن غادة قالت:

ـ ارتاحي ولا تصعدي الآن، لا أحد هناك، رأيتهم جميعا وأنا أقف في البلكونة يخرجون إلى الكلية.

شردت روائح وبدا عليها الضيق ثم قالت:

ـ وأنا التي كنت أريد أن يكتب لي نادر خطابا اليوم.

نظرت إليها غادة في دهشة ومطّت شفتيها ولم تعلق.

* * *

في كافتيريا الكلية جلسوا. الكافتيريا كبيرة، واسعة وممتدة، ومزدحمة اليوم أكثرمن كل يوم بسبب المطر في الخارج. نادر وحسن وبشر وكاريمان ويارا، يتوسطهم عيسى سلماوي، الرجل الطويل النحيل الأنيق الذي يتجاوزعمره الأربعين. كان عيسى سلماوي منشغلا عنهم قليلا، بينما هم مشغولون بأحاديث جانبية. كان عيسى يفكر هل إذا انتهى هذا العام الدراسي سيعود ليدرس من جديد في كلية أخرى؟ لقد أنهى من قبل دراسته في كلية التجارة وكلية الحقوق،

ولا يستطيع أن يبدأ الدراسة من جديد في كلية عملية، لأنه حصل من قبل على الثانوية العامة القسم الأدبي. كما أن الكلية النظرية الوحيدة الباقية في الإسكندرية هي كلية التربية، ولا تقبل المنتسبين لأن بها دروسا عملية عن طرق التدريس. لم يبق أمامه بين الطلاب إلا هذا العام والعام القادم.

اندهش من نفسه كيف يفكر مبكرا في هذا الأمر؟! ووجد نفسه أيضا يفكر ما معنى أن يكون عمله الوحيد في الدنيا هو أن يجذب الطلاب إلى الفكر الماركسي، دون أن يكون منضما في أي حزب سرّي، يمارس فيه دروسه بشكل عملي!

هز رأسه كأنه ينفض عنها كل هذه الأفكار، خاصة أنه لم يعرف أبدا مصير الطلاب الذين التفوا حوله في السنوات السابقة.

أحيانا يقابل أحدهم في الطريق، فيجده دائما يسير مع فتاة جميلة تبدو خطيبته، أو امرأة تبدو زوجته، ولا يلتفت إليه، أو يهتم به. لا يبدو أنه التقى به من قبل، أو جلس حوله يستمع إلى دروسه، كما يفعل هؤلاء الآن. أدهشه أنه لم يكن أبدا بين مريديه طالبات. كاريمان التي تبدو دائما ماركسية الهوى، ربما لأنها فقط حبيبة حسن. ويارا التي تشع البراءة من عينيها، وتنسكب من شفتيها حين تتكلم، أيضا حبيبة نادر. هو يعرف أن هناك أحزابا شيوعية سرية في مصر، ويعرف أسماءها، الحزب الشيوعي المصري، وحزب العمال الشيوعي، والتيار الثوري، و٨ يناير، ولا يحدثهم عنها. وإذا سأله أحدهم عنها يقول إن اكتشافها أمر مرهون بكل شخص منهم. هو لا يحب أن يكون منتميا لأي حزب حقا. يقول لهم فقط، إنه أعيد بناء هذه الأحزاب بعد

وصول السادات إلى الحكم. أقطابها من الشيوعيين اللذين اندمجوا في التجربة الناصرية من قبل، بعد أن خرجوا من المعتقلات عام ١٩٦٤. هو أيضا خرج معهم. هو قبض عليه في الليلة الأخيرة لعام ١٩٥٨. ليلة عيد الميلاد. لم يكن منتميا لأي حزب شيوعي. الصدفة جمعت بينه وبين شخص لا يعرفه في مقهى الإسكندرية بميدان المنشية. كانت المقهى صاخبة ومزدحمة، وذلك الشخص المهيب الطلعة يجلس وحده يقرأ الصحف، ومقعد فارغ أمامه، فاستأذنه أن يشاركه المكان يشرب قهوته فسمح له الرجل. بعد ذلك لم يقابله أبدا إلا في معتقل الواحات بالوادي الجديد. اتضح له أن اسمه «نادر نعيم» وهو مسئول الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني في الإسكندرية.

لم يكن عيسى في شبابه قد قرأ شيئا عن الماركسية. كان قد توقف عن التعليم منذ حصل على الثانوية قبل الثورة، ويعمل في تجارة أبيه في الأخشاب، التي تم تأميمها وهو في المعتقل، ليخرج يجد أباه قد فارق الحياة كمدا وأمه لم تنتظر كثيرا بعده. لم يستوعب أحد من العائلة فكرة ضياع ممتلكات أسسوها بجهد وعرق السنين الطويلة. لقد تم التاميم من أجل إعادة الثروات إلى الشعب، ولم يكونوا من الأجانب ولم يكونوا لصوصا. كثيرون من المصريين أضاع التأميم ثرواتهم، يذكر كثيرا من بينهم عائلة الطويل صاحبة مصانع مدابغ الجلود القريبة، العائلة التي أسست هذه الصناعة منذ بداية القرن التاسع عشر في الأزاريطة، ثم انتقلت بها في أواخر القرن نفسه إلى طريق المكس بعد حي الورديان، جوار المدبح أو السلخانة كما يسمونه الناس، وكانت تصدر الجلود إلى دول كثيرة وتكفي السوق المصري. لقد كان بين أبيه وعميد هذه العائلة صداقة وطيدة لذلك

لا ينساها. لقد تم تاميم مصانعها، وكما حدث لأبيه حدث لصديقه عميد عائلة الطويل فارق الدنيا كمدا. لكن رغم ذلك لم يكن يشعر بالسخط على سياسة التأميم. لقد صار ماركسيا.

لقد عرف الماركسية من حلقات النقاش في المعتقل التي كانت تقام بعد الضرب والتعذيب بالنهار. شيء يستحق كل هذا التعذيب، وكل هذا الصمود، جدير بأن يعرفه ويحترمه ويقتنع به فيما بعد! أخته الوحيده تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى كندا بعد هزيمة ١٩٦٧. صار وحيدا، وقرر الانتساب إلى كل الكليات الممكنة لينشر الفكر الماركسي بين الطلاب، بعد أن حصل على الثانوية العامة من جديد بنظام المنازل. لم يبق له من تجارة أبيه غير مخزن صغير في زقاق جانبي من شارع القفال بالورديان. لكنها تجارة صارت تكفيه. يمكن أن تتسع، لكنه لا يريدها أن تتسع. يا مجنون. كثيرا ما يقول لنفسه ذلك، كما يقوله لنفسه الآن. ترى لو قام شخص بتحليل شخصيتك ماذا سيقول غير ذلك؟ أو على أقل تقدير misfit. غير متوافق مع المجتمع. هكذا يقولها بالإنجليزية لنفسه دائما. ومادمت تعرف فلماذا لا تعود إلى المجتمع؟ المجتمع ليس هؤلاء الطلاب. قال لنفسه ذلك كثيرا من قبل، ولم يقلع عن اختياره! لكنه أيضا يقول هناك دائما أمل. أجمل الأيام لم تأت بعد!! لابد من نشر الفكر الماركسي الذي دفع ثمنه كل من أحبهم أو رآهم في المعتقل من عظماء الوطن، حتى لو لم ينتم لحزب سري. أليست الماركسية تحقق العدل في العالم. لا يحتاج دليلا من الاتحاد السوفيتي، أو الصين، فالذين دفعوا الثمن، ودفع معهم صدفة، لم يكونو أغبياء، ولا من الجاهلين. اليوم سيحدّث مريديه عن كتاب «العائلة وأصل الملكية» لفردريك إنجلز.

كان صوت أحمد عدوية يملأ فضاء الكافتيريا من الكاسيت الخاص بها، والجرسونات يتحركون ببنطلوناتهم السوداء وجواكتهم البيضاء أكثر من كل يوم، بين الطلاب المتوزعين على المناضد الكثيرة سعداء. من خلف الزجاج الذي يمتد مع جدران الكافتيريا يظهر الطلاب ويتحركون في خفة، أو يقفون يتحدثون في مرح، والفتيات تضيء النهار الغائم بابتساماتهن، وضحكهن، وملابسهن الأنيقة، الشانيل والجوب والميني جوب والبلاطي الصوف. شعرهن يطير في الهواء وهن دائما يحاولن إعادته بأيديهن إلى عرشه.

كان ما جرى مع نادر في أمن الدولة حديثهم، بعد أن انتهى عيسى من الحديث عن كتاب فردريك إنجلز. هو يكتفي بالحديث القليل أملا أن يشتروا الكتاب المترجم إلى العربية، والموجود في مكتبة الشرق بشارع صفية زغلول، الأثر الباقي من العلاقات المصرية السوفيتية ولم يغلق بعد.

كان الحديث عما جرى مع نادر في أمن الدولة زلة لسان لحسن، بعد أن حكى لعيسى سلماوي محاولة تجنيده ضد اليساريين.

لم يكن نادر يحب أن تعرف يارا ذلك. مضى أسبوعان حتى الآن وهي لا تعرف. وبدا على وجه يارا شيء من الخوف. رآها نادر وقد غام وجهها وراحت تبلع ريقها. يارا جامعة الفراشات كما يسميها لا يحب لها الخوف أو الحزن. لا تتحمل هذا الرعب. لكن لم يعد ممكنا التراجع. قررأن يضحكهم جميعا، قاصدا أن يضحك يارا أكثر، وحكى لهم حديثه لرئيس أمن الدولة عن الوجودية، وكيف ظهر الارتباك على وجه سيد بيه عبد الباري الذي يشبه مصطفى

حلاق الحي. ضحكوا بالفعل. ضحكت يارا وكاريمان أكثر من حسن وبشر اللذين يعرفان القصة. وجدها عيسى فرصة ليحدثهم عن التقاء الوجودية مع الماركسية، وكيف كان هذا التحول على يد جان بول سارتر بعد الحرب العالمية الثانية. لقد شارك في مقاومة الاحتلال الألماني لفرنسا كل الشعراء والأدباء والمفكرين من كل المذاهب. من الشيوعيين حتى السيرياليين، وهنا ظهر اجتهاد سارتر عن الأدب الملتزم، وكيف وضع كتابا في ذلك. وقال حسن ضاحكا بصوت خفيض:

ـ خلينا مع فكرة نادر عن الوجودية أحسن الآن. أي حديث عن المثقف الملتزم سينتهي بنا إلى الاتهام بالشيوعية والسجن، خصوصا أن مجلات الحائط التي علقناها منذ أسبوع كانت بأموال الدولة.

ضحكوا. يعرفون أن مكتب رعاية الطلاب كان قد استدعى بشر زهران أيضا، وحاول المدرس الشاب رئيس المكتب، جذب بشر بعيدا عما يتصور إنه اليسار. أو لأنه يعرف فقره، أعطاه خمسة جنيهات على سبيل الإعانة مشترطا عليه أن لا يقوم بتحرير أي مجلة. اشترى بشر من النقود أوراقا وأقلاما، وحرر معهم ثلاث مجلات علقوها منذ أيام دفعة واحدة، تحمل مقالات له ولحسن ونادر وكاريمان.

لقد جعلوا للمجلات ثلاثة عناوين كبيرة. «إلى أين يذهب السادات بالبلاد؟» «تشجيع التيارات الإسلامية على حساب الحرية» «بطل أكتوبر هو المقاتل وليس السياسي».

قال عيسى:

ـ استدعاء بشر لمكتب رعاية الطلبة تم بعد استدعاء نادر إلى أمن الدولة. إذن كانت محاولة للتفريق بينكم.

قال بشر:

ـ طبعا يا أستاذ. لكن أعطيناهم مقلبا معتبرا. حسن وأنا. هو تدرب على الكاراتيه وأخذ عشرة جنيهات، أنا لم أتدرب على شيء وأخذت خمسة!

ارتفعت ضحكات كاريمان ويارا. شملت الفرحة نادر الذي رأى يارا تضحك من قلبها، ثم قالت:

ـ هل رأيتم ما كتبه أستاذ علم النفس الجديد على غلاف كتابه؟ كتب جميع الشهادات التي حصل عليها في حياته حتى حصوله على الدكتوراه من جامعة أوكسفورد. لم يترك إلا شهادة الإعدادية.

شملهم جميعا الابتهاج. بهجة نادر كانت أعظم لما يراه من ابتهاج يارا.

قالت كاريمان:

ـ لا ينقصه إلا أن يكتب اسم مامته.

هنا التفت كل من في الكافتيريا إليهم، إذا ارتفعت ضحكاتهم وملأت كل الفضاء حولهم وفوقهم. لكنهم فوجئوا بعيسى سلماوي كظيم الوجه. قال بهدوء اليائس:

ـ لا تضحكوا على هذا النحو. الشيوعيون يعدون أنفسهم لنضال طويل. قلت لكم ذلك كثيرا من قبل.

تبادلوا النظر في خجل، وكتموا ضحكاتهم. لكن يارا قالت بطفولية، وبصوت خفيف:

ـ وأيضا الضحك من غير سبب قلة أدب.

انفجروا يضحكون من جديد، واحمرَّ وجهها خجلا. ثم حطّ عليهم الصمت لحظات، حتى قال نادر فجأة:

ـ لماذا يا أستاذ عيسى لم يحدث استدعاؤك من قبل إلى أمن الدولة؟

ارتبك عيسى، وتحركت عيناه كثيرا، ولم يرد. همست يارا لنادر:

ـ أحرجت الرجل.

عيسى سمعها. لكنه لن يتضايق من نادر. نادر شاعر من الصعب أن يستقر على شاطئ. وحسن كاتب القصة والمسرح أقرب إلى الاستقرار. لكن بشر هو الأقرب جدا. الأكثر استعدادا للنضال.

خيم الصمت من جديد. بدا أن الجلسة على وشك الانفضاض. قال عيسى وهو ينظر إلى بعيد:

ـ يبدو أنهم اكتفوا بالسنوات التي قضيتها في المعتقل.

حطَّ عليهم صمت عميق هذه المرة، فوقفت يارا وقالت:

ـ لازم أروح المكتبة.

وأسرعت.

ما إن خرجت من باب الكافتيريا، حتى عادت بسرعة قائلة:

ـ الحقوا الحقوا. طلبة يمزقون مجلاتنا.

اندفع حسن وكاريمان ونادر وبشر بسرعة إلى الخارج. كانت المجلات الثلاث ممزقة وملقاة على الأرض، ويقف فوق أجزائها ثلاثة من الطلبة الملتحين لحيات صغيرة، يمسك كل منهم سلسلة حديدية في يده، وبينهم فتاة محجبة لا تزال تمزق ما بين يديها من بقايا المجلات. لا أحد يعرف ماذا حدث. في لحظة واحدة صارت كاريمان ممسوكة من ذراعيها بيد اثنين من الطلاب الآخرين، وهتف نادر في يارا أن تبتعد، وانفرد بأحد الطلاب يتبادلان اللكمات، كذلك كان حسن وبشر. كان طلاب كثيرون يجرون إليهم يحاولون التفريق بينهم، ونجحوا في ذلك بسرعة. كان من بينهم محمد شكر، الطالب الوسيم الأشقر الذي دائما، صيفا وشتاء، يظهر مرتديا بدلة زرقاء، والذي يحبه الطلاب جميعا لابتسامته الدائمة، وكونه صاحب الاقتراح العجيب العام الماضي، حين كان مدرس الفلسفة الإسلامية فظا في معاملتهم، فجمع محمد شكر ما تيسر من مال من كل طالب، ومع بداية المحاضرة تقدم من المدرس حاملا هدية كبيرة، هي لوحة عليها أسماء الله الحسنى، وقدمها للمدرس تعبيرا من طلاب قسم الفلسفة عن حبهم له، ثم هتف ببيت شعرأحمد شوقي:

قـم للمـعـلـم وفــه الـتـبجـيلا
كـاد الـمعلـم أن يكـون رسـو لا

فوقف طلاب القسم كله وصفقوا. بعد المحاضرة ذهب مع المدرس إلى مكتبه، وعاد طائرا يحمل ورقة بها الدروس الأهم التي سيأتي فيها الامتحان. لقد حذف المدرس نصف الكتاب تقريبا.

وقف محمد شكر بين المتشابكين يهتف أن هذا لا يليق بطلبة جامعيين، وأننا جميعا سنتخرج لنبني الوطن لا لنهدمه، ويجب أن تتسع صدورنا لحرية الرأي.

كان يتحدث بإخلاص كبير، لكن أيضا ظهر بعض الموظفين، وطلبوا من الجميع التوجه إلى غرفة العميد.

كان عيسى سلماوي الذي تسلل من المكان دون أن ينظرإلى ما حدث، قد خرج ومشى المسافة القليلة الباقية في شارع بورسعيد، ليدخل شارع قناة السويس متجها إلى طريق الكورنيش، يقابله الهواء البارد، ويرى الغيوم في السماء كثيفة فوق البحر. سيمشي مع صوت الريح والموج إلى أتينيوس. لقد انتهت نوة قاسم وبواقيها. أيام قليلة إذن تفصلنا عن نهاية العام. لعل الدنيا تمطر عليه الآن. إذا أمطرت سيظل يمشي. سيترك نفسه للمطر..

* * *

أخذ حسن كاريمان ومشيا وحدهما، بعد أن هدد عميد الكلية الجميع بتحويلهم إلى مجلس تأديب، إن لم يكفوا عن الفتنة بينهم. كان حسن وبشر ونادر أكثر من غيرهم يعرفون أن العميد لن يفعل ذلك، في الوقت الذي لن ينصفهم.

ـ ما رأيك أن نجلس قليلا في أوسع كازينو على الشاطئ. كازينو الشاطبي؟

لم ترد كاريمان. كانت في غيظ شديد من الطالبين اللذين أمسكا بذراعيها، رغم أنها حين تخلصت منهما صفعت أحدهما على وجهه.

قال حسن وهو يشير إلى البحر:

ـ كل هذا الهواء الجميل في الإسكندرية كيف لا يشعر بروعته أحد.

لكنها أيضا لم ترد. قال:

ـ انسي ما حدث يا كاريمان.

قالت:

ـ أنت أخذت حقك.

ـ وأنت أيضا صفعتي الولد.

ـ ليس كافيا.

أمسك بيدها وقال:

ـ يكفي أنه لا آثار على وجهك. أنا..

ابتسمت ثم قالت:

ـ لكن أنت أيضا ضربتهم كثيرا.

ـ دعينا ننظر إلى البحر..

كانا قد اقتربا من الكازينو. الموج يضرب الأعمدة الخرسانية التي تحمله، والتي يظهر حولها فوق الماء العشب الأخضر والطحالب التي نمت فوقها مع الزمن.

قطعا الممر المؤدي إلى الكازينو الجميل القائم وسط الماء: اتساع

فائق بالداخل، ومقاعد وثيرة ومناضد عريضة، وجوانب زجاجية تتيح الرؤية من كل اتجاه، ودفء وصمت..

ليس في كل هذا الفراغ غير ثلاثة شباب وثلاث فتيات، يجلس كل زوج منهم على منضدة بعيدة كثيرا عن الأخرى، وكلها جوار النوافذ، حيث يمتد خلفها البحر الأزرق وأمواجه الهادرة والأفق البعيد. عاد الأسى إلى وجه كاريمان. أمسك حسن بيدها وقال:

ـ أرجوك انسي الأمرهنا يا كاريمان. لا تفسدي بهاء المنظر. الولد أيضا اعتذر لك.

قالت منفعلة:

ـ وهل كان له أن يمسك بذراعي هو وزميله المتخلف؟!

سكت قليلا وابتسم ابتسامته التي لا تكتمل وهز رأسه، ثم قال عاجزا أن يثنيها عن الحديث:

ـ حكاية غريبة. يبدو أن الحرب بدأت بالفعل.

قالت في غضب:

ـ ما يغيظني هو موقف العميد. ما معنى أن يعتذروا لنا؟! المفروض أن يحولوا إلى مجلس تأديب ويعاقبوا.

ـ مغلوب على أمره يا كاريمان. أجهزة أمنية كبيرة في البلد تفعل ذلك. ليست الجماعات الإسلامية ولا الإخوان المسلمين وحدهم.

قالت في حدة:

ـ كان ينظر إليهم كأنه يقول لهم لماذا لم تقضوا عليهم. لماذا أتيتم مهزومين؟!

ربت على يدها وقال محاولا أن يبعدها عن المسألة من جديد:

ـ كاريمان. اهدئي. أنت معي الآن. البحر أمامنا. مارأيك أن ندخل سينما؟

مارأيك أن نرى «باري ليندون Barry Lindon» في سينما رويال؟ فيلم رائع لرايان أونيل، ومخرجه ستانلي كوبريك. طبعا تعرفين رايان أونيل.

ـ لا.

ـ أه. كنت صغيرة. وأنا أيضا. لكن أنا رأيت فيلمه الشهير في سينما درجة ثانية في المنصورة. فيلم قديم لكن مشهور جدا. قصة حب «Love Story»..

ـ أعرف الموسيقى فقط. سمعتها آخر مرة عند يارا..

وسكتت لحظة ثم قالت باسمة:

ـ دعنا نجلس هنا أطول وقت. البحر جميل. معك حق. لا تلمني.

ابتسم سعيدا، ونظرت إليه نظرة عميقة. اتسعت عيناها الخضراوان، لكن رفت على شفتيها ابتسامة مكسورة، فأمسك بيديها من جديد خائفا أن تعود إلى نفس الحديث، لكنها قالت:

ـ نفسي أسافر. نفسي أعدي البحر.

ـ أنا أيضا. ما رأيك نجعله مشروعنا بعد التخرج.

ـ والكتابة. القصة والمسرح؟

ـ سأكتب هناك وأراسل الصحف والمجلات العربية. هناك في أوربا أيضا صحف ومجلات عربية. ومن يدري ربما أتقن لغة البلد التي نسافر إليها وأكتب بها.

راحت تنظر إلى الفضاء البعيد وتحلم، وأشار حسن إلى الجرسون الشاب الذي تقدم مسرعا. طلب حسن كابتشينو له ولكاريمان. بدا أن كاريمان ذاهلة عنه تماما. قال:

ـ وحشتيني.

ابتسمت وقالت:

ـ معك منذ الصباح ودخلنا معركة ووحشتك؟!

ضحك ضحكته التي لا تكتمل مثل ابتسامته ثم قال:

ـ ما رأيك تسهري معي الليلة في نوال بوط؟

ـ أسهر في ملهى ليلي؟ تريد أن يقتلني زوج أمي؟

ـ سوف تحبينها جدا.

ـ نوال أم البوط؟

ضحك هذه المرة بصوت عال. قال:

ـ نوال طبعا.

قالت:

ـ أنتم الرجال آخذين حقكم في الدنيا.

ثم عادت تنظر إلى البحر. قال:

ـ طيب ما رأيك أعزمك على الغداء عند محمد أحمد.

ضحكت وبدت مندهشة جدا. قالت:

ـ معركة وفول في يوم واحد! هذا ظلم.

ضحكا من جديد فقال:

ـ الساندويتش الآن صار بقرشين صاغ. تضاعف يعني.

لكنها عادت تنظر إلى البحر من جديد. قال:

ـ نفسي آخدك في حضني.

قالت ضاحكة:

ـ وماذا يمنعك؟

ارتبك لحظة ثم تلفت حوله ووقف قائلا:

ـ إذن سأفعلها هنا في الكازينو.

وأمسك بيديها يوقفها وهي تتملص منه في دهشة وتقول: «يا مجنون»، لكنها كانت قد وقفت، فأخذها إلى صدره وقبلها على خدها بسرعة لأنها انحرفت بفمها عن فمه، وتركها وعاد يجلس ويقول ضاحكا بلا صوت:

ـ يوم بدأ بمعركة يمكن أن ينتهي في قسم البوليس. لا مشكلة.

كانت هي قد أطرقت، ووضعت رأسها بين يديها كأنها تخفي نفسها عن أنظار الجالسين، والجرسونات الثلاثة الواقفين بعيدا جدا. قالت هامسة:

ـ لازم نمشي فورا.

لكن الدفء الذي سرى من صدرها إلى صدره، وطراوة صدرها، كانا لا يزالان يهدهدان روحه. كذلك كان طعم القبلة الناعم على شفتيه. قال:

ـ لا تخافي.

ونظر إلى الجرسونات الثلاثة بعيدا، فوجدهم ينظرون إليهما، لكن لا يتحدثون. قالت:

ـ أنا خائفة جدا.

ـ انتظري حتى نشرب الكابتشينو.

شملهما الصمت حتى وصل الجرسون حاملا الكابتشينو. وضع كل شيء أمامهما على المنضدة صامتا وانصرف.

قالت:

ـ ادفع الحساب ودعنا نمشي. ليس مهما أن نشرب الكابتشينو.

قال:

ـ أمام تصميمك وخوفك سأفعل ذلك رغم أن أحدا لم يعترض

على ما فعلنا. لي شرط واحد. أن تأتي معي الآن إلى الشقة. لا تخذليني هذه المرة أيضا. لماذا حقا دائما ترفضين؟

سكتت لحظات كتم هو فيها أنفاسه منتظرا، ثم قالت في لا مبالاة:

ـ لا مانع. المهم أن لا نتأخر.

* * *

صار بشر زهران جالسا بين روائح وغادة.

لم يطل الوقت حتى وصل إليهما. دقائق بعد انصرافهم من غرفة عميد الكلية، وترك الجميع مسرعا إلى الشقة. هو هكذا لا يطفئ غيظه غير امرأة، وما أسهل ذلك.

كان بسرعة قد غير ملابسه، وصار يرتدي بيجامة شتوية. ينتظرهما بعد أن طرق عليهما باب شقتهما، وأخبرهما أن يصعدا إليه. كانتا قد أعدتا اليوم غداء. صينية بطاطس باللحم وأرز. صعدتا بعد قليل يحملان ما أعدتاه هدية لهم. لقد تعودتا أن تفعلا ذلك من وقت إلى آخر.

وضعت كل منهما ما تحمله على ترابيزة السفرة وقالت روايح:

ـ قبل أي شيء أريدك أن تكتب لي خطابا.

ابتسم بشر في غيظ وقال:

ـ انتظري نادر هو المتخصص في خطاباتك.

ـ أريده الآن. هذا هو الشرط.

ـ حاضر. لمن؟

ـ لحبيبي طبعا. هل نسيت؟

كانت غادة لا تكف عن الابتسام. قال بشر:

ـ يا روايح أنا بشر ولست نادر. أنا حتى قصير ونادر طويل.

قالت:

ـ لا تفرق.

قال وقد شعر باشتداد رغبته:

ـ طيب. ما رأيك أن ندخل الغرفة ننتهي من الواجب، ونعود نأكل، ثم نكتب الخطاب بمزاج.

قالت:

ـ أنا عندي الدورة الشهرية.

ـ إذن أدخل مع غادة.

قالت غادة ضاحكة:

ـ بعد أن تكتب خطاب روايح.

ضرب كفيه ببعضهما وقال يهز رأسه:

ـ الأمر لله.

وسحب كراسة وقلما من فوق ترابيزة السفرة التي عادة يذاكرون عليها. فتح الكراسة وقال:

ـ املي عليّ يا ستي.

ـ اكتب.

قالت روايح ذلك ثم أملته:

«حبيبي على. واحشني خالص. مش عارفة إمتى ترجع من سوريا...

نظر إليها متوقفا عن الكتابة وقال:

ـ أنا أعرف إنه في ليبيا. سمعتك آخر مرة وانتي تملين الرسالة على نادر.

قالت:

ـ اكتب وأنت ساكت.

نظر إلى غادة التي لا تكف عن الابتسام وعاد يكتب ما تمليه عليه:

«سوريا صحيح حلوة لكن مافيش أحلى من مصر. أنا شفت نسوان كتير حلوة من الشام في إسكندرية، لكن برضه مافيش أحلى من نسوان مصر. صحيح نسوان سوريا فيهم شقر كتير وعنيهم زرقا وخضرا، لكن أنا ممكن أصبغ شعري أصفر والعيون السوداء مفيش أحلى منها....»

كان يكتب ويهز رأسه، ويترك يده اليسرى تمشي على فخذها، وهي بين لحظة وأخرى ترفعها عنها.

«وبعدين أنت مش بترد عليّ رغم أني بعت لك جوابين. الأيام بتمرعليّ وحشة أوي من غيرك.. سنة كاملة كتير أوي..»

ـ منذ سنة وهو في سوريا؟

ـ أجل.

زعق بصوت عالٍ:

ـ طيب. من هو الذي في ليبيا؟

نظرت إليه مغتاظة وقالت:

ـ خلاص يكفي هذا. هات الجواب. سأرسله غدا. أنا نازلة الشقة. عندك الأكل بالهنا والشفا. المهم لا تنس أصحابك.

وقفت معها غادة ومشت خلفها وهي تقول:

ـ أنا أيضا عندي الدورة مثل روايح.

* * *

في كازينو بترو بجليم، البعيد كثيرا عن الكلية، جلس نادر ويارا. قال:

ـ ما رأيك في هذا المكان؟

ـ جميل لكن لا أحد غيرنا.

كان الجرسون قد تقدم منهما، وطلبا كوبين من الشاي.

ـ أنا أدخله لأول مرة. أكيد خالي اليوم بسبب البرد والشتاء. لكن هنا في الصيف يجلس عادة نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم.

قالت مبتسمة:

ـ آه. فهمت. هل قابلتهما هنا؟

ـ لا. كل ما أردته أن أجلس معك في أبعد مكان عن الكلية حتى ننسى ما جرى اليوم.

كان الجرسون قد عاد ووضع الشاي أمامهما، ثم اختفى من الصالة كلها.

قالت:

ـ خفت جدا عليك..

ـ لا تخافي.

مدت يدها تضعها على جبهته حيث أثار اللكمة واضحة عليها. أمسك بيدها وقال:

ـ لا شيء. لا تنزعجي.

ابتسمت. قال:

ـ كنت مرة أجلس في مقهى السلطان حسين. رأيت نجيب محفوظ يمشي على الرصيف المقابل. كان يمشي في اتجاه محطة الرمل في شارع صفية زغلول. كان ينظر إلى الأمام كأن لا أحد غيره في الطريق. كان يتأمل في الفضاء. كان يرتدي بدلة صيفية. وقفت أتطلع إليه غير مصدق. كانت نظارة على عينيه. كدت أمشي وراءه. لكني لم أتحرك. ظللت واقفا أمام المقهى أتابعه بالنظر حتى اختفى. آه والله. بالمناسبة هل قرأتِ رواية خان الخليلي التي أعطيتها لك؟

ـ قرأتها وبكيت حين مات رشدي.

سكت قليلا وقال:

ـ لو كنت اكتب القصة مثل حسن لكتبت رواية عن الحرب العالمية الثانية وأعطيت أحد أبطالها اسم رشدي.

قالت مبتسمة:

ـ ونوال أيضا؟

ـ يارا هذه المرة.

ضحكت واستمر يتحدث:

ـ المهم أن أعيد إليه الحياة.

وسكت قليلا ثم قال:

ـ من يدري. ربما أكتب الرواية أيضا يوما ما..

مدت يديها ووضعتهما فوق يده وقالت:

ـ أنت شاعر جميل يا حبيبي، وستكون أشهر من صلاح عبد الصبور ومن نجيب محفوظ أيضا.

وتألقت عيناها العسليتان وهي تنظر إليه. أمسك بيديها، ووجد نفسه يقترب بوجهه من وجهها، فاتسعت عيناها أكثر. زاد اقترابه فأغمضت عينيها، وهو يضع شفتيه على شفتيها، وأحاطها بيده اليسرى بينما يده اليمنى تضغط على يدها. طالت القبلة، وحين انفصلت شفاههما وجدا الجرسون يقف أمامهما. ارتبكت يارا وامتقع وجهها وهي تضع رأسها بين كفيها وتطرق إلى أسفل في

خجل وخوف، بينما نظر هو حائرا إلى الجرسون لا يدري ماذا يقول، لكن الجرسون قال:

ـ آسف. حضرتك ناديتني؟

ـ لا.

ـ آسف مرة أخرى. تخيلت أني أسمع صوتا.

وابتعد الجرسون إلى الخلف حتى اختفى من الصالة من جديد. قال وهو يبعد يديها عن رأسها ويرفع وجهها ليراه.

ـ ماذا أفعل يا يارا؟ لم أستطع المقاومة. لا تريدين أبدا أن تأتي معي إلى الشقة. أريد مرة مكانا يخلو من الناس.

قالت وهي تنظر إلى المنضدة في خجل:

ـ سآتي معك.

هتف:

ـ اليوم.

قالت:

ـ لا. لكن في أقرب وقت.

* * *

في أتينيوس جلس عيسى سلماوي حزينا. هو مثل أهل الإسكندرية الذين إذا لفح الهواء البارد وجوهم شعروا بالسعادة. اليوم مختلف.

ترك عيناه فوق الميناء الشرقي الذي تصل أمواجه رغم الحاجز البعيد قوية إلى الشاطيء، وتتجاوز أحيانا سور الكورنيش.

رأى قلعة قايتباي مكانها بعيدا. قليل من المارة يسرعون على الرصيف العريض تحت النافذة. مرت بينهم فتاتان محجبتان. تذكر خطبة شيخ المسجد القريب من بيته الجمعة الماضية. كان صوته يأتي عاليا من الميكروفون، يملأ الفضاء حوله ويدخل إلى شقته. لقد حان الوقت لنعود إلى الله. لقد انتصرنا وأعدنا سيناء وقهرنا اليهود أعداء الله، ورأى الجنود الملائكة تحارب معهم. المرأة السافرة رزيلة تمشي على الأرض. الحجاب الحجاب قبل الحساب.

لقد رأى هذا الشعارمكتوبا على جدران كثير من البيوت في حي الورديان. ثم رآه أيضا على بعض جدران شارع السبع بنات قبل الوصول إلى ميدان المنشية. يبتسم الآن ساخرا. الشيخ يبدو لا يعرف أن المفاوضات تجري بين مصر وإسرائيل، بين المسلمين واليهود، برعاية الرئيس المؤمن «محمد أنور السادات».

لم يكن في أتينيوس كثير من الرواد. بعض النساء والرجال العجائز. شاب وفتاة. عدد من البحارة الأجانب، لابد أنهم أمريكان. يأكلون ووسط أطباق الطعام عدد كبير من زجاجات البيرة. تختلط أصواتهم من بعيد وهم يتحدثون الإنجليزية. أمامه الزجاجة الثانية من البيرة. لم يطلب الغداء بعد. لو يأتي خريستو الآن.

ما كاد يقول لنفسه ذلك حتى رآه يدخل من الباب البعيد. ما إن دخل الصالة حتى وقف قليلا كعادته يتلفت إلى الجالسين. يعرف أنه يبحث عنه. رآه خريستو من بعيد فتقدم إليه مسرعا، هو القصير

مربع الجسد، في بدلته البنية، التي يبدو لا يفارقها ولا تفارقه، حاملا الكاميرا على كتفه.

انتبه عيسى إلى أن الموسيقى التي تنساب حوله هي موسيقى تركية. لقد سأل عنها من قبل أحد الجارسونات. كانت توسع في المكان الواسع، وتثير في روحه شيئا من الشجن.

- كاليميرا أيها الشيوعي التائه.

هكذا هتف خريستو وهو يقترب. ابتسم عيسى ووقف يصافحه. كان وجه خريستو شديد الاحمرار تحت شعر ذقنه الأبيض الخفيف الذي يحيط به.

- اجلس. احك لي من صورت اليوم من المشاهير.

جلس خريستو وقال:

- سيف وانلي. شفته قاعد في «على كيفك»على الرصيف. لوحده كالعادة باصص بعيد مش بيكلم مع حد. شعره الأبيض كبير زي كل مرة. ساعات أشوفه لابس نضارة وساعات لأ. النهارده كان فيه نضاره.. يا أخي أنا طول عمري أشوف سيف وانلي كبير في السن. تفتكر عنده كام سنة دلوقتي؟ سبعين مثلا؟

اندهش عيسى من السؤال. قال:

- لا أعرف تاريخ ميلاده خريستو. لكن أظن أنه في بداية القرن. ١٩٠٦ تقريبا.

- ياه كان فيه حد عايش ساعتها؟

ضحكا بقوة وعاد خريستو يتكلم:

ـ ممكن برضه. أنا صورته كتير قبل كده. الصور مش بياخدها. أنا ح أبيعها في يوم من الأيام بفلوس كتير. ليه مش بتطلب لي بيرة؟ أنا ح أعزمك على الغداء.

ابتسم عيسى. أشار للجرسون ثم هتف له «بيرة والغداء المعتاد».

خريستو الذي يقترب من السبعين، ويبدو أكثر عمرا من سيف وانلي، لا يدرك عمره. لا يزال لديه أمل في الحياة. يحتفظ بصور كثيرة في الأستوديو الخاص به في شارع طيبة. لكفافيس وفورستر وداريل وأنطونيادس وسلفاجو وسموحة وزنانيري وشيكوريل وديجول وتشرشل والملك فاروق وعمر الشريف ويوسف شاهين ونادية لطفي وشكري سرحان وهند رستم وغيرهم. عشرات من الصور صورها أبوه من قبل، وصورها هو بعده، اختلطت عليه فيتصور أنه هو الذي صورها كلها، ولا يفرط فيها، رغم أنه يتحدث دائما عن بيعها يوما ما بفلوس كتير!.

فجأه قال عيسى:

ـ ألن تسافر إلى أثينا خريستو؟ تقريبا لم يعد في الإسكندرية يونانيون غيرك.

ـ لن أسافر خبيبي. أنا إسكندراني. عارف عيسى أنا زرت مقبرة كفافيس الأسبوع اللي فات. وقفت قدامه وقلت....

وراح يلقي قصيدة باليونانية بدت قصيرة. انتهى منها بسرعة وسأل عيسى:

ـ عارفها خبيبي؟

ارتبك عيسى الذي لا يعرف اليونانية ثم قال:

ـ طبعا. بقدر إمكانك..

قال عيسى ذلك لأن خريستو تلاها عليه كثيرا من قبل، وحدثه عن هذه الزيارة كثيرا من قبل، وشرح القصيدة له بالعربية أيضا من قبل، فبحث عيسى عنها في شعر كفافيس باللغة الإنجليزية. شملهما الصمت قليلا ثم راح عيسى يتلو القصيدة..

«إن لم يكن بإمكانك أن تصنع حياتك كما تشاء، فعلى الأقل حاول أن تفعل ذلك، لا تقلل من شأنها بكثرة الاحتكاك بالناس، وبالإفراط في حركاتك وكلماتك. لاتقلل من قدرتها بالتطواف هنا وهناك في زحمة العلاقات والمقابلات اليومية الحمقاء. هكذا تصبح حياتك ضيفا ثقيلا عليك».

انتهى عيسى ونظر إلى خريستو الذي قال:

ـ مش عارف أنت ازاي شيوعي وتحب كفافيس. كفافيس كان بعيد عن الدنيا خالص. يحب يكون لوحده ـ وضحك ـ بس خبيبه يكون معاه..

ضحك عيسى. خريستو الذي يبدو له أحيانا قد فقد الذاكرة، يبدو أيضا ممتلكا لكل قواه العقلية. هذه لحظة نادرة. وانطلق خريستو يتحدث بثقة!

ـ شوف خبيبي أنا خلاص صورت كل الكازينوهات والملاهي

الليلية. أيوه. كله حيقفل خبيبي. أيوه. إسكندرية خلاص. هوب مافيش إسكندرية. شوف شوف أنا كنت النهاردة أصور ولد وبنت جنب تمثال عروس البحر. عارف أنت طبعا الفنان اللي عمله.

ـ طبعا خريستو. «فتحي محمود» لكني لا أعرفه شخصيا..

ـ أنا أعرفه. صورته كتير. المهم خبيبي ظهر راجل لابس جلابية بيضا وعنده ذقن سودا كبيرة. فوق الجلابية لابس جاكت بدلة، وفي رجليه صندل في عز البرد بس فيه تحته شراب.

ـ طلب منك أن تصوره.

ـ لا خبيبي. هجم علينا وقال التصوير حرام.

اندهش عيسى ونظر إليه باهتمام.

ـ أيوه خبيبي. شخط في الولد والبنت. عارف. الولد خاف. البنت طلعت أرجل منه. قالت للراجل وأنت مالك يا حمار. وقلعت الجزمة وقالت له بصوت عالٍ امش بدال ما أضربك بالجزمة دي على نافوخك..

وراح خريستو يضحك سعيدا، وكان اثنان من الجرسونات قد وصلا يحملان الغداء والبيرة، ورائحة الطعام تسبقهما، فقال خريستو سعيدا وهو ينظر إلى الطعام:

ـ أيوه كده. دنيس مشوي وكاليماري. إنت إسكندراني بجد خبيبي رغم إنك شيوعي غلبان.

ضحكا، وراح عيسى يأكل مع خريستو بشهية. فكر لحظة كيف

حقا جرى ما جرى في الكلية اليوم بهذه السرعة، لكن بدا له خريستو جميلا كالعادة، مثيرا للبهجة، رغم أنه لاحظ التجاعيد التي زحفت تحت عينيه أكثر من ذي قبل. قال خريستو:

ـ مش تزعل خبيبي لما آكل وأمشي بسرعة. أخويا مسافر اليونان النهارده. المركب تمشي الساعة ثمانية بالليل. لازم أقعد معاه شوية. كل يوم أقول له مش تسافر اليونان مش يوافق. لازم أروح أقول له تاني. كمان بنتي عايزه تمشي معاه. معقول بنتي حبيبتي تمشي وتسيبني؟

لم يرد عيسى الذي كان يسمع ذلك كله في صمت كالعادة. أخو خريستو ترك الإسكندرية من زمان، وكذلك زوجته وابنه وابنته، أما الفتاة التي تعمل معه في الاستديو فهي مصرية اسمها «جميلة»!!

* * *

في أقصى الشرق في الإسكندرية ازدادت البيوت والعمارات التي تبنى في الأراضي الرملية، في سيدي بشر والعصافرة والمندرة جنوب وشمال خط قطار أبي قير. أصحاب الكبائن والفلل الخشبية في سيدي بشر وحتى المندرة، التي كانت تستخدم كمصيف لهم، بدءوا يبيعونها أو يهدمونها ليقيموا مكانها البيوت والعمارات، بعد أن رءوها تقوم خلفهم حتى خط القطار. أما في الجنوب فكانت البيوت تقوم بسرعة أكبر، وترتفع العمارات، بعيدا عن أي نظام.

شوارع تبدأ واسعة ثم تضيق وتتفرع منها أزقة صغيرة ترتفع فيها البيوت بشكل عشوائي، تماما كما حدث ويحدث في منطقة الجبل

بالدخيلة. هنا المكان أكبر، عميق وممتد، كثير من الأرض وخاصة في الجنوب، مستنقعات مائية. وظهر على الكورنيش لأول مرة، في آخر شارع خالد بن الوليد عند التقائه بالكورنيش، مقهى علق لافتة ممنوع المشروبات الروحية، وتم بيع ملهى الكيت كات الكبير الواسع ليصبح قاعة أفراح، والتقى الرئيس السادات بالملك فهد عاهل المملكة العربية السعودية، وأعلن السادات مبتسما ابتسامته العريضة التي لا يعادلها على وجهه إلا غضبه العنيف، إنهما متفقان على كل شيء. وظهر شاب أسمر على الكورنيش يرتدي بنطلونا أسود ضيقا، وبلوفر أسود فوق القميص الأبيض، ويحمل أوكورديون بين يديه يعزف عليه وحده وسط الطريق، بين السيارات القليلة وسط المطر والريح، ولا يبدو أنه يهتم بأحد. وراح ينتقل على الشاطيء بين محطة الرمل وميامي وحده، تمر عليه السيارات والتاكسيات، يضحك بعض ركابها ويتحسر البعض الآخر. ووافق مجلس الأمن على اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مناقشة عدوان إسرائيلي جديد على الضفة الغربية وغزه، ووصل الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان إلى مصر، وأشاد بحرارة استقبال شعب مصر له، وكتب الشاعرأحمد فؤاد نجم قصيدته الساخرة التي غناها الشيخ إمام بين المثقفين:

«فاليري جيسكار ديستان
والست بتاعه كمان
حيجيب الديب من ديله
ويشبع كل جعان
ياسلام لم ياجدعان
ع الناس الجينتلمان»

إلى آخر القصيدة التي انتشرت بسرعة بين طلاب الجامعة، وحل العيد الكبير، وسافر الطلاب المغتربون في الجامعات إلى قراهم لأن العيد إجازه، كذلك فعل حسن حافظ وأحمد باسم، ولم يذهب نادر أو بشر إلى الشقة في العيد، واختار الرئيس السادات مدينة دنشواي ليصلي فيها العيد في مسجد سيدي بشل، والتقى بأحفاد شهداء حادثة دنشواي، وخطب في مؤتمر سياسي وشعبي حافل، وبدأ عرض فيلم «الكداب» بسيما راديو بالإسكندرية، وأقيم أول معرض للفنون التشكيلية بمقهى خفاجي بالورديان، وكانت المقهى من قبل أيضا في الستينيات منتدى ثقافيا، استأجرت من المحافظة الحديقة المقابلة لها، وأقامت بها تمثالا صغيرا لجمال عبد الناصر، ووضعت فيها تلفزيونا كبيرا، والآن أزيل التمثال واستعادت المحافظة من المقهى الحديقة المؤجرة، وحصرتها في مكانها تحت العمارة المقابلة للحديقة، على ناصية شارع القفال مع شارع المكس، ولم تقم بها ندوات، حتى أقام يحيى خفاجي ابن صاحب المقهى، المتخرج في كلية الفنون، هذا المعرض كبداية لتقليد يتكرر كل عام.

فاز بجائزة نوبل في الآداب الشاعر الإيطالي أوجينو مونتانا غير المعروف في مصر، كما فاز بها في السلام أندريه ساخاروف العالم النووي الروسي وصانع القنبلة الهيدروجينية، الذي تحول إلى داعية سلام وتسامح وأصبح مضيقا عليه في الاتحاد السوفييتي، وبدأت اللجان القانونية في مصر بمناسبة نهاية العام تبحث إقرارات الزمة المالية للموظفين، وعلى رأسهم الرئيس السادات ورئيس الوزراء

ممدوح سالم وباقي الوزراء وأعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وكلها طلعت سليمة والحمد لله. في الوقت الذي تجددت فيه المعارك في لبنان، واشتركت فيها المدرعات لأول مرة في زغرتا وطرابلس، وتم القبض على الشيوعيين في سوريا، وهرب خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي من هناك، وبدأ الاستعداد للعام الميلادي الجديد، وعلى مقهى «الوطنية» بالمنشية، كان رجل يمسك بالجريدة يقرأ درجات الحرارة، فبدت الدهشة على وجهه، وقال للرجل القريب منه:

ـ أعرف أن النهاية الكبرى لدرجة الحرارة في القاهرة دائما أكبر منها في الإسكندرية. اليوم مثلا القاهرة٢٥ درجة وفي الإسكندرية٢٠ درجة. لكن كيف تكون الصغرى في القاهرة سبع درجات وفي الإسكندرية أعلى، إحدى عشرة درجة. هل وصل الكذب إلى درجة حرارة الطقس أيضا؟

ابتسم الرجل الثاني وقال:

ـ لا. هذا صحيح.

ـ كيف؟

ابتسم الرجل الثاني من جديد وقال:

ـ هناك ظاهرة معروفة في الجغرافيا اسمها نسيم البر والبحر. المدن الساحلية في الشتاء يحتفظ فيها البحر بالنهار بالحرارة، وتخرج منه في الليل، فتكون الدرجة الصغرى أكبرمنها في المدن التي تقع وسط الصحراء أو الزراعة مثل القاهرة. لقد درسنا ذلك

ونحن صغار في المرحلة الإعدادية إذا كنت تذكر. نسيم البر والبحر. كان هذا عنوان الدرس.

فكر الرجل الأول قليلا وقال غير مقتنع:

ـ ربما.. أنا كنت أخيب تلميذ في الجغرافيا.

وضحكا. فعاد الرجل الثاني يقول:

ـ كل ذلك سيتغير فيما بعد. لقد بدءوا يصرفون مجاري المدينة في بحيرة مريوط. صارت الرائحة النتنة على طول الطريق الصحراوي بين العامرية حتى محرم بك. سيدمرون البحيرة التي كانت مياهها تفعل ما يفعله البحر، فضلا عن إنها كانت تستقبل الرياح الغربية الحارة القادمة من الصحراء في الصيف، فتحمل الرياح شيئا من البرودة، وتقل درجة حرارتها.

قال الأول:

ـ المحافظة غاوية قرف. مازالوا يردمون البحيرة أيضا عند محرم بك بزبالة المدينة لإقامة حديقة.

قال الثاني:

ـ الجهل يا صديقي كبير جدا. الزبالة تحتوي على مواد عضوية من بقايا اللحوم والأسماك والدواجن وغيرها. هذه المواد العضوية ستنتج تحت الأرض حشرات ستأكل جذور الأشجار. لن يفلح المشروع وفي النهاية سيتحول المكان إلى مقاه ومطاعم ومحلات، ونكون خسرنا البحيرة..

سكت الأول قليلا يفكر فيما سمعه ثم قال:

ـ الأهم من ذلك أننا لن نجد سمكا رخيصا لنأكله. ربنا يخرب بيوتهم. شوية بهايم ماسكين البلد.

وضحكا بصوت عال.

-٣-

اليوم الواحد والثلاثين من ديسمبر، ستكون الليلة لوداع السنة. ليلة استعدت لها المدينة وسكانها، رغم أن المطر لم يفارقها منذ أيام، واليوم يزداد، وتزداد نوّة الميلاد.

إزداد البرق والرعد في السماء حتى بدا كأنها تشتعل فرحة بقدوم عام جديد. قليلون هم اللذين يظهرون في شوارع المدينة الليلة بعد الثامنة مساء. البيوت أكثرها أغلق على دفء عائلي جميل، والمحلات التي لاتزال مفتوحة ستغلق أبوابها بعد قليل، والسيارات التي في الشوارع ستصل إلى مرافئها، والتاكسيات ستقل أعدادها، وستنتهي واقفة أمام الملاهي الليلية والبارات تنتظر الخارجين بعد منتصف الليل. ستظل في الشوارع، لكن على مهل، حتى إذا انتصف الليل توقفت تماما.

بين الثامنة والتاسعة توقف المطر، كأنه يعطي أهل الإسكندرية الفرصة الأخيرة للوصول إلى غاياتهم، ثم هطل بقوة في اللحظة التي خرج فيها عيسى سلماوي من شقته بالورديان. اللحظة نفسها تقريبا

التي خرج فيها نادر أيضا من بيته في المكس، لكن لن يلتقيا. عيسى سيذهب إلى «أتينيوس» ونادر سيذهب مباشرة ومبكرا عن أصدقائه إلى «نوال بوط».

في المكس كانت الأمواج تأتي إلى الشاطئ مسرعة عالية تضرب قاعدة الفنار القديم من كل ناحية، فترتفع حوله متناثرة معلنة عدم قدرتها على هدم الفنار العتيق. تتابعها السريع إلى الشاطيء يبدو طبيعيا، لكن حول الفنار تبدو كأنها تدخل معركة معه. الترام متوقف عن الحركة في شارع المكس، لأن المنطقة بين السلخانة ومخازن الجيش منخفضة، علت فيها مياه المطر التي فاقت كمياتها قدرة البلاعات، كذلك يمشي الأوتوبيس بطيئا بين المياه جانحا إلى اليمين أو اليسار. مع بداية حي الورديان، وبدء العمران بعد مدرسة طاهر بك الإعدادية، كانت النوافذ العالية للبيوت القديمة كلها مغلقة، تظهر من خلفها الأنوار، لكن امرأة غامرت ووقفت في البلكونة أمام الساعة السويدية، تنظر إلى خيوط المطر الكثيفة، وتسمع صوت ارتطامه بالأرض، وتتركه ينزل على رأسها وكتفيها فوق الروب الشتوي الذي ترتديه، وتعقد ذراعيها إلى صدرها، وتفكر في زوجها الذي يعمل طباخا على إحدى سفن الركاب، ويمضي هذه الليلة في ميناء جنوة بإيطاليا.

في مقهى خفاجي الذي به معرض الفنون التشكيلية لم ينته بعد، ضوء خافت يظهر من خلف زجاج الواجهة، وأضواء ملونة هي اللوحات ذاتها. ليس في المقهى الآن غير خمسة أو ستة أشخاص يظهرون يدخنون الشيشة، وسيتركون المقهى بعد قليل وستغلق

أبوابها. في منطقة «المفروزة» ذات المنازل الصغيرة التي لا تزيد على دورين أو ثلاثة، باستثناء العمارة العالية العجيبة الوحيدة في المنطقة التي تبدو رفيعة جدا، وتطل على ناصية شارع الإخشيدي الواسع مع شارع المكس بالبلكونة فقط، شارع الإخشيدي الذي يؤدي إلى منطقة «الكرنتينة» العشوائية البناء والسكان، وبعد هذه العمارة الملفتة دائما للنظر بقليل، وفي شارع المكس، وقف رجل في بلكونة شقته فوق مقهى اللنش، يرتدي جلبابا وله لحية طويلة على وجهه الذي بلا شارب، مرتكنا إلى الجدار ليحمي نفسه من المطر بالبلكونة التي فوقه، وراح ينظر إلى الصف المواجه للبيوت الصغيرة، التي بها منزل صغير فيه «جمعية المحبة القبطية»، وفوقها شقة تقف في بلكونتها فتاة تضحك ومعها شاب، وقد ارتديا ملابس سهرة جميلة. ظهرت من خلفهما فتاة صغيرة وألقت بزجاجة إلى الشارع فسمع الرجل الملتحي على الناحية الأخرى صوت الزجاجة وهي تصطدم بالأرض وتتكسر، وصوت الفتاة الكبرى وهي تقول لها «مش دلوقتي.. الساعة اتناشر» وتدفعها إلى الدخول من البلكونة والبنت الصغيرة تضحك. ظهر سخط كبير على وجه الرجل الملتحي، ولعنهم في سره، وأغلق النافذة ودخل.

لا أحد ظهر بعد ذلك في الطريق. في القباري أو مينا البصل، حتى شارع السبع بنات الذي ظهر مضيئا الليلة أكثر من كل وقت، بعواميد النور، والبلكونات التي أزدانت بخيوط من اللمبات الصغيرة علقت على الجدران. هنا سيتم إلقاء زجاج كثير الليلة، رغم تغير كثير من المحلات، من مطاعم وبارات، إلى محلات لبيع الأدوات الكهربية، فالشارع لا يزال يعرف طقوس هذه الليلة، مثل كثير من الأحياء

القديمة، بما بقى فيه من سكان عواجيز. من البار الوحيد الباقي في مواجهة قسم اللبان، خرج رجل ضاحكا يجري، وخلفه امرأة تطلب منه التوقف حتى لحقت به، وأمسكت بيديها في ذراعه تهتف «رايح فين مش هسيبك الليلة». وسقط عن كتفها الشال الصوف الثقيل فبدت عارية الصدر والكتفين، في الوقت الذي كانت شفتاها مثقلتين بالروج الأحمر، والمكياج الكثيف على وجهها. قالت وهي تضربه في صدره بيديها في غيظ لطيف «خليت الشتا بوظلي الماكياج يا مضروب». ودخلت معه إلى السيارة القريبة، وانطلق بها. قبل نهاية الشارع كانت أكثر من سيارة ملاكي تقف، وحولها نساء ورجال بملابس سهرة رائعة، تزغرد النساء، وينتظرون جميعا «عروسة وعريس» يقومان بطقس التصوير المعتاد في الأفراح في أستديو «كليوباترا».

في المنشية اتسع الميدان للمطر. كل شيء هنا مغلق الآن. فقط أضواء الميدان، وفقط هو محمد علي باشا على فرسه يتلقى المطر عن المدينة. لم تكن كثير من البلكونات مضيئة، فكثير من شقق العمارات الإيطالية الطراز، تركها سكانها وصارت مكاتب لشركات أو محامين أو توكيلات ملاحية أو مخازن للأقمشة. صمت على الناحية اليمنى للميدان. بعيدا مبنى الاتحاد الاشتراكي الكبير، البورصة القديمة، مظلم تماما. صمت آخر على الناحية اليسرى، أمام المحكمة - الحقانية - وفي شارع النصر رغم اتساعه، ومحلات الملابس على الجانبين مغلقة.

من الناحية اليمنى لمبنى الاتحاد الاشتراكي تدخل شارع أديب إسحق، إلى بار «الشيخ على» الكاب دور، الذي صار مشهورا باسم صاحبه الجديد، على، الذي حين اشتراه من صاحبه اليوناني منذ

سنوات بعيدة أغلقه أيام الجمع، فأطلق عليه الرواد الشيخ على. ومن بار «سبيت فاير» قريبا من سينما الشرق، في شارع البورصة القديمة، والتي تم هدمها وستتحول إلى عمارة كبيرة، خرج رجل أطلق عدة أعيرة نارية في الفضاء، ودخل بعد أن هتف «مافيش أحسن من إسكندرية في الدنيا يا أولاد الكلب»، وفي شارع الغرفة التجارية كان الترام يمشي خاليا تقريبا، وعلى مهل، وكل شيء صامت حوله، وفي شارع الميناء الشرقية خرج شخص يترنح من بار القط الأسود، وما إن داهمه المطر حتى عاد إلى البار في رعب كأنه لم ير مطرا من قبل. ودخل يقول: «هو فيه إيه؟ الدنيا بتشتي كده ليه؟» فانطلق الرواد جميعا في الضحك.

شمل الصمت كل أحياء المدينة، شوارعها الرئيسية، وكثير من شوارعها الجانبية. لكن النور من أعمدة الشوارع قوي، والنور من خلف النوافذ واضح، والناس في البيوت أو يلحقون بها مسرعين تحت البلكونات، والقليلون الذين فتحوا محلاتهم بدءوا يغلقونها. الكل ينتظر الساعة الثانية عشرة، ليلقي بالزجاجات الفارغة، والقليل من الأشياء التي يريدون أن يتخلصوا منها مودعين العام، راجين عاما أفضل، ولم يكن ساهرا على البحر في الأنفوشي غير النادي اليوناني، ونادي اليخت، وصوت الموسيقى، رغم بعد المسافة، يصل عابرا الميناء الشرقي، ليارا في حجرتها المغلقة النافذة. لقد تركها أبوها وأمها ليسهرا عند أصدقاء لهما. اعتذرت هي عن صحبتهما فهي مرهقة شاحبة. ذلك يحدث معها في كل شهر، ولعدة أيام، حين تداهمها الدورة الشهرية. آلام كبيرة لاتتصور أن أحدا يشاركها فيها. تفقد كثيرا من وزنها وتشحب وينخفض ضغط دمها. خمسة أيام تعد مثل عام، فكانت تتعرض فيها للإغماء بسبب أقل مجهود.

قالت لأمها وأبيها إنها ستذاكر الليلة دروسا مهمة. خجلت أن تعلن حالتها لهما، وهما بالطبع يعرفان ولا يعلقان. لقد عرضتها أمها من قبل على أكثر من طبيب، كلهم قالوا إن ذلك أمر طبيعي تختلف فيه النساء، وربما ينتهي بعد الزواج.

كانت تفكر في نادر وما سيفعله الليلة. تعرف أنه سيسهر في «نوال بوط»، وتمنت لو استطاعت مرة أن تسهر هناك معه. لكنها سألت نفسها ماذا في هذا الملهى يجذب نادر وأصحابها؟ هل حقا لأن صاحبته تحبهم كما يقول نادر؟ هو في النهاية ملهى ليلي مليء بالسكارى والنساء العاريات الأكتاف والصدور والسيقان. كان صوت عبد الحليم حافظ يغني «فاتت جنبنا» في التلفزيون الذي تركت حجرتها لتجلس أمامه تتابع الاحتفالات بهذه الليلة ولو لبعض الوقت، حتى تبتعد قليلا عن آلامها. وجدت نفسها في قلب إعجابها بعبد الحليم والأغنية، تفكر كيف فجأة ذهبت مع نادر إلى الشقة. هل يكفي أن كاريمان أسرّت إليها بذهابها مع حسن لتفعل مثلها. تضايقت للحظة، ثم ابتسمت وهزت رأسها مبتهجة.

كانت تجلس معه في بترو للمرة الثانية. كانت تعرف أنه اختاره من جديد ليفوز بقبلة جديدة. قال لها لنبتعد قليلا عن مزارع سموحة وأشجارها، فهناك فلل بينها وإن لم يروها دائما. كثير من الفلل خالية من سكانها القدامى حقا، لكن ربما يعودون لبعض الوقت مع نهاية العام. ثم أن كثيرا من العمارات بدأت تبنى هناك، ودائما هناك مواد بناء في أكثر من مكان، وعمال وخفراء. الوضع يتغير في سموحة الآن. وجدت نفسها تقول وهي تنظر إلى أسفل وتشبك أصابع يديها في قلق:

ـ وهنا أيضا ناس، الجرسون الذي سكت المرة السابقة ربما لا يسكت هذه المرة.

قال على الفور:

ـ إذن تأتي معي إلى الشقة.

ـ سآتي معك.

واشتعل وجهها بالخجل.

حين دخل بها الغرفة نظرت إلى السرير الصغير، والدولاب الصغير أيضا، والمكتب القديم الذي فوقه كتب وأوراق وكراسات مهملة. بدت مشفقة عليه من هذه الفوضى.

أجلسها على طرف السرير وجلس جوارها وراح يقبلها بسرعة.

ـ على مهلك. انتظر قليلا. أنا دائخة.

ارتبك. لكنها قالت:

ـ لا تخف. أنا بخير لكن مشتتة الفكر لا أتصور أني أتيت معك إلى هنا. هل هناك أحد في الغرف الأخرى؟

ـ لا. لاتقلقي.

مدت يدها وأخذت كتابا من فوق المكتب. وجدت عليه اسم بشر زهران.

ـ هذه غرفة بشر؟

ـ غرفته وغرفتي. الغرفتان الأخريان لحسن حافظ وأحمد باسم.

نحن نساهم معهما بثلث الإيجار لأننا لا نأتي هنا كثيرا مثلهما. هما يعيشان هنا طوال الدراسة.

ـ أخشى أن يعود أحدهما الآن.

ـ لا تخافي. حسن مع كاريمان وبشر الآن في مقهى والي. أحمد باسم لا يأتي إلا متأخرا. لا أعرف أين يذهب طوال النهار.

هزت رأسها وقالت:

ـ لا أحب أحمد باسم. دائما ينظر إلى البنات نظرة جنسية. كثير من زميلاتي يشكين منه.

نظر إليها نظرة طويلة ثم مال على وجهها يقول:

ـ لا تفسدي اللحظة التي انتظرتها.

جذبها نحوه وراح يقبلها بهدوء، وعلى مهل، في شفتيها وخديها وجبينها، ثم عنقها فتأوهت بصوت خفيض، وراحت رأسها تتحرك، وعلا صوت تأوهاتها، ففكر للحظة أنها ذات تجربة سابقة، إلا أنه قال لنفسه إن ذلك هو ابن للحرمان أكثر مما هو ابن للخبرة.

كانت أنفاسها قد بدأت تتلاحق، والنار تشتعل في جسده أكثر، فراح يفك أزرار جاكيت التايير الذي ترتديه، وبدا مرتبكا غير قادر على السيطرة على نفسه، فراحت تضحك وتحرك رأسها رافضة، وكلما فك زرارا أغلقته، فأمالها على السرير فسكنت له، واستطاع في النهاية نزع ملابسها..

كانت يارا في شقتها تتعجب من استسلامها له بسرعة، رغم ما بدا

منها من رفض أو عبث معه. وتتذكر كيف راح يمشي على عفتها بذكره، وكيف صارت تضحك بهستيرية لم تعرفها عن نفسها من قبل، مما أربكه لحظات. يتورد وجهها الآن وهي تتذكره يرتعش فوقها بسرعة، وهي تضم ساقيها ليقذف بعيدا عن مركز عفتها. المكان الذي يسبب لها الرعب..

فعلها ثلاث مرات حتى نامت سكرىٰ لدقائق، وحين فتحت عينيها أمسكت يده تقبلها. سألها:

ـ كنت خائفة؟

ـ طبعا.

ـ ربك يسترها مع المحبين!

نظرت إليه باسمة، ثم ضحكت بصوت عال. هل يرضى الله أن نفعل ذلك حقا؟ وراحت تهز رأسها الآن في غرفتها مندهشة من قول نادر، الذي لم يعرف أنها عانت من ألم كبير، وهي تتمنى أن يفض بكارتها ولا تستطيع أن تصرّح بذلك، لأنها لا تستطيع أن تعيش بلا بكارة إلا بعد الزواج.

فكرت فجأة أين ستمضي كاريمان ليلتها هذه. هل مع أمها وزوج أمها السافل مدعي التدين؟ شعرت بالأسى من أجلها، وتمنت لو زارتها فجأة كما حدث من قبل. سمعت صوت جرس باب الشقة فاضطربت، ثم اندهشت. هل تكون كاريمان؟ ستكون مصادفة رائعة.

قامت إلى الباب، وقبل أن تفتح نظرت في العين السحرية، فرأت وجه رجل ضخم ذي لحية كبيرة. ترددت في فتح الباب. قالت بخوف:

ـ من؟

ـ افتحي يا أخت. رسالة لحضرتك.

رسالة في هذا الوقت من الليل؟! ليلة رأس السنة والساعة تجاوزت العاشرة.

فتحت الباب المسافة التي تسمح بها السلسلة التي تغلق بها الباب من الداخل حين تكون وحدها، فرأت الرجل ضخم الأكتاف، يضم إلى صدره رزمة أوراق بيده اليسرى، سحب من بينها ورقة بيده اليمنى قدمها إليها وقال:

ـ عظمّ الله أجرك يا أخت.

وتراجع ليصعد إلى الدور الأعلى. أغلقت الباب بهدوء ودهشة، ووقفت وسط الصالة، وكانت شادية تغني، «آه يا أسمراني اللون». لقد انتهى غناء عبد الحليم حافظ إذا وهي شاردة في لقائها بنادر. نظرت إلى الورقة الفولسكاب تقرأ ما فيها، ثلاث جمل مطبوعة بخط عريض، بحيث تملأ الورقة كلها:

«الحجاب قبل الحساب.. الحجاب في مواجهة الذئاب».

«الصلاة الصلاة الصلاة».

«الاحتفال برأس السنة الميلادية عادة الكفار».

* * *

يا إلهي! كل هؤلاء الناس؟

هكذا قال أحمد باسم بعد أن دخلوا من باب الملهى، وتوقفوا مبهورين يتأملون الصالة الكبيرة.

الضوء الخافت ودخان السجائر السابح، وألوان الإضاءة، وزحام الأصوات حولها وفوقها. عدد كبير من الفتيات تتحركن الليلة حاملات الأطباق الفارغة، والأطباق الممتلئة بالبيرة والويسكي والبراندي والنبيذ والفودكا والشمبانيا. ملابس الفتيات الليلة أقصر من كل وقت، تظهر أجزاء أكبر من أفخاذهن. ظهورهن وأكتافهن مغطاة بالبلوزات الواسعة قصيرة الأكمام.

النساء حول المقاعد مع الرجال تلمع أكتافهن وأذرعهن، كثيرات منهن يدخن وسط النور الخافت، ورائحة البارفان تحلق في المكان كله. وقال بشر:

ـ كل هذا اللحم الليلة!

ابتسم حسن وسأله:

ـ زعلان؟

ـ متحسر على حالي. هذه هي النسوان.

كانوا يبحثون عن نوال. ليست في ركنها المعتاد الليلة. لمح أحمد باسم نادر يجلس بعيدا مع نوال على الناحية الأخرى من الصالة. قال:

ـ طبعا لابد أن يسبقنا. هذه ليلته فيما يبدو.

ابتهجوا وتقدموا إلى نادر ونوال. كما يحدث في كل مرة انحنى حسن وقبل يد نوال. قالت:

ـ هابي نيو يير يا شباب.

صافحها أحمد باسم وبشر. لم يقبل أي منهما يدها كما فعل حسن الذي تعتبره الجينتلمان بينهم. بسرعة وقف خلفهم اثنان من البودي جاردات، يمسكان بالمقاعد يسحبونها بعيدا قليلا عن المنضدة الكبيرة حتى يجلسون واحدا بعد الآخر. تبادل حسن وبشر النظرات في دهشة. المعاملة رائعة الليلة وأجمل من أي مرة. بسرعة حضرت «حياة»، التي تخصصت فيما يبدو في طلباتهم. كانت تدفع عربة صغيرة بدا أنها أعدت من قبل، فوقها زجاجة شمبانيا وزجاجة ويسكي وعدد من زجاجات البيرة، وكميات كبيرة من المزّات في الرف الأسفل منها. كان على المنضدة من قبل بقايا من زجاجة شمبانيا ومزّات قليلة. هتف أحمد باسم:

ـ كل هذا لنا الليلة؟

قال نادر ضاحكا:

ـ كما ترى لم أشرب ولم آكل كثيرا حتى أحتفظ به لكم.

كان نادر يقصد ما تبقى على المنضدة، بينما يشير أحمد إلى ما تأتي به «حياة».

أشعلت نوال سيجارة. كانت ترتدي فستانا رائعا ستغني به الليلة، يظهر جزءا كبيرا من صدرها وكتفيها. الآن تضع فوقها شالا خفيفا يشف عن جسدها تحته، لكنها بعد قليل سترفع الشال. لابد.

أكثر من شهر مضى الآن ولم ياتوا إليها. هل كان لقاء العام الماضي من تدبير القدر؟ كانت ليلة شتوية طويلة. كان فيها بشر حزينا لأن

الفتاة التي كان يحبها في الحي خطبت لآخر، وحين سأله نادر هل تركتك هكذا فجأة؟ قال لا لم تكن تعرف أني أحبها!

كانت هذه أول مرة يسمع فيها نادر من بشر شيئا عن الحب. حدثه بشر كيف أنها تسكن أمامه، وكم هي جميلة مثل القمر، إذا أطلت من النافذة رقصت الدنيا حوله، لكنه وقد دخل بيتها كثيرا، لصداقته لأخيها، ولصداقة أمها وأبيها لأمه وأبيه، كان يرى فيها أختا. فجأة استيقظ إحساسه بالحب نحوها. قرر أن يذهب إليها من الطريق الصحيح. الزواج. فكر أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بعد التخرج. قرر أن يخطبها حين يكون في الليسانس. سيكون وقت قليل باقيا ليعمل ويؤسس بيتا. لم يكن يدرك أنها وقد كبرت مثله، وصارت في الجامعة، في كلية الطب، كان جسدها يتفجر.

كما قال أستاذ مادة فلسفة السياسة يوما، الرجل الساخر الذي يحبونه جميعا، حين سألته زميلة لهم اسمها مفيدة، عن معنى نظرية المجال الحيوي، فنظر إليها وفكر لحظات، ثم ضحك وقال: «أنتِ قطة صغيرة في عيون أبويك، أما جيرانك والآخرون فيرون أن أشياء تفجرت فيكي، فظهرت على صدرك كرتين وفي الخلف كرة أكبر، وشعرك يطير خلف ظهرك. وهنا يرى شخص ما أن هذا مجاله الحيوي ولابد من اقتحامه، فيعلنك بالحب أو يأتي طارقا باب بيتكم إذا كان محترما. أما إذا كان مجنونا فيعتدي عليكِ. هكذا فعل هتلر بتشيكوسلوفاكيا حين رأى فيها مجالا حيويا لألمانيا، ثم فعل ذلك ببولندا، ثم توسع في أوربا كلها». مفيدة لم تستمع إلى الجزء السياسي الأخير من الكلام. كانت قد أغمى عليها في المدرج الدراسي بينهم.

قال بشر آسفا وحزينا لم أكن أدري أن هناك غيري يرى مجاله الحيوي في الفتاة التي أحببتها في صمت. بسرعة تمت خطبتها إلى طبيب شاب.

كانا يجلسان تلك الليلة على سور الكورنيش وسط البرد. والبحر يتنفس خلفهما وسط الظلام بصوت هادئ كسول. قال له نادر:

ـ ما جرى لا يستحق الحزن. أنت لم تعش معها قصة حب حقيقية. فيما يبدو أنك فنان يا بشر ونحن لا نعرف. هيا نمشي قليلا فيدفئنا المشي.

لم يبتعدا كثيرا، ووجدا على يسارهما ملهى «نوال بوط». بابه مضيء، وفوقه صور للراقصة «علياء» وللمطربين والمطربات، وأمامه بودي جارد وامرأة جميلة. قال بشر ضاحكا في سخرية:

ـ ليلة تستحق أن نسهر فيها في ملهى كهذا. كما يحدث في الأفلام العربية حين يريد البطل أن ينسى قصة فراقه عن حبيبته. لكن كيف؟

قال نادر:

ـ فكرة جميلة. معي عشرة جنيهات سأنفقها كلها من أجلك. يمكن أن تكفي.

لم يترددا. دخلا الملهى. أكلا دجاجا، وشربا براندي حتى يقتصدا، وشاهدا الراقصة علياء واستمعا إلى الغناء الشرقي. انتهت الليلة وإذا بالحساب عشرة جنيهات تماما. لكن نادر اكتشف أنه ليس معه إلا خمسة جنيهات. لقد ترك الخمسة الأخرى لأمه قبل أن يخرج من المنزل. كانت العشرة جنيهات هي أجره الشهري

من تلميذ في المرحلة الإعدادية يدرّس له مادتي اللغة الإنجليزية واللغة العربية!

ارتبكا. راح بشر يعض شفتيه في غيظ. أحاط بهما أكثر من بودي جارد، ونوال صاحبة الملهى تجلس بعيدا. كان قد استرعى انتباهها من قبل صغر سنهما وملابسهما الخفيفة التي لم تتعود أن تراها على أحد من رواد الملهى. مجرد بنطلون فوقه قميص فوقه بلوفر. كانت ترى ما يحدث. أشارت إلى رجالها أن يأتوا بهما إليها. قبل أن تسألهما أي شيء قال بشر:

- حسابنا عشرة جنيهات يا مدام. اكتشفا أنه ليس معنا غير خمسة. يمكن أن نترك لك البطاقة الشخصية لكل منا حتى نعود غدا بالباقي. نحن طلبة محترمون في كلية الآداب.

تأملتهما لحظة محاولة أن تمنع ابتسامة تكاد تظهرعلى شفتيها وقالت:

- أنت تتكلم بثقة وصديقك يبدو حائرا وخجلان. لماذا لا تكون مثله. هل الخمسة جنيهات معك أنت وهو ليس معه شيء؟

قال:

- أنا مفلس طوال الوقت. الخمسة جنيهات معه هو.

ضحكت، وأشارت إلى رجالها بالانصراف. دعتهما للجلوس فتبادلا النظر وجلسا. بدا نادر شاردا.

سألتهما:

ـ من إسكندرية؟

ـ طبعا.

أجاب بشر ثم أردف:

ـ لذلك لم نخف من أحد.

ابتسمت وقالت:

ـ تقول في كلية الآداب؟

ـ قسم الفلسفة.

أجاب بشر. وجهت حديثها إلى نادر وقد جذبها إليه صمته وحيرته:

ـ لماذا حقا لا تتكلم أنت؟

قال بشر:

ـ لأنه شاعر. قلبه رقيق. أكيد حزين ومتلخبط مما حدث.

سكتت وتأملت نادر لحظات. ثم قالت لبشر:

ـ وأنت طبعا لست شاعرا.

ـ أنا سياسي.

قال ذلك وارتبك. زاد ارتباكه حين نظر نادر إليه مندهشا لكنه استمر:

ـ أجل سياسي قرفان من الرئيس المؤمن وما يفعله في البلد. ما رأيك الآن؟ يمكن أن تودينا في داهية لو أحببت.

ضحكت بصوت عال وقالت:

ـ اسمك إيه؟

ـ بشر. بشر زهران. وهو نادر. نادر سعيد.

فتحت عينيها على آخرهما كأنما تتذكر شئيا بعيدا، لكن بشر استمر يتحدث. قال:

ـ نادر سعيد. وكما ترين التعاسة التي حولنا.

نظرت إلى نادر وبدا أنها لاتزال شاردة بعيدا ثم قالت:

ـ لا تعاسة ولا شيء. اعتبرا نفسيكما ضيفان عندي الليلة. احتفظا بالخمسة جنيهات لكن لي شرط واحد.

اندفع بشر:

ـ أأمري حضرتك.

ـ أن تعودا إلينا مرة أخرى. وهذه الدعوة لأصحابكما إذا كان لكما أصحاب.

ثم سكتت قليلا وقالت:

ـ وأن تعدني يا نادر أن أسمع شعرك يوما ما.

ثم ابتسمت وقالت:

ـ إذا أعجبني شعرك سيكون كل شيء بالمجان.

ومدت يدها وهي جالسة تصافحهما. تبادلا النظر غير مصدقين،

ثم صافحاها وخرجا مسرعين. أول ما قابلهما الهواء وقد اشتد خارج الملهى.

قال بشر:

ـ غريب أمر هذه المرأة. حين سمعت اسمك برقت عيناها واتسعتا، وحين عرفت أنك شاعر كذلك. دع الأيام تكشف لنا الأمر.

قال نادر:

ـ هل سنعود حقا مرة أخرى؟

قال بشر:

ـ طبعا. لكن لابد أن تكون معي. هي ارتاحت لك أنت. بدونك سينخرب بيتنا.

ضحكا.

ترددا عليها مرة واحدة آخر العام الدراسي الماضي، وهذه هي المرة الثانية خلال هذا العام الدراسي، اصطحبا معهما حسن حافظ وأحمد باسم، وفي كل مرة تبدو نوال أكثر كرما، لكنها لم تعد تسأل نادر عن الشعر. صارت تستمع لأحاديثهم، وأدركت أنهم بشكل ما يساريون. على الأقل بشر وحسن ونادر، الذين ذهبوا المرة الماضية دون أحمد باسم. لقد سألتهم مباشرة المرة الماضية، بعد أن تحدثوا كثيرا وضحكوا أكثر عن اقتراب السادات من أمريكا وإسرائيل، هل أنتم معارضون لسياسة السادات لذلك فقط؟ فقال بشر:

ـ لأنه أيضا فتح الباب لسياسة اقتصادية يسميها الانفتاح

الاقتصادي. سياسة رأسمالية ضد كل الإنجاز الاشتراكي الذي استقر في مصر.

شردت عنهم ثم ابتسمت وهمست:

ـ شيوعيون؟

تبادلوا النظر، ثم قال حسن:

ـ تستطيعين أن تقولي ذلك. لكن الأهم لدينا أمل.

كان أحمد باسم الآن يتابع فتيات الملهى وهن يتحركن بين الزبائن في شهوة واضحة في عينيه، فجأة وقف أحد الجالسين وفي يده كأس شمبانيا وقال:

ـ إسكندرية بناها الإسكندرالمجنون. طلع أهلها مجانين زيه!

ضحك كثير من الجالسين، وصفق بعضهم له فاستمر:

ـ سيد درويش خدها معاه للقاهرة، وخد الحشيش من جبل ناعسة كمان!

ارتفعت ضحكات أكثر. أمسك بذراع المرأة الجميلة التي تجلس جواره وأوقفها وأشار إليها هاتفا:

ـ طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة.

وترك الكأس وضمها إليه يقبلها، ثم فرد ذراعيه وهتف وهو يسقط على المقعد كمن أغمى عليه:

ـ أنا هويت وانتهيت.

صفق الكثيرون، ثم راح بعض الرجال يهتفون، نوال..نوال.. نوال.. لكن ظهر التخت الشرقي يدخل أعضاؤه من خلف الستارة وراء «البست»، وبعدهم ظهرت مسرعة الراقصة «علياء» ترف مثل الفراشة بين الفرقة والرواد.

التهبت الأكف مع الموسيقى الشرقية. كانت علياء على غير العادة ترتدي بدلة رقص بيضاء الليلة، ولحمها الأبيض يلمع تحت الضوء الخافت، ولخفتها وسرعتها بدت كفراشة حقيقية. نحافتها تميزها بين راقصات الإسكندرية اللاتي هن أكثر بدانة. هي أقرب في حركتها إلى سامية جمال. وظهر المطرب الشاب الجديد في إذاعة الإسكندرية، إبراهيم أحمد، وراح يغني «يا زايد في الحلاوة عن أهل حيّنا» أغنية مطرب الإسكندرية عزت عوض الله الشهيرة التي يعشقها أهل الإسكندرية. صار أحمد باسم الآن يتابع بعينيه الراقصة علياء وهمس لبشر:

ـ لو كانت سمينة شوية.

قال بشر:

ـ طول عمرك حمار لا تعرف الجمال.

ضحك أحمد باسم ولم يعلق. سألتهم نوال:

ـ العام الماضي تعرفت عليكم بعد ليلة رأس السنة. هذه أول مرة تحضرون حفل رأس السنة في ملهى؟

قال بشر:

ـ طبعا.

وقال حسن مبتسما ابتسامته غير الكاملة:

ـ هو «رقص» السنة في الحقيقة.

ضحكوا بصوت عال. قال نادر:

ـ لو كان معنا عيسى سلماوي وسمعكم تضحكون هكذا لتضايق جدا.

ضحكوا من جديد، لكن نوال لم تضحك. انتبهت للاسم وفكرت قليلا ثم سألتهم:

ـ من هو عيسى سلماوي..؟

قال أحمد باسم ساخرا:

ـ رجل طيب. ماركسي فوق الأربعين، يحب أن ينشر الماركسية بين الطلاب. استولى على عقولهم وإن شاء الله ح يوديهم في داهية.

ابتسمت نوال ابتسامة صغيرة ولم تعلق. أغمضت عينيها لحظات، ثم قال بشر:

ـ بالمناسبة. حسن معه عشرة جنيهات. أعطوها له في مكتب رعاية الطلبة بعد أن أخذوه أسبوعا في العامرية في معسكر للتدريب على الكاراتيه. نشاط سياسي لمكتب رعاية الطلبة من أجل تكوين فرق شباب من أصحاب الفكر الإسلامي المعادي للشيوعية.

بدت نوال مرتبكة. فقال:

ـ يعني أخدوه يدربوه يضرب الشيوعيين، وأعطوا له في نهاية أسبوع التدريب عشرة جنيهات. عاد وأخبرنا وقرر أن ينفق العشر جنيهات هنا ولا يعود إليهم.

نظرت إليهم في حيرة. فاستمر بشر:

ـ كذلك نادر تم استدعاؤه إلى أمن الدولة لاستجوابه. احكِ لها يا نادر ما حدث.

لكن نادر لم يتكلم. فقال أحمد باسم:

ـ هل هذا المكان المناسب لهذا الكلام يا بشر. وتقول إني حمار؟

ضحكوا لكنها ازدادت شرودا للحظات ثم قالت:

ـ انفقوا العشرة جنيهات في مكان آخر. الليلة أيضا أنتم ضيوفي. سآخذ الحساب من نادر بعد السهرة.

شملهم الصمت والدهشة، بينما ارتبك نادر، لكنها قالت:

ـ هل تلاحظون هؤلاء السعوديين الذين يجلسون بعيدا.

كانوا ثلاثة يرتدون الزي العربي، واستمرت تتحدث:

ـ عادة يذهبون إلى القاهرة.

قال بشر:

ـ الإسكندرية يأتيها الليبيون، لكن مشاكل الأخ القذافي مع السادات عطلتهم.

ضحك أحمد باسم وقال:

ـ الحمد لله. كانوا رافعين أسعار النسوان.

ارتبك الجميع، ابتسمت نوال ابتسامة صغيرة. فقال أحمد باسم:

ـ آسف يا مدام والله. لا أعرف كيف قلت ذلك.

اتسعت ابتسامتها وقالت:

ـ لقد عرضوا عليّ شراء الملهى بمائة ألف جنيه. القانون الآن لا يسمح لهم بالشراء، لكن لهم وكلاء مصريين حتى يصدر قانون بتمليك الأجانب للعقارات والأرض، ولابد سيصدر.

قال نادر في دهشة:

ـ هذا ثمن عمارة على الكورنيش!

قالت:

ـ يريدون تحويله إلى مقهى تمنع فيه المشروبات الروحية، أو صالة أفراح.

نظر بشر إلى السعوديين الثلاثة وقال:

ـ ليس مهما أنهم يشربون الكحول، المهم أن يرفعوا لافتة ممنوع المشروبات الروحية.

قال حسن حافظ:

ـ الجمهور يناديكي يا مدام.

انتبهت إلى ذلك وضحكت. كانت علياء قد اختفت والمطرب أحمد إبراهيم وليس إلا التخت الشرقي. وقفت نوال ورفعت عن

كتفيها الشال الخفيف فأضاء جسدها وسط النور الخافت. تركت الشال على المقعد، وتقدمت إلى البست أمام الفرقة والتصفيق يدوي.

وقف أحد الرواد يهتف.

ـ تعيش أسمهان.

وبدأت نوال تغني:

أهوى. أهوى
يامين يقول لي أهوى
أسقيه بإيدي قهوة
أنا أنا أنا أهوى

* * *

«الساعة بعد الحادية عشرة. اللعنة عليكم. لماذا تلقون بالأشياء هكذا؟».

قال عيسى سلماوي ذلك لنفسه، وهو يعبر شارع دجلة القصير المؤدي إلى أتينيوس. لقد قام بجولة مجنونة انتهت بأن مرت زجاجة ألقيت من أعلى جواره، لكنها أصابت رأسه من الخلف. سقطت قبعته التي ارتداها الليلة لتفادي المطر على الأرض بعد أن اسقبلت الزجاجة. تناول القبعة، ولم ينتبه إلى الدم القليل الذي ظهر على شعره، فأسرع داخلا أتينيوس الذي على بعد خطوات.

لقد ترك الأوتوبيس من قبل في ميدان المنشية. قرر أن يمشي كثيرا في الشوارع الليلة قبل أن يصل إلى أتينيوس. لماذا فعل ذلك؟

لا يعرف بالضبط غير أنه أراد ذلك. أسرع في شارع صلاح سالم، الذي أغلقت كل محلاته، حتى وصل إلى شارع فؤاد. انحرف يسارا، حتى عبر شارع النبي دانيال. رأى سينما فؤاد على يمينه تعرض كعادتها فيلمين قديمين، الفيلم العربي (حمام الملاطيلي)، والأجنبي (غزاة الشمال The Vikings). وجبة رائعة.

الفبلم العربي ينضح بالجنس للمتفرج العادي، والمعنى الخفي للضياع الذي لا يدركه هذا المتفرج. (غزاة الشمال)، الذي عشقه قديما في الستينيات، حين شاهده في سينمات الدرجة الثانية، بعد أن عرض أول مرة وهو في المعتقل، حيث يجتمع كيرك دوجلاس وتوني كيرتس معا، كما اجتمعا فيما بعد في فيلم (سبارتاكوس) الذي شاهده أيضا في سينما درجة ثانية لنفس السبب. لابد أن زحاما كبيرا في السينما الصغيرة الليلة. أمامها سينما بلازا بدورها تعرض فيلمين أجنبيين قديمين أيضا. (البعض يفضلونها ساخنة)، حيث مارلين مونرو وتوني كيرتس وجاك ليمون، و(يرما الغانية Irma La Douce) فيلم المخرج بيلي وايلدر الجريء الساحر. يكفي أن فيه شيرلي ماكلين وجاك ليمون. ياإلهي. ما لسينمات الدرجة الثانية مبهرة الليلة رغم أن كل أفلامها رآها في سينمات الدرجة الثانية أيضا بعد خروجه من المعتقل؟ واستمر يمشي غير حافل بالمطر فالبلكونات تحميه. يتطلع إلى أفيشات الأفلام. سينما رويال لا تزال تعرض فيلم (باري ليندون). كيف فاته حقا أن يشاهد فيلما للمخرج العظيم ستانلي كوبريك؟ سيفعل ذلك فيما بعد. الذين يدخلون حفلة الساعة التاسعة لن يلحقوا بالاحتفال برأس السنة إلا في الشارع. واستمر يمشي ينظر إلى أفيشات الأفلام، وكل شيء حوله مغلق. على واجهة سينما ريو

الفيلم العربي (زائر الفجر)، لقد رآه منذ أيام. كيف فاته أن ينصح تلامذته بمشاهدته، وهو الفيلم الذي يفضح مراكز القوى في العهد الناصري. وعلى واجهة سينما أمير فيلم (بعد ظهر يوم لعين Dog Day Afternoon). هو أيضا لمخرج عظيم هو سيدني لوميت، أما ممثله فيكفي أنه آل باتشينو. يجب أن يراه أيضا.

ودخل مسرعا إلى شارع صفية زغلول، وابتسم من متابعته لأفيشات الأفلام الليلة، ولفت انتباهه أن «مطعم إيليت» صار محاطا بسور من الخشب والزجاج، فلم ينتبه إلى أفيش سينما مترو على يمينه، ومشى يفكر أن الدنيا تتغير حقا، فلم ينتبه أيضا إلى أفيش سينما ريالتو، ولا سينما الهمبرا ولا سينما ستراند فيما بعد..

لقد أدرك أنه لا يمشي ليرى أفيشات السينما، لكنه أراد أن يمشي وحده في الإسكندرية القديمة، مدينته الغالية، التي أبدع الإيطاليون أكثر من غيرهم في عمارتها. لماذا لم يسمع حقا وهو يقترب من سينما أمير أي موسيقى تنبعث من مطعم باستارودس؟ لا يمكن أن لا يكون هناك احتفال بهذه الليلة. لعله هو الذي كان مشغولا بأفكاره عن أن يسمع. أجل. لقد كان ينظر إلى واجهات العمارات، وجمال بنائها، ويتضايق من مكيفات الهواء التي زرعها مستأجروها الجدد في جدرانها. تشوهت واجهاتها. من لا يعرف تاريخ عمارة الإسكندرية لا يعرف المدينة. يحتاج أن يعيد كل ما قرأه قديما من كتب عن هذه العمارة. يحتاج أن يقرأ تاريخ المدينة من جديد. ليكن ذلك هدفه في الأيام القادمة. إن لم يستطع الدفاع عنها، فعلى الأقل يراها وكأن زمنا لم يمر عليها. وليحدث تلاميذه في الأيام

القادمة عنها، سيفتح لهم كهفا سحريا، هم الذين لن يخذلوه، حتى لو لم يصبحوا ماركسيين حقيقيين، وسيعرفون قيمة الأرض التي يقفون عليها. تنتالوس العملاق في الميثولوجيا اليونانية كان يقطع الطريق على الناس ويقتلهم، حتى واجهه هرقل. هرقل كان يعرف أن تنتالوس هو ابن «جايا» ربة الأرض. لم يقاتله. فقط هجم عليه ورفعه عن الأرض، فتناثرتنتالوس ذرات من التراب. فارقت قدماه الأرض. أصله وقوته التي يقف عليها. سيقرّب لهم المسألة. لماذا ينهزم نادي الاتحاد السكندري كثيرا إذا لعب ضد النادي الأهلي أو الزمالك في القاهرة. لأنه يفارق الأرض التي هي مصدر قوته. لا يجب أن يأتي يوم يجد المصريون أنفسهم يقفون على أرض أخرى، صحراء رمالها بدأت تزحف عليها من الجزيرة العربية.

أجل.هذه الأفكار الوهابية، التي تكتسب أرضا ولو صغيرة الآن، ستفترش الأرض المصرية كلها، وتتعمق فيها، ويصبح المصريون غرباء عن تاريخهم. هذا الحديث سهل جدا أن يكون غايته في الأيام القادمة. قليل من الوقت يعود فيه إلى الإسكندرية!!..

في النهاية وجد نفسه يمشي إلى حديقة تمثال سعد زغلول. هنا كان يجب أن ينزل من الأوتوبيس ولا يدور هذه الدورة. وقف كطفل حائر ينظر إلى التمثال، يسمع صوت المطر وهو يصطدم بالبالطو الووتربروف الذي يرتديه، وبالقبعة على رأسه. رأى أضواء فندق سيسل ظاهرة من خلف شيش نوافذه العالية، وكذلك أضواء فندق متروبوليتان. لماذا حقا لا يمضي ليلة كهذه في أي من الفندقين؟ في أتينيوس ألفة قديمة، وسأل سعد زغلول بسرعة لماذا لازلت تنظر إلى

البحر. بلادنا الآن تنظر إلى الشرق. إلى صحراء الجزيرة العربية. هل يمكن حقا أن تستدير؟ أو تترك مكانك لينسى الناس ثورة ١٩١٩.

لم يشأ أن يقف كثيرا، عاد بسرعة إلى شريط الترام، ليدخل إلى أتينيوس من شارع دجلة، فوقعت الزجاجة على رأسه. كأنها ترسل إجابة ساخرة على أسئلته وحيرته.

ما إن دخل قاعة كريزي هورس التي تقام بها السهرات، حتى توقف ينظر إلى الجالسين الذين ملئوها وسط الضوء الخافت. كيف حرم نفسه من كل هذا الدفء من أجل جولة كان يمكن أن يفعلها بالنهارفي يوم آخر؟ المهم أنه وصل إلى أتينيوس. لابد سينسى الآن حسرته. كان خريستو بعيدا، فوصل إليه بعد أن أعطى البالطو والقبعة إلى أحد الجرسونات. خريستو معه امرأه الليلة. لا يمكن أن تكون زوجته التي في اليونان. هل سيقول إنها زوجته؟ لكن خريستو قال وهو يقدمها إليه:

ـ بولا من سويسرا..

كانت رائحة البارفانات تملأ فضاء القاعة، لكن عطرها نفذ إلى روحه أكثر، وملأ الفضاء حول وجهه. انحنى عيسى كثيرا وهو يصافحها، وقبل يدها، فلاحظت الدم القليل الذي خلف رأسه ولا يدري. هتفت منزعجة:

ـ دم؟!

لم ينتبه أنها تتكلم العربية. ابتسم وجلس يقول:

ـ بسيطة. زجاجة نزلت على رأسي في هذا الشارع. حمتني القبعة.

قال خريستو:

ـ ليه خبيبي تمشي في الشوارع دلوقتي؟

ثم ربت على كتفه وهو يقول:

ـ معلش.. معلش.

لكن المرأة كانت قد سحبت عدة مناديل ورقية من علبة المناديل الكلينيكس الكبيرة على طرف المنضدة وبللتها بالنبيذ وقالت:

ـ أعطني رأسك.

قال خريستو:

ـ كحول؟ صح!

أمال عيسى رأسه وراحت بولا تجفف الدم القليل. تألم عيسى أول مرة، وراحت تغير المناديل وتبللها بالنبيذ في كل مرة، حتى لم يعد هناك أثر للدم. كان عيسى سعيدا لا يصدق ما يحدث له.

قال خريستو فجأة وبولا تمسح أصابعها بالكلينيكس بعد أن انتهت من عملها.

ـ مستر سلماوي شيوعي كبير بولا. تمام زي جاكوب الله يرحمه.

ابتسمت بولا وأدرك عيسى أنها يهودية. ولأنها تتحدث العربية فكر أنها ولدت وعاشت حياتها الأولى في بلد عربي، لكن خريستو قال له إنها مصرية، ولدت وعاشت حياتها وعاش جدودها في الإسكندرية، اعتقل زوجها جاكوب بلا سبب عام ١٩٥٧. كان في الأربعين ويعمل

في تجارة الأقمشة، وكانت في الخامسة والعشرين تمتلك محلا صغيرا لأدوات التجميل في شارع النبي دانيال، تم تعذيب زوجها مع غيره من اليهود الذين قبض عليهم بعد حرب السويس، لكنه لم يمض في المعتقل غير شهر، غادر بعده مصر كلها إلى سويسرا ومعه بولا. بولا تأتي إلى الإسكندرية لأول مرة بعد هذه السنين. نظر إليها عيسى نظرة عميقة وسألها:

ـ لماذا لم تذهبي إلى إسرائيل؟

هزت كتفها وقالت:

ـ إيه إسرائيل دي؟ أنا إسكندرانية.

ثم ضحكت وقالت:

ـ لست وحدي فعلت ذلك ولا زوجي جاكوب. كثير من اليهود فعلوه.

فجأة هتف خريستو لبولا:

ـ فين مستر سلماوي؟

اندهش عيسى جدا. قال:

ـ أنا هنا جوارك خريستو.

قال خريستو وهو يضرب جبهته بيده:

ـ غريبة! أنا فكرت نفسي قاعد لوحدي.

ضحك عيسى وبولا التي مدت كأسها قائلة:

ـ في صحتك خريستو وصحة صديقك الشيوعي..

رفع كل منهم كأسه أمام الآخر، وتلامست الكئوس. بعد أن رشفت بولا أكثر من رشفة شملهم الصمت قليلا، ثم قالت بولا:

ـ الشوق غلبني أزور الأماكن التي تربيت فيها. التي اشتغلت فيها. كل شيء تغير. حتى الدكان الخاص بي وجدته محل أحذية. طبعا بيتنا كان في الصاغة. وجدت مكانه عمارة عالية جدا. أسبوع الآن أمشي على البحر. أقعد مرة هنا ومرة في تريانون أو ديليس وخلاص. أكثر وقتي قضيته في فندق سيسيل أطل من الشباك على البحر.

ثم صمتت لحظات، إلا أنها ابتسمت وراحت تردد منتشية بصوت هادئ وهي تنظر إلى عيسى:

ـ اقروا الفاتحة لأبو العباس.. يا إسكندرية يا أجدع ناس.

ثم توقفت وسألته:

ـ أليس كذلك؟

قال هو أيضا مغنيا:

ـ اقروا الفتحة لسيدي ياقوت.. واللي يعادينا إن شاء الله يموت.

ضحكا. نظرت إلى خريستو وقالت:

ـ قل شيئا خريستو.

ارتبك. نظر حوله ثم إليها وقال:

ـ طيب. اقروا الفاتحة لأبو الدردار.. واللي يعادينا يولع نار.

ضحكوا بقوة.

كانت لوريس، المطربة الشابة التي يقول البعض إنها إيطالية، والبعض إنها سويسرية، بينما هي مصرية الأب، لكنها ورثت ملامحها الأوربية من أمها الفرنسية، قد ظهرت وتغني منذ دقائق، خلفها الفرقة الصغيرة، من شاب يعزف على الأورج اسمه سامي، وفتاة تعزف على الكمان اسمها سامية.

قال خريستو الذي انتبه للموسيقى والغناء:

ـ الليلة كلها فرنسية. صح. Sous le Ciel de Paris أغنية إيف مونتان.

قالت بولا ضاحكة:

ـ وإديث بياف.

قال عيسى:

ـ وجولييت جريكو. هل تعرفانها؟

ضحكت بولا معجبة به، وانتبهوا في صمت جليل إلى غناء لوريس وصوتها الجميل..

Sous le Ciel de Paris
S'envole une chanson Hum Hum
Elle est née d'aujourd'hui
Dans le Coeur d'un garçon.

وأخذت بولا تردد بهدوء شاردة عنهما.

تحت سماء باريس

لحن يحلق

وقد ولد اليوم

في قلب صبي

وتستكمل الأغنية بالعربية مع لوريس التي تغنيها بالفرنسية.

تحت سماء باريس

يسير العاشقون

ويبنون سعادتهم

على لحن كتب لهم

كانت دهشة عيسى من قدرتها على الحديث بالعربية الفصحى أيضا. وسكتت وأخذتهم الأغنية الهادئة، ومشهد الراقصين الذين قاموا يرقصون بهدوء، يتعانق كل اثنين منهم في وجد كأنهما يلتقيان بعد طول فراق. ما إن انتهت لوريس حتى صفق الجميع في نشوة. برافو. برافو. برافو.

لكن لوريس التي وقفت ضاحكة سعيدة تنحني لهم أكثر من مرة، أشارت إلى الشاب الذي يعزف على الأورج وقالت:

ـ نقترب الآن من الثانية عشرة. سامي سيغني لكم Sway لدين مارتن..

ارتفعت صيحات الفرح والإعجاب. تقدم سامي وأخذ منها «المايك». جلست هي مكانه على الأورج. وما إن بدأ سامي حتى عاد الكثيرون إلى الرقص مع الأغنية المشتعلة.

قال عيسى لخريستو ضاحكا:

ـ لا يمكن أن تمر ليلة كهذه حتى لو في فرنسا دون دين مارتن.

ضحكت بولا التي بدت صغيرة في عيني عيسى ولا تكف عن هز كتفيها وتردد الأغنية. خشي عيسى أن تطلب منه الرقص معها الآن، والصالة تشتعل بالأغنية وبالراقصين. قد لا يستطيع أن يجاريها. في اللحظة نفسها أمسكت بيديه، ودون كلام جذبته معها. تقدم بين الراقصين والراقصات وخريستو بدا شاردا عنهما، والمطرب سامي أيضا لا يكف عن الحركة وهو يغني.

Dance with me. Make me sway
Like a lazy ocean hugs the Shore
Hold me close. Sway me more
Like a flower bending in the breeze
Bend with me. Sway with me

* * *

ـ يا ألله. كيف تأخرت في سماع شعرك كل هذا الوقت؟

ابتسم نادر وقال:

ـ اسمعي هذه القصيدة أيضا.

« أيام الغد أمامنا مثل صف من الشموع الصغيرة الموقدة.

شموع صغيرة ذهبية حارة ومفعمة بالحياة.

الأيام الماضية تبقى في الخلف خطا حزينا من الشموع المطفأة.

أقربها مازال الدخان ينبعث منها.

شموع باردة ذائبة ومحنية لا أريد أن أراها.

فمرآها يبعث الشجن في نفسي.

ويشقيني أن أذكر نورها الأول.

فأنظر قدما إلى شموعي الموقدة.

لا أريد أن ألتفت ورائي خشية أن أراها فيتملكني الرعب».

وسكت نادر، وحط الصمت على المكان. الصالة الواسعة في شقة نوال، والوقت يقترب من الفجر. حوله لوحات فنية كثيرة معلقة على الجدران. لوحات غير أصلية لمونيه ومانيه ورينوار وفان جوخ وسلفادور دالي، ولوحات أصلية لسيف وأدهم وانلي ومحمود سعيد ومحمد ناجي وغيرهم من الفنانين المصريين، دارعليها من قبل حين دخل الشقة وعرف توقيعاتهم. ينقصه الكثير ليعرف شيئا عن الفن التشكيلي. كانت هي قد غيرت ثيابها في حجرتها، بينما هو يقف يدور يتفقد اللوحات ويتطلع إلى الأثاث الفخيم، وعادت وجلست أمامه فوقها روب مشجر بالورود ذات الألوان الجميلة.

بدت الآن متأثرة جدا من القصيدة. قال:

ـ ما سمعتيه الآن ليس شعري أنا. إنها قصائد لكفافيس.

نظرت إليه مندهشة. ثم بدا أنها شردت قليلا قبل أن تقول:

ـ سمعت يوما هذا الاسم.

سألها:

ـ هل تحبين الفن التشكيلي؟

ـ ستعرف كل شيء عني الآن، لكن بعد أن أسمع شعرك أنت. لماذا لا تغير ملابسك؟

ملأ كأسه بالنبيذ الموضوع أمامه، ثم أغمض عينيه، وقرر أن يتلو شعره. اليوم سيعرف عنها ما كان يتشوق لمعرفته. إذن فليلبي رغبتها ليفتح لها الطريق.

«ما الذي يحدث إذا تراجع البحر

ستظهر مدن لا نعرفها بينها نساء ممشوقات القوام

يرقصن على أنغام الجيتار

ثم تعود المياه لتغمر كل شيء

تختفي المدن والنساء

وتبقى الدهشة معلقة في فضاء المدينة».

ـ انتظر.

قالت ذلك ووقفت، ثم اتجهت إلى جهاز بيك أب بعيد في ركن من الصالة، ووضعت فيه أسطوانة موسيقية لموتسارت، وعادت والموسيقى ترتفع خلفها. جلست أمامه مركزة عينيها عليه كطفل جميل.

«المرأة التي زارتني في الحلم

صحوت فوجدتها مكاني

هتفت لي

ما الذي يجعلك تزورني كل ليلة.

ولماذا إذا أصبح الصباح لا أجدك معي؟».

شملهما الصمت من جديد. بدا مترددا. لكن هذه امرأة أخرى غير يارا، لم يحبها بعد وإن كان يرتاح إليها. وهي إن كانت تحبه، فربما يذكّرها بشيء ضاع. سيعرف كل شيء الليلة. فليتشجع ويضع الأمور في مكانها، ليرى ماذا يمكن أن يحدث. أغمض عينيه لحظة ثم عاد يتلو شعره.

«هي يارا وليست امرأة أخرى

لا أراها إلا تجمع الفراشات

هي يارا وليست امرأة أخرى

تجمع خيوط الدانتيلا

تصنع بها رداء

يحملها ويطير بها إلى السماء»

وقبل أن تتكلم نوال التي بدت راغبة في ذلك استمر:

«هي يارا وليست امرأة أخرى

تسألني ما الوطن..

ولماذا يبدو أبي

غير متوافق مع المجتمع؟

ولماذا يبحث هو وأمي

عن الأشياء القديمة،

الأفلام القديمة. الأثاث القديم. الأغاني القديمة؟

هل يمكن أن يقف الإنسان عند زمن لا يبارحه؟

هل إذا طال العمر لم يعد لنا وطن؟

هل هو الذي يخوننا حقا كما يقول أبي؟

وتصدق أمي على الكلام، وهي تقدم له القهوة في فنجان قديم

تحتفظ به منذ عشرات السنين».

سكت وأغمض عينيه يفكر كيف أسعفته الذاكرة بهذا الشعر، وهو لا يحفظ ما يكتبه بسهولة. نوال وموسيقى موتسارت هما السبب. نوال وحدها ودفء المكان ووداعة روحها.

كانت رموشها ترف متتابعة لتحجب دمعة تترقرق وتتمايل للخروج. أراد أن ينتقل بها إلى ما يريد. قال:

ـ وعدتيني أن تقولي كيف أحببتِ الفن التشكيلي.

ـ حكاية طويلة يا نادر.

عرف أن زوجها كان أحد الشيوعين الكبار في الإسكندرية. كان

اسمه نادر نعيم. واهتز حين سمع أن اسمه نادر، وأكملت أنها التقت به مع غيره من الشيوعيين لأنها أحبت طبيبا أخذها إليهم لتغني. كانت ممرضة وتغني طوال الوقت في العمل، وحتى أثناء العمليات الجراحية كان هناك طبيب يطلب منها أن تغني أحيانا. قالت ذلك وهي تضحك. لم تعرف أن حبيبها أحمد شيوعي، إلا بعد أن ذهبت معه إلى نادر نعيم ومن معه أكثر من مرة. كان نادر رجلا وسيما في حوالي الخمسين. في شقته بميدان سانت كاترين كانت كل هذه التحف، وكل هذا الأثاث. قبض عليهم جميعا ليلة رأس السنة نهاية عام ١٩٥٨، بعد أن غنت بينهم وأبدعت. تم ترحيلهم إلى معتقل الواحات ليقضوا هناك سنوات الاعتقال. أما هي فقد قبض عليها، وحبست في مبنى أمن الدولة في شارع الفراعنة. أيام طويلة حبست هناك تحت الأرض. أخرجها أبوها بقصة غريبة. وصارت تضحك وهي تحكي وتدمع عيناها من الضحك البهيج. أرسل أبوها خطابا لجمال عبد الناصر يشكو فيه القبض على ابنته. كان هذا الخطاب سبب الإفراج عنها. لقد وعدها نادر نعيم من قبل أن يجد لها طريقا للغناء في إذاعة الإسكندرية، لكنه لم يفلح، وبالطبع لم تفلح هي أن تجد الفرصة بعد ذلك، لا في الإسكندرية ولا القاهرة.

إنها في الأصل من بيت فقير في مساكن السكة الحديد، التي تقع على ترعة المحمودية بين كرموز وكفر عشري. لأبيها «حمزة». حكايات عجيبة أخرى، إذ تم خطفه من قبل الجنود الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت طفلة ذلك الوقت.

بعد ليلة رأس السنة التي لا تنسى، وماجرى لها، استمرت في

عملها في التمريض في رعب أكثر من خمس سنوات، حتى خرج المعتقلون الشيوعيون. لم يعد إليها أحمد. الذي بحث عنها كان نادر نعيم، الذي بدا قد هرم كثيرا. أخبرها أن أحمد غادر البلاد إلى فرنسا ولن يعود، وعرض عليها أن تتزوجه. إنه وحيد ولا يعرف لمن يعطي الشقة ولا أثاثها ولا تحفها. سيغادر مصر إلى الاتحاد السوفييتي، وليس أحق منها بما يملكه.

كان عرضا غريبا، امتزج بالحزن لفراقها لأحمد إلى الأبد. عاشت عاما مع نادر نعيم. كتب لها كل شيء. باعت الشقة واشترت بها الملهى الليلي لتغني. وقالت في شيء من الحيرة، فقط لأغني، فقط لأفعل ما حرمني منه جهاز أمن الدولة، رغم أني أغني لسكارى ضائعين. هل عرفت الآن لماذا أحببتكم؟ ربما تعرف أكثر فيما بعد أيضا.

بدت حزينة، وبدا مندهشا ومذهولا، لكنها وقفت بسرعة واتجهت إلى مكتبة بعيدة بها الكثير من الكتب التي فكر أنها لابد تخص زوجها الذي سافر. فتحت درجا وعادت بكراس قديم. نظر إليه مندهشا. قالت له:

ـ هذا كراس قديم جدا كما ترى لشاعر اسمه عصمت مفتاح.

بدا مرتبكا فقالت:

ـ لا تعرفه. كان مع من قبض عليهم. سمعت شعره لأول مرة في شقة نادر نعيم. قتل تحت التعذيب في المعتقل.

ـ كيف حصلت عليه؟

ـ كان يهرّب قصائده عن طريق أخت عيسى سلماوي، التي كانت تزورهم في الواحات بعد أن سمحوا لهم بالزيارة.

قال في دهشة كبيرة:

ـ عيسى سلماوي كان معهم؟

ـ أجل. وأعرفه. سمحوا بزيارة الأهل في العامين الأخيرين. عرفت ذلك فيما بعد. كان عصمت يكتب شعره على ورق البافرة، وعيسى يعطيه لأخته، وهي التي كتبت كل هذا الشعر. هذا خطها. لقد أعطى عيسى الكراس لزوجي نادر نعيم بعد خروجهما من المعتقل، ولقد تركه لي. أظن أنه قد آن أوان نشره. ما رأيك؟

تناول منها الكراس دون كلام. فتحه وراح يقرأ دون صوت:

« إن ديلاكروا الذي انتهى للتو

من رسم الحرية وهي تقود الشعب

قد خرج يجري في الحدائق

فرأى المرأة التي انتهت لتوها

من صنع الثورة

بكى بين يديها أن تنتظر

فالحرية الحقة لم يرسمها بعد

من أنت أيتها المرأة اللغز

قالت أنا التي اعتصر جويا حليبي

وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام

ويجري في الشوارع مع الثيران

الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق

ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان

هيا نصلي جميعا وراء جويا.

هيا نصلي جميعا وراء جويا».

توقف نادر وبدا شديد الشرود. أغلق الكراس وتأملها لحظات ثم قال:

ـ أنت سيدة جميلة جدا.

أجهشت بالبكاء. ارتمت في حضنه وقالت:

ـ أرجوك لا تتعلق بي. أنا حكاية عابرة مثل كل من عرفت. يوما ما سأترك مصر. هذه حكاية أخرى سأحدثك عنها يوما. المهم أن ننشر هذا الشعر.

راح يمسح دمعها بيده، ووجد نفسه يقبلها على خديها.بدت له مستسلمة تماما، فوجد نفسه يقبلها في فمها، وهي راحت تضمه إلى صدرها بقوة كمن تريد أن تدخله في قلبها. أراد أن يقف بها فقالت:

ـ لا. خليك في حضني.

لكنه لم يستطع. أوقفها وحملها ودخل بها إلى غرفتها.

فوق السرير بدت متعطشة له منذ زمن طويل. وبينما هما عاريان انتهيا من كل شيء قال من جديد:

ـ لماذا تأخرت في دعوتي إلى هنا؟

ابتسمت وقالت:

ـ أنت شيوعي رومانسي يا نادر. تماما كأصحابك. الليلة يتم القبض على الشيوعيين دائما عند الفجر. هذا تراث ثورة يوليو. انظر إلى الضوء الذي بدأ يتسلل إلى الدنيا. لابد قد انتهى البوليس منذ قليل من القبض على الشيوعيين.

راح ينظر إليها غير مصدق فاستطردت:

ـ أردت أن أفوّت عليهم الفرصة الليلة إذا كنت مستهدفا منهم، خاصة إني عرفت منكم أنه تم استدعاؤك في أمن الدولة للاستجواب.

شرد لحظات مندهشا وقال:

ـ لكن يمكن أن يحدث ذلك غدا.

قالت:

ـ تكون قد فزت بيوم جميل.

ومالت تضع رأسها على صدره، بينما قد تحقق ما قالته فعلا، وكان ممن حملتهم عربات الترحيلات الليلة إلى السجون بشر زهران بعد أن وصل إلى بيته قبل الفجر.

- ٤ -

بعد يومين من اعتقال بشر، قرر نادر وحسن وكاريمان أن لا يلتقوا، لا في الكلية ولا خارجها. أن يتغيبوا الأيام الباقية حتى بداية الإجازة. كانت يارا غائبة ذلك اليوم، فقرر نادر أن لا يتصل بها، ومؤكد ستصل إلى حقيقة إنه يخاف عليها من الظهور معه الآن في أي مكان. سافر حسن إلى المنصورة، وبقى نادر في بيته في المكس. كانت فكرة كل منهما، أنه إذا تم القبض عليهما، يتم من بيتيهما، فيعرف أهلهما من البداية. ترددت كاريمان أكثر من مرة على الكلية، لأنها لم تجد فرقا بين أن يتم القبض عليها من البيت، أو من الكلية، ففي الحالتين لن يبحث عنها أحد، وفي الحالتين سيطلّق زوج أمها أمها!

تغيبت يارا عن الحضور إلى الكلية عدة أيام، بسبب آلام الدورة الشهرية. حين ذهبت كانت الأيام الأخيرة قبل الإجازة، والكلية شبه خالية من الطلاب والأساتذة. كانت قد عرفت نبأ القبض على بشر من الصحف، إذ رأت خبر القبض على شيوعيين وأسمائهم، لكنها لا تجد وسيلة للاتصال بنادر الذي ليس في بيته تلفون. وحين اتصلت

بكاريمان، رد زوج أمها وسألها عن اسمها وماذا تريد، فأغلقت السماعة في قرف. تمنت لو زارتها كاريمان في البيت، لكن كاريمان لم تفعل، فأدركت أن زوج أمها لم يخبرها بالمكالمة، وازداد قرفها منه.

الأيام تمر على نادر، يقاوم فيها رغبة أن يتصل بيارا ليراها. وزيادة في الحيطة لم يذهب إلى نوال في الملهى، رغم حاجته الشديدة أن يراها، هي التي صحبته إلى بيتها لتمر ليلة الميلاد بسلام.

اليوم هو الخامس عشر من يناير، عام ١٩٧٦. وفيه يكون قد مضى أسبوعان على اعتقال بشر، وفيه تبدأ إجازة نصف العام الدراسي.

ذهب نادر إلى مقهى خفاجي، وقابل عيسى سلماوي في الصباح. رآه على غير العادة يبدو سعيدا، ويدخن الشيشة. قال له إنه لا يقابل أحدا من الأصدقاء، فبدا عيسى راضيا ومبسوطا، وقال له مؤكدا بدوره أن لا يحاول مقابلة يارا أو نوال أو كاريمان هذه الأيام..

كانت دهشة نادر من القبض على بشر وحده، وتركه هو وحسن وكاريمان، وهم القاسم الأكبر في كتابة مجلات الحائط. قال عيسى سلماوي:

ـ عرفت من الصحف أن الذين تم اعتقالهم من سائر البلاد، تفرقوا بين سجني طرة والقناطر. العدد قليل هذه المرة. من الحزب الشيوعي المصري وحزب العمال الشيوعي فقط.

اندهش نادر ثم قال:

ـ رأيت اسم بشر بين أعضاء حزب العمال الشيوعي، ولا أحد فينا في أي حزب سري.

هز عيسى رأسه باستخفاف وقال:

ـ هذه خيبة أمن الدولة في مصر. يقبض على الأبرياء فيلتقون في السجن مع أعضاء حقيقيين في الأحزاب الشيوعية، فينضمون بعد الخروج من السجن إليهم. ولو كانوا كلهم أبرياء يخرجون لكي يؤسسون حزبا سريا جديدا.

بدا نادر قلقا جدا. فقال عيسى:

ـ القانون يحتم أن يتم عرض المعتقلين على المحكمة خلال شهر. مضى أسبوعان الآن. لا تقلق. سيتم الإفراج عنهم. يقول رجال أمن الدولة إنهم عثروا معهم على منشورات، غالبا يدسها لهم جهاز أمن الدولة في تحقيقات النيابة، حتى إذا سجلوا للأعضاء الحقيقيين من الأحزاب السرية أحاديث ولقاءات، فالمحامون يعترضون عليها بسهولة، لأنها تتم دون إذن النيابة، وغالبا يجري عليها مونتاج يحذف ما ليس سياسة منها، وهذا أيضا يتم اكتشافه بسهولة.

ثم ضحك عيسى واستطرد:

ـ غريب جدا أنور السادات هذا. يعطي المتهمين حقوقهم القانونية، ويترك جهاز أمن الدولة يلفق لهم القضايا. سيأتي يوم على هذا الوطن يندم حكامه على ما يفعلونه بالقوى اليسارية الآن.

ران عليهما الصمت، ولا يزال القلق على وجه نادر، الذي كان في الحقيقة مشتاقا للغاية ليارا، ويجاهد أن يمنع نفسه من الاتصال بها. وقف تاركا عيسى، مقررا الذهاب إلى محطة الرمل ليأخذ جولة على باعة الكتب، فقال عيسى:

ـ لا تنس ما قلته لك. لا تتصل بأحد وبالذات يارا. لا أحد يضمن هذا النظام التافه.

أخذ نادر الأوتوبيس يفكر، لماذا خص عيسى يارا وحدها بالكلام هذه المرة. ومن سنترال محطة الرمل وجد نفسه يطلبها بالتلفون. لدهشته كانت هي التي ردت عليه. كان يتمنى أن يكون أبوها أو أمها ليغلق السماعة، ويقول لها فيما بعد أنه حاول أن يهاتفها مرة. لكن السعادة شملته، وحلقت روحه عاليا، حتى أنه لم يستطع الكلام إلا بعد لحظات تمالك فيها أنفاسه. فليقابل يارا وليكن ما يكون. يارا التي خلقها الله بنفسه، لن يصل إليها شياطين الإنس أبدا أبدا.

* * *

لم تطل جلسة عيسى بمقهى خفاجي. غادرها بعد أن تركه نادر بقليل. وقف يدفع الحساب فرأى المعرض الفني لا يزال في مكانه. كيف فاته حقا أن يطلب من نادر الطواف على لوحات فناني الإسكندرية. كيف أيضا لم يفطن نادر إلى المعرض حولهما؟

أدرك عمق الهم الذي في روح نادر، لكنه لم يغفر لنفسه، أنه أيضا لم يتنبه إلى أهمية أن يشاهد نادر المعرض. قرر أن يصعد إلى شقته القريبة ليتابع القراءة في تاريخ عمارة الإسكندرية لتكون دروسا لمريديه كما قرر من قبل، إلا أنه أحس بالرغبة أن يرى فيلم «باري ليندون» في سينما رويال. لقد رأى أفيشه ليلة رأس السنة، وسأل نفسه لماذا حقا فاته مشاهدته حتى الآن. فلتكن حفلة الساعة الثالثة، ليعود بعدها يتابع قراءاته القديمة في الحقيقة، التي يريد إحياءها. لكنه ضحك كثيرا في

المساء حين أدرك أنه لم يشاهد الفيلم اليوم أيضا. لقد وجد نفسه في الشارع الخلفي للسينما، السينما التي لا يخطئ أحد الطريق إليها من شارع فؤاد. دخل الشارع الذي يسبق شارعها، ليجد نفسه يقف وينظر يساره إلى الباب الصغير شبه المفتوح، ويسمع ضحكا في الداخل. رفع رأسه إلى اللافتة أعلى المحل فوجد مكانها خاليا، كما هو منذ زمن طويل. إنه يقف أمام بار «الجبان»، الذي أخذه إليه خريستو مرات منذ سنوات، ولم يأت ذكره في أحاديثه مرة أخرى. لماذا حقا حدث ذلك؟ تذكر أنه سأل نفسه هذا السؤال من قبل، ولم يسأل خريستو، وأجاب نفسه لعل صاحبه قد غادر الإسكندرية. اليوناني الطويل ذو الوجه الأحمر المرفوع على رقبة عالية، والذي يضع على صدره «مريلة» بيضاء طويلة تكاد تصل إلى قدمه. هل يفعلها القدرهذه المرة أيضا ويجد خريستو هنا؟

ما إن عبر البار داخلا حتى هاله صغر المكان. كيف لم يدرك ذلك من قبل حقا؟ الجالسون ستة أشخاص. كانوا في كل مرة ذهب فيها من قبل ستة أو سبعة. إذن المكان على حاله. لم ينكمش ولم يتسع. الجالسون فقراء كما هم. صاحب البار خلف النصبة الرخامية التي عليها كئوس قليلة، وزجاجات قليلة من الويسكي والنبيذ والبراندي، لكن خلفه كما كان الحال، رفوف فوقها الزجاجات المغلقة تصل إلى السقف. الرجل لم يترك الإسكندرية وسيبقى فيها طويلا حتى تنفد كل هذه الزجاجات!! قال لنفسه ذلك وهو يبتسم.

ـ أهلا. أهلا خبيبي.

سمع صاحب البار، ماتياكس الذي يتذكر اسمه الآن، ورآه يبتسم. إذن هو يذكره.

جلس إلى منضدة خالية، فخرج ماتياكس من خلف النصبة، يحمل زجاجة براندي صغيرة وكأسا، ووضعها أمامه. فتح الزجاجة بالفتاحة في يده، وتركها لم يصبّ شيئا. كما هو لم يتغير. زبائنه هم الذين يفعلون ذلك. صبّ عيسى لنفسه كأسا. عاد متياكس إلى النصبة، وتناول من خلفها، من أرفف في أسفلها لا يراها أحد، طبقا من السلاطة اليونانية، وطبقا من البساريا المقلية، وطبقا من البطاطس المهروسة بالبقدونس، وعاد ووضعها جميعا أمام عيسى الذي لم يطلب ذلك. هو على حاله لم يتغير ماتياكس. قال:

ـ حاجة تانية خبيبي.؟

ـ شكرا خواجة.

أجاب عيسى، وراح ينظر إلى وجوه الجالسين سعداء. وكما توقع دخل شاب صغير من الباب، ووقف لحظة حائرا، فهتف ماتياكس:

ـ بره خبيبي مفيش خمرة خلاص.

ازداد ارتباك الشاب، الذي بدا فقيرا أيضا، رغم بنطلونه الشارلستون، وشعره المنسدل، وسوالفه الطويلة. قال:

ـ أنا عمري اتنين وعشرين سنة خواجة.

ـ فين البطاقة الشخصية؟

كان الجالسون الستة، المتفرقون على مقاعد قريبة، يضحكون، وكان عيسى يبتسم. أخرج الشاب من الجيب الخلفي للبنطلون محفظة، أخرج منها بطاقته الشخصية، وقدمها لماتياكس الذي نظر إليها وقال:

ـ مواليد ستة وخمسين خبيبي يعني عشرين سنة. مش ممكن.. «برّه».

وقدم البطاقة للشاب، الذي أخذها في غيظ، والتفت ليخرج. ما إن مدّ يده يفتح الباب، حتى هتف ماتياكس:

ـ استنى.

وخرج ماتياكس من خلف النصبة، ثم فتح الباب ينظر في الشارع يمينا ويسارا، والجالسون يضحكون. يعرفون إنه سيسمح للشاب بالجلوس، رغم إنه لم يصل إلى الواحدة والعشرين، السن القانوني لتعاطي الخمور. هو فقط يبدو دائما جبانا، لذلك ذاعت شهرته بالجبان، وأصبح البار بار الجبان.

ـ خلاص. أقف هنا. مش تقعد في كرسي.

وأشار إلى النصبة. فوقف الشاب. صب له ماتياكس كأس «روم»، والشاب ينظر إليه في دهشة:

ـ أنا عاوز بيرة..

ـ لا لا. بيرة كتير. روم. كأس واخد. يالا بسرعة اشرب. أنا مش ناقص.

تناول الشاب الكأس في ارتباك، وبدا يرشف على مهل. قال ماتياكس:

ـ خلاص خبيبي إسكندرية مش فيه يونانين. مش فيه أجانب. مش فيه قنصلية تحمي الناس زي زمان.

ثم نظر إلى الجالسين وقال:

ـ إيه واخد وعشرين سنة دي، مش فاهم! ظلم كبير!

ضجوا جميعا بالضحك، وابتسم عيسى. قال أحد الجالسين:

ـ المشكلة يا خواجة إن الرئيس المؤمن قال دولة إسلامية، رغم إنه يشرب خمرة والكل عارف.

قال الجبان:

ـ مش تكلم عن السادات من فضلك. كمان سادات مش يشرب خمرة.

خشيش ممكن.

ضحك الجميع. ضحك عيسى سلماوي بقوة. شكر الظروف التي وضعته أمام البار اليوم. كيف حقا انقطع عنه، وفيه روح الشعب الحقيقية!

قال شخص آخر:

ـ البلد كلها تدخن الحشيش. مصر طول عمرها تحب الحشيش. هو الاستعمار السبب في الخمر.

ضحك الجالسون أكثر. وانتبه عيسى للكلام العجيب. هل عرفت مصر الحشيش قبل الخمر حقا؟ لا طبعا. الخمر يعرفها المصريون منذ الفراعنة. ليس هنا المكان المناسب ليشرح لهم ذلك. فليتفرج ويسعد ويندهش. سيقضي وقتا مصريا حقيقيا.

عاد الأول يقول:

ـ سمعت أن الحكومة استوردت خمرة دون كحول، صنعتها

المصانع الأوربية خصيصا للسعودية ودول الخليج. الحكومة المصرية أحبت أن لا تكون أقل منهم.

ضحكوا. كان الشاب قد انتهى من كأس الروم. طلب كأسا آخر. قال له متياكس:

ـ خلاص خبيبي. كأس واخد بس. يالا. هات ربع جنيه.

دفع الشاب الربع جنيه وخرج في ضيق، إلا أنه عند الباب ابتسم وهز رأسه قبل أن يختفي. خرج الجبان خلفه، وطل من الباب ينظر يمينا ويسارا في الشارع، ليعود يقول بينما هم يضحكون:

ـ إيه خمرة من غير كحول دي. مش ممكن؟

قال الرجل الثاني:

ـ مادام صنعوا خمرة دون كحول، إذن سيصنعون لحما دون كوليسترول. ولبنا دون دهون وخبزا خاليا من النشويات.

ظلوا ينظرون إليه مندهشين أكثر فقال:

ـ وحتى يعصموا الناس من الفتنة، سيصنعون نسوان دون أعضاء جنسية.

لم يعد أحد يسيطر على نفسه من الضحك، حتى عيسى سلماوي انفجر ضاحكا، بينما اتسعت دهشة وابتسامة «الجبان».

ما إن خف الضحك حتى قال وهو يصفق:

ـ خلاص. خلاص. حاقفل البار. راحة لغاية تسعة بالليل. يالا امشوا..

وصفق بيديه مرة أخرى، وبدا جادا بحق. تبادلوا النظرات. بدا إنهم لا يثورون على «الجبان» أبدا. راح يجمع الكاسات الفارغة والممتلئة، والزجاجات الفارغة والتي لم تفتح بعد، من أمام الجميع، الذين بدورهم أخرجوا من جيوبهم نقودا ليعطوه منها، لكن دخل من الباب رجل يرتدي بالطو أصفر ووتربروف، وفوقه كوفية سوداء. بدا من هيأته أنه مخبر ففي يده خيزرانة قصيرة. قال الجبان فجأة:

ـ خلاص مش تمشوا. مافيش راخة ولا خاجة. تشرب إيه خبيبي؟

قال المخبر:

ـ أنت عارف.

وضع الجبان بسرعة على نصبة البار الرخامية كأسا من النبيذ وقال له:

ـ اقعد هنا قدامي خبيبي علشان في سمك بربون خلو خالص. اشرب نبيذ يدفيك على خسابي كمان.

راحوا يبتسمون ويضحكون بلا صوت. وجد عيسى في هذه اللحظة نهاية لجلسته، التي لم يشأ أن «يزفرها» بوجود المخبر. ترك البار..

كان النهار قد بدأ يتسرب من الفضاء، والليل يتسلل قادما على مهل، ومشى عيسى إلى حيث كان يقصد من قبل. وقف أمام سينما رويال، التي لم يخرج منها جمهور حفلة الثالثة بعد، ولم يظهر جمهور حفلة السادسة والنصف بعد عند الباب. كم يحب هذه المنطقة. مسرح محمد علي، ومتحف كفافيس، والبطريكية اليونانية وجرسها الضخم الرابض على الأرض بلا عمل. من حقا وضع هذا الجرس

هنا ولماذا؟ سؤال لم يعرف إجابته أبدا. في الخلف أيضا، مطعم «شي جابي»، ومحلات الجلود الثمينة في كل مكان، وفي الشوارع الصغيرة المحيطة مقاه قليلة، روادها على وجوههم راحة ورضى. هنا تحتفظ هذه المنطقة، هذا المربع الصغير بين شارعي صفية زغلول والنبي دانيال، وشارعي فؤاد والسلطان حسين، بنسيم الخريف في كل فصول السنة، رغم أن المطر يسقط فوقها كما يسقط على بقية المدينة في الشتاء، والشمس تقف فوقها كما تقف فوق المدينة في الصيف.

نظر إلى واجهة السينما فلم يجد أي صور لرايان أونيل. لقد تم رفع الفيلم. أغمض عينيه لحظة، شعر بشيء من الأسف، لكن لم يشعر بالندم. لقد ضحك اليوم كما لم يضحك من زمان!

أمامه الآن صور فيلم «فتاة مرحة Funny lady» لباربارا سترايساند وعمر الشريف. يالجمال الأفلام الأجنبية التي تعرض في مصر هذه الأيام. هذا الفيلم يحتاج إلى يوم يفرغ له فيه وحده. يكفي إنه سيستمتع بباربارا سترايساند، ونجم الشرق الذي سطع في الغرب. ليذهب الآن إلى أتينيوس، خاصة أنه لم يأكل مما قدمه إليه «الجبان» شيئا، ولم يشرب غير كأسين اثنتين، ويطل في أتينيوس على ما تبقى من الطبقة الوسطى، التي ستدهسها الطبقة الطفيلية لرجال المال الجدد، في عصر الانفتاح الذي دشنه الزعيم المؤمن!

* * *

قال وهو يمسك بيديها يقبلهما، وهما يجلسان متجاورين على طرف السرير:

ـ سامحيني. كل يوم مرّ عليّ كأنه ألف يوم. كنت حريصا أن لا أتصل بك. كنت خائفا عليك، لكن لم أستطع الانتظار.

قالت وهي تجذب رأسه إلى صدرها.

ـ مضى أسبوعان الآن تقريبا على اعتقال بشر. لا تقلق. لو كانوا يريدون اعتقالك ما تأخروا، ثم إنني لأجل خاطرك مستعدة لأي شيء.

ـ أحبك يا يارا. لا أتخيل الدنيا بعيدا عنك.

راحت تربت على ظهره وتشعر به طفلا حقيقيا. قالت:

ـ أنت جميل جدا يا نادر. أنا غير خائفة والله. أنا كنت في قلق شديد عليك. ليس في بيتكم تلفون لأكلمك وأطمئن عليك. لماذا لا تدخلون التلفون للبيت؟

ابتسم وقال:

ـ سنتقدم لمصلحة التلفونات. أمر سهل. لكن التلفون سيدخل إلى البيت بعد عشر سنوات.

ضحكت. سكتت لحظة وقالت:

ـ اسمع. اسمع. حكاية غريبة حصلت معي ليلة رأس السنة.

وحكت له حكاية الرجل الذي أعطاها المنشور الذي يحض على الحجاب، ويدعو إلى منع الاحتفال برأس السنة الميلادية. نظر إليها مندهشا لحظات، قال بعدها.

ـ هل هم منظمون إلى هذه الدرجة؟ من الذي يسمح لهم بهذا غير النظام الحاكم؟!

قالت:

ـ خفت جدا تلك الليلة. خفت أن يأتي إليّ كل ليلة بعد ذلك. لكن الحمد لله لم يأت. أمضيت الليل مع الموسيقى وأقرأ في قصائدك. أنا حفظتها كلها. تحب تسمعها؟!

ابتسم نادر واقترب بشفتيه منها. قبلها على خدها. همس لها:

ـ أعرفها كلها. أنا الشاعر. هل نسيتِ؟

ضحكت. ثم أسلمت له شفتيها يقبلهما. مضت ساعة يسبحان فيها في برزخ من المتعة، يداه تمشيان على جسدها كله، كأن بهما الرغبة أن تتركا أثرهما على كل مكان فيه إذ تنغرزان، وهي تشعر بنفسها تتراجع إلى بعيد حيث لا شيء حولها، ولا تعرف إلى أين تعود! كذلك فعلت شفتاه برفق المتبتل الذي يشعر بأنه لا شيء في العالم إلا يارا، ولن يعود إلى شيء آخر أيضا، وتمدد في روحه إحساس بالفناء، حيث ينتهي الشعور بالجسد، ويصبح الإنسان روحا كاملة، تفنى في الروح الإلهية. هل يحدثها عن ذلك الآن؟ ترك نفسه للفناء أكثر يغرف فيه من النعم الإلهية التي أسكنها الله جسد يارا البلوري، الذي كأنه مهد للسجود والعبادة.

حين انتهى واستلقى على ظهره جوارها على السرير الضيق، بدت هي ساكنة، كأنها لم تعد بعد من البرزخ. رأى عينيها مغلقتين.

قال في حيرة:

ـ يارا..

لم ترد. كرر النداء مرتبكا ولم ترد أيضا. في المرة الثالثة فتحت عينيها وابتسمت ابتسامة صغيرة. قالت كطفلة:

ـ نعم.

ـ أين ذهبت؟

ـ مش عارفة.

ثم ابتسمت وقالت:

ـ ألم تشعر بشيء؟

لم يرد. ابتسم. قالت:

ـ أنا أغمى عليّ. والله أغمى عليّ.

ضحك. وضحكت. واحتضنها وراح يقبلها ضاحكا قبلات سريعة، ويرتفع ضحكها، وقرصته في صدره، فأحس بغيرة شديدة، وضحك بقوة. تذكرت إنه يصبح شديد الحساسية بعد أن ينتهي من الجنس. أدركت ذلك المرة السابقة، فاستمرت تقرصه بسرعة في أكثر من مكان، وهو غير قادر على التماسك، يضحك ويحاول إبعاد يديها عنه، حتى نجح في ذلك، وألقى بنفسه عليها مرة ثانية يقبلها فهدأت. قالت:

ـ يكفي هذا اليوم.

أخذها في حضنه بعد أن اعتدل على جانبه. قالت فجأة:

ـ لم تحدثني كيف أمضيت ليلة رأس السنة في نوال بوط؟

نظر إليها وقال بهدوء:

ـ نسيت.. لا أذكر مما مضى أي شيء. ليس لي في الدنيا غير يارا..

واحتضنها من جديد لدقائق، لا يفعلان شيئا إلا أن يظل كلاهما في حضن الآخر، ثم وضعت يديها على كتفه، وقالت:

ـ لقد تأخرت. يجب أن أعود الآن.

ـ الساعة لم تصل إلى العاشرة بعد.

ـ العاشرة أكون في البيت. قلت لهم سأقابل كاريمان وأعود.

فكر قليلا وقال:

ـ ليتك قلت لهم إنك ستقضين الليلة عند كاريمان.

نظرت إليه مندهشة. تألقت عيناها. قالت:

ـ تصور! فكرة. ربما أفعل ذلك المرة القادمة.

أخذها في حضنه من جديد يقبلها، وبعد عدة قبلات على شفتيها قالت:

ـ دعني أكون صادقة معهم حتى أخرج مرة أخرى.

ضحك وضحكت. قال:

ـ طيب هل آتي معك حتى محطة الرمل. الدنيا شتاء والشوارع خالية. أخاف عليك.

ـ لا تقلق. الترام قريب.

بعد أن ارتدت ثيابها ووقفت تودعه عند باب الشقة، قالت بعد أن قبلته بسرعة:

ـ ماذا ستفعل وحدك هنا الليلة؟

قال في ثقة:

ـ سأكتب شعرا.

قبلته قبلة أخرى وخرجت. وقف هو لحظات حتى غادرت السلم. أغلق الباب. أراد أن يطل عليها بسرعة من البلكونة، لكنه وقف ينظر إلى كل شيء في الشقة حوله. أين كان من قبل حقا؟ كيف صاركل شيء حوله الآن كأنه يراه لأول مرة؟ قفز في الهواء سعيدا لا يصدق.

* * *

بين عدد من المعتقلين وقف بشر زهران وفي عينيه جسارة وتحد. الحاضرون للمحكمة كثيرون. بعضهم يقترب من القضبان يصافح المعتقلين، وأكثرهم على وجوههم قلق. المحامون في الصف الأول بأروابهم السوداء، يتحدثون ويضحكون. أول مرة يرى بشر المحامين ذائعي السيط في قضايا الشيوعيين: نبيل الهلالي، وعبد الله الزغبي، وزكي مراد، والذين أيضا تتكرر أسماؤهم كمتهمين في كثير من القضايا، وخاصة الهلالي وزكي مراد. كلهم متطوعون للدفاع عن المتهمين. كلهم من اليساريين في الحقيقة. حولهم عدد قليل من المحامين الشباب كان أحدهم قد حضر معه أمام النيابة.

لا أحد من أهل بشر في القاعة. زاره أبوه مرة في السجن، لم يخبره

بشر بموعد جلسة المحكمة حتى لا يأتي من الإسكندرية مرة أخرى. لكن صوت كاريمان يملأ القاعة فجأة مناديا يا بشر. يا بشر. نظر ناحية باب الدخول الواسع لقاعة المحكمة الذي يأتي منه الصوت، فرأى كاريمان مقبلة في فرح تلوح له بذراعيها. صارت الدهشة معلقة في عينيه. لا يصدق. لكنها كاريمان. شعرها الأصفر، عيناها الخضروان، وجهها الأبيض، البالطو الأزرق، الذي كثيرا ما ترتديه في الشتاء. هي كاريمان وليس غيرها وإلا ما انطلق الفرح في روحه وملأ فضاء الصالة، حتى لكأنه رأى الجميع سعداء يستبشرون..

كانت وهي تقترب منه مسرعة يكاد يرتفع عن الأرض ليتلقاها في حضنه، لكن القضبان الحديدية الصماء أمامه.

ـ لا أصدق نفسي.

قال وقد أخرج يديه معا من بين القضبان فأمسكت بهما.

ـ صدق يابشر. جئت خصيصا لأراك.

أراد أن يلتفت لزملائه ليقول لهم «شايفين الجمال. فيه حد فيكم يعرف واحدة حلوة كده؟» لكن كاريمان قالت:

ـ القضية فشنك. ستخرجون جميعا براءة. حسن يسلم عليك. كان يود أن يأتي من المنصورة لكنه ـ ضحكت ـ قال لي في التلفون خلي بشر يشوفك وحدك ليعرف النعمة التي أنا فيها. من يعرف. ربما يتغير ويحب.

ابتسم بشر، وحطت الدهشة على وجهه من جديد. كيف حقا لم يحب فتاة ممن حوله في الجامعة حتى الآن؟ لكنه ابتسم وقال:

ـ أنت عظيمة يا كاريمان.

قالت بفرح:

ـ يارا أيضا شجعتني على السفر. قالت لي أحضر وأرجع أحكي لها كل شيء عن القاهرة. قالت لي لا تعودي إلا وبشر في يدك.

وضحكت وضحك. دخل القضاة الثلاثة ومعهم حاجب المحكمة يهتف: «محكمة».

لم يطل الوقت. اكتفى القاضي بكلام النيابة الذي يدين الجميع بالعمل السري لقلب نظام الحكم، وبمرافعة المحامين التي كانت قصيرة جدا، لم يطل فيها حديث أي محام عن عشر دقائق. لم يتكلم غير المحامين الثلاثة الكبار، ورفع القاضي الجلسة للحكم. لم يسأل القاضي ولا عضوا اليمين واليسار اللذان حوله أيا من المتهمين.

عاد القضاة إلى القاعة أسرع ما توقع أحد. الإفراج عن الجميع من سرايا المحكمة. التهبت الأكف من التصفيق في القاعة. ارتفعت الصيحات. «عاش نضال المصريين» « عاش كفاح الطبقة العاملة» وراح المحبوسون يقبلون بعضهم، وكاريمان التي أسرعت إلى بشر تقول:

ـ إسكندرية في انتظارك يا جميل..

ساعة واحدة وكانوا في شارع بورسعيد الواسع. لم ير بشر شيئا من القاهرة من قبل. لقد نقلته عربة الترحيلات من الإسكندرية في الفجر فلم يرها، لأنه حين طلع الصباح كان يدخل من باب سجن القناطر الخيرية. وفي المرة التي عرض فيها على النيابة، لم ير شيئا أيضا من

عربة الترحيلات ذات النوافذ الصغيرة العالية. فقط إذا نظر كان يرى جدران العمارات.وقف في الشارع مترددا. قالت كاريمان ضاحكة:

ـ خائف تعدي الشارع؟

قال:

ـ زحمة شديدة: ترام وأوتوبيسات وسيارات نقل كثيرة وكل هؤلاء الناس؟!

قالت:

ـ أنا أيضا خفت أمس حين وصلت ميدان رمسيس. لكن سهرت في الحسين. كانت ليلة جميلة.

ـ أتيتِ أمس؟ وأين نمتِ؟

ـ ستعرف كل شيء. هات يدك.

ومدت يدها أمسكت بيده وقالت ضاحكة:

ـ أنا أطول منك. خلاص تبقى كأنك ابني الصغير.

ضحك. لكنه غيّر من وضع يده ليمسك هو بيدها، وعبرا الشارع وهو يقول:

ـ لا تخافي.

وقفا في الناحية الأخرى. فقال:

ـ لكن كيف سنصل إلى ميدان رمسيس؟

هتفت هي:

ـ تاكسي.

فتوقف التاكسي الذي كان يعبر أمامهما. قال:

ـ التاكسي لونه أسود فعلا. كما نراه في السينما.

ضحكت. قالت للسائق:

ـ ميدان رمسيس.

همس بشر لها:

ـ ليس معي نقود.

ـ أنا معي.

تذكر أنه كانت معه خمسة جنيهات، أعطتها له أمه ليلة أن تم القبض عليه، وأنه وضعها في «الكانتين» الخاص بالسجن، لأنه ممنوع أن يحتفظ بنقود في الزنزانة، وأنه لم يصرف منها شيئا، ولم يأخذها قبل حضوره للمحكمة، لأنه لم يتوقع أن يتم الإفراج عنه. القاضي العظيم أفرج عنهم من سرايا المحكمة، وهذا رائع، لكنه ضيّع عليه الخمسة جنيهات. على أي حال لا يزال هناك من ينتظرون جلسة أخرى ممن قبض عليهم بعده بأيام. لابد سينتفعون بنقوده. ضحكت وقالت:

ـ لكن أين حقيبة ملابسك؟

ابتسم وقال:

ـ كل شيء تركته خلفي في السجن. البيجاما والملابس الداخلية وبنطلون وقميص. لامشكلة.

سمع السائق هذه المرة حديثه فابتسم وقال:

ـ حمد لله على السلامة يا أستاذ. حد يعرف آنسة حلوة كده ويسيبها ويروح السجن؟

تفاجأت كاريمان، وتفاجأ بشر لحظة، ثم انطلقا يضحكان. لكن السائق قال:

ـ لكن حضرتك مش لابس لبس السجن؟

قال بشر:

ـ كنت بعيد عنك معتقل. سياسة يعني.

ثم شمل الصمت الجميع حتى نزلا في ميدان رمسيس.

وقف بشر ينظر إلى الاتساع الفائق للميدان، والكوبري الحديدي العلوي الذي يدور حوله ويشوه من جماله، وحركة الناس التي لا تنقطع، وموقف الأوتوبيسات، والباعة الذين ينتشرون في كل مكان، ومواقف سيارات الأجرة للسفر خارج القاهرة، حيث ترتفع أصوات المنادين على المسافرين من كل مكان، وتمثال رمسيس الثاني الذي يبدو لا مباليا بهذا كله يقف يتحدى الزمن. قال فجأة:

ـ كاريمان. صارحيني. ما الذي جعلك تأتين إلى القاهرة؟

ابتسمت وقالت:

ـ ستعرف كل شيء حين نستريح في طنطا.

وسمعا صوتا ينادي «إسكندرية إسكندرية» أمام العربات البيجو، فاتجها إليه.

في طنطا حيث تستريح السيارات بالمسافرين، لم تقل له كاريمان شيئا يفسر زيارتها المفاجئة هذه للقاهرة. كانت تضحك. رآها تشتري علبتين سجائر كليوباترا أعطته واحدة منهما، وعزمته على الغداء، فأكلا ساندوتشات لحوم بجنيه كامل، وأعطته أربعة جنيهات قائلة وهي تضحك.

ـ في إسكندرية ادفع أنت للسائق أجرته ثلاثة جنيهات. أنت الرجل.

خلي معاك جنيه حتى تصل إلى البيت. هكذا تكون العشرة جنيهات التي جئت بها أمس قد نفدت تماما.

نظر إليها في دهشة لا تفارق وجهه. ماذا يحدث معه اليوم؟ قالت:

ـ حدثني قليلا عن الحياة في بالسجن.

ظل ينظر إليها لحظات. قالت:

ـ تريد أن تنسى؟

قال:

ـ ومن يستطيع أن ينسى؟ لم تكن كما نرى في السينما على أي حال. كان معي شباب جميل. تعرفت لأول مرة على مناضلين حقيقيين. سأحكي كل شيء فيما بعد بالتفصيل. دعيني أستمتع بهذا الاتساع في الدنيا حولي.

في البيت نسي بشر عند لقائه بأمه وأبيه، ما كان يود أن يعرفه من كاريمان، عن سر سفرها إليه. شغلته نظرة العتاب التي بدا أنها لصقت بعيني أبيه منذ زيارته له، وإن لم يعاتبه أبدا. وشغلته نظرة الألم والعتاب معا في عيني أمه. لم تنسه فرحة أخته به نظرة الأب والأم. الجميع يريدون إثنائه عن الاقتراب من السياسة، لكن أحدا لا يقول له ذلك. احتفلت به أمه بعشاء رائع، من البط والأرز، وأكل بشهية حقيقية، وأخذته إلى غرفته فرأى السرير كما هو، لم يقم أحد حتى بتسوية الغطاء الذي ظل في ركن من السرير، بالضبط كما تركه حين خرج مع ضابط أمن الدولة والجنود. قالت له أمه بصوت واهن يختنق:

ـ السرير كما هو. لم ينم عليه أحد.

أخذها في حضنه يقبل جبهتها ويربت على ظهرها، وكادت الدموع تطفر من عينيه.

ـ لا تحزني يا أمي. حقك عليّ.

رفعت إليه عينيها متوسلة وقالت:

ـ يعني خلاص؟

هز رأسه موافقا دون أن يتكلم. قالت:

ـ ربنا ينور لك طريقك يا بشر..

تمدد فوق السرير، لا لينام، فقط ليشعر بدفء المرتبة، وهو يتذكر المرتبة التي سلموها في السجن لكل منهم، ولم تكن ترتفع عن الأرض أكثر من خمسة سنتيمترات. أي مصنع منحط فيه تصنع

مراتب السجون؟ أما الغطاء فكان بطانية سوداء ممزقة، من بطاطين الجيش المهملة القديمة، التي تباع في الأسواق الشعبية. لقد دخل البرد جسمه من كل ناحية، هو والعشرة الذين شاركوه العنبر. والعنبر لم يكن صغيرا.. كان يكفي لعشرين، ومن ثم كان البرد أكثر وسط الفراغ. أهل زملائه من القاهرة كانوا يزورونهم تقريبا كل يوم. قسموا أنفسهم على أيام الأسبوع، ومن يأتي يحضر معه طعاما للجميع. كان الطعام متوفرا حقا، لكنه في النهاية كان في سجن. سجن رغم المحاضرات الليلية الجميلة التي كان يقدمها لهم الرفيق خليل الذي رآه لأول مرة. النوبي النحيل الذي ربما لا يتجاوز وزنه خمسين كيلو جرام. كيف حقا نسي خليل اليوم؟ كان أجدر به أن يزوره في القاهرة قبل أن يعود مع كاريمان. لقد خرج خليل بإفراج من النيابة بعد عشرين يوما، فصارت الأيام العشرة الباقية طويلة ومملة، رغم أن بقية الزملاء كانوا على ثقافة عظيمة أيضا. لماذا حقا بدوا له جميعا مثقفين أكثر من الذين في الإسكندرية. القاهرة مدينة الخبرات الكبيرة حقا. الكتب الممنوعة كلها تهرب إلى مكتبة الحاج مدبولي في ميدان سليمان باشا. هكذا قال له خليل ذات مرة وهو يضحك. لو أنك تعيش في القاهرة يكفي أن تزور الحاج مدبولي، وتطلب منه الكتب الممنوعة، ينظر إليك لحظة يستكنه فيها روحك. يطمئن إليك فيقول لأحد عماله على «فرش» الكتب، خذه المخزن. بعد أن تخرج بالكتب يعرف من نظرة أخرى إليك إنك مفلس، فيقول لأحد عماله «اعمل له صفحة شكك».الحاج مدبولي شيوعي قديم.

كان عليه حقا أن يزور خليل الذي عرف عنوان بيته في القاهرة، كماعرف أيضا أنه يجلس في مقهى اسمه «علي بابا» في ميدان

التحرير. لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك وكاريمان معه. لكن لماذا لم يحضر خليل حقا مع من حضروا جلسة المحكمة. ربما هو في النوبة لبعض الوقت بعد خروجه. على أي حال الأيام القادمة كثيرة، ولابد أن يسافر يوما إلى القاهرة يرى خليل، ويشتري الكتب الممنوعة من الحاج مدبولي ويعود.

نام بشر مع خيوط الفجر، لكنه على غير ما كان يبدو عليه من تعب، استيقظ وحده في التاسعة صباحا. أحست أمه به يخرج من غرفته. قال لها:

ـ سامحيني يا ماما. مشتاق أشوف إسكندرية.

ـ الدنيا شتا يا بشر.

ـ لن أتأخر. سأعود في الثالثة على الأكثر لأتغدى معكم. لا تقلقي.

كان اليوم هو الجمعة، وغدا تبدا الدراسة لنصف العام الثاني، ولابد أن حسن قد عاد إلى الشقة اليوم، وأحمد باسم. وربما يجد نادر أيضا هناك. الحقيقة كان يفكر في روايح وغادة. لابد أن يطفئ نارغله في أحد كعادته.

في طريقه إلى شارع تانيس اشترى صحيفة الأهرام. وجد خبر الإفراج عنهم في صفحة داخلية، وببنط صغير وبلا أسماء. ترك الجريدة على مقعده في الترام، ونزل في كامب شيزار. كان المطر خفيفا، لكن الريح شديدة، والدنيا واسعة، والناس الذين يراهم بدوا له سعداء وهم يسرعون في الطرقات. دخل شارع تانيس فوجده خاليا كعادته يمتد أمامه على الناحيتين ولا أحد. لكن البيوت لا تزال مكانها

صامتة كأنها تنتظره. صعد السلم مسرعا. لم يشأ أن يطرق باب شقة روائح وغادة. لابد أنهما نائمتان الآن بعد ليلة طويلة. ليلة الجمعة هي أطول ليلة في الملاهي الليلية دائما. ستستيقظان بعد قليل. لابد.

أدار المفتاح في باب الشقة بهدوء، ليفاجئ حسن وأحمد اللذين توقع حضورهما من بلدتيهما. لم ير أحدا أمامه. لم يسمع صوتا. دخل مندهشا. تلفت حوله فوجد خليل جالسا على مقعد بعيد يبتسم.

ـ خليل!! بسم الله الرحمن الرحيم.

هتف بشر وتوقف في ذهول، وابتسامة خليل الطفولية التي تمشي في الهواء تملأ الفراغ حوله. وقف خليل، وأخذ كل منهما الآخر إلى صدره.

ـ حمدا لله على سلامتك يا زميل. ما رأيك في هذه المفاجأة؟

قال خليل ثم جلس، وجلس بشر أمامه والدهشة لم تفارقه، ثم قال:

ـ أعظم مفاجأة. لكن حقا كيف دخلت هنا؟

ابتسم خليل وقال:

ـ ستعرف كل شيء. هل تحب أن نجلس هنا أم في مكان أخر؟

ارتبك بشر، فقال خليل:

ـ لا تقلق. لن يقبضوا علينا مرة أخرى بسرعة هكذا. دائما في يناير كل عام ـ وضحك ـ بيروقراطية أمن الدولة.

ضحك بشر وقال:

ـ أنت الضيف وأنت الذي يقررأين نجلس. هنا أو في الخارج.

قال خليل:

ـ مارأيك في مقهى والي؟

ابتسم بشروقال:

ـ تعرفها أيضا؟

ـ أعرف كل مقاهي الإسكندرية. من مقهى خفاجي في الورديان إلى مقهى عبد الكريم في سيدي جابر.

ضحك بشر ثم قال:

ـ لا أصدق أني أراك بسرعة هكذا، وأين، هنا في الإسكندرية؟ العنبر من بعدك يا خليل صار سجنا حقيقيا.

ابتسم خليل، ثم قال بشر فجأة:

ـ اسمع. خلينا هنا أفضل. الشقة خالية ولا يبدو أن أحدا سيصل بالنهارمادام أحد لم يأت أمس. نتكلم هنا براحتنا.

قال بشر ذلك ووقف، ثم اتجه إلى المطبخ ليعد كوبين من الشاي، ويعود بعد قليل يجلس أمام خليل، الذي نظر إليه نظرة طويلة ثم قال:

ـ كان يمكن أن أفاتحك بما أريد في السجن، لكني أرجأت ذلك حتى أتأكد من صحة اختياري.

ارتبك بشر واستمر خليل يتحدث:

ـ أنت لست عضوا في حزب العمال الشيوعي، ولا أحزاب أخرى.

أخذوك ظلما لمجرد أن لك رأيا في سياسة النظام والحاكم، لكن ثقافتك وقوتك وروحك الجميلة تجعلك «كادرا» في أي حزب. ولقد سبق لي أن جندت كاريمان في حزب سرّي.

اندهش بشر جدا. بدا مذهولا بحق. قال:

ـ كاريمان؟! كيف عرفتها؟

ـ عن طريق حسن.

ازداد ذهول بشر فقال:

ـ حسن أيضا تم تجنيده؟

ـ أجل. لكنه كما تعرف كتوم قليل الكلام. حدث ذلك قبل رأس السنة بأسبوعين تقريبا. بالمناسبة هو الذي أعطاني المفتاح. زرته في المنصورة أمس، ولا تسألني كيف تم تجنيد حسن حتى لا تعرف أسماء كل الأعضاء ـ وضحك ـ وحتى لا تشعر أن كاريمان صرفت عليك من نقودها، وتشعر بخجل الرجل الشرقي، نحن الذين أعطيناها عشرة جنيهات لتسافر وتعود بك. كنا نعرف بالبراءة من الاتهام.

بدا بشر غير مصدق لأي شيء مما يسمع ولا يزال يبتسم من الذهول. قال:

ـ لكن لماذا لم يأت إليّ حسن في القاهرة. كان من الممكن أن يأتي إلى الإسكندرية أيضا معي فالدراسة ستبدأ غدا.

ـ كاريمان هي التي صممت على السفر. كانت تحلم بزيارة القاهرة

وأن تقضي ليلة في الحسين. أخذتها إحدى الزميلات في جولة في حي الجمالية ونامت عندها. عادت معك وفي حقيبتها عدد قليل من نشرتنا السرية.

ظل بشر على ذهوله فقال خليل:

ـ هي من الإسكندرية ولن يراقبوها في القاهرة.

وضحك خليل وقال:

ـ بالمناسبة كان معنا في الزنزانة أحد المخبرين.

صار ذهول بشر أكثر، لكن خليل استمر يتحدث:

ـ هل تذكر المحامي الشاب الذي حضر معنا في النيابة أول مرة، وكان يتردد علينا في السجن. كان يتردد عليّ أنا بالذات؟

ـ أجل.

ـ هذا هو المخبر. محامي مجند في أمن الدولة. عرفت ذلك وواجهته فلم يعد ياتي. لم أخبركم. المهم يا زميل نحن في حاجة إلى شخص يفعل ما فعلته كاريمان بشكل منتظم. مرة كل ثلاثة أشهر مثلا، وسيحمل كثيرا من أعداد نشرتنا السرية. ليس مجرد خمس أو ست أعداد كما حملت كاريمان. ما حملته كاريمان هو لكم أنتم فقط. نريد من سيحمل ما يكفي لكل أعضاء الحزب في المنطقة.

ـ أي منطقة؟

تساءل بشر، فابتسم خليل وقال:

ـ الإسكندرية أقصد..

وصمتنا لحضات حتى قال خليل:

ـ ربما تكون أنت يا بشر مناسبا إذا وافقت على دخول الحزب.

ـ حزب العمال الشيوعي؟

ـ لا. الحزب الشيوعي المصري. أنا لست في حزب العمال. هل نسيت؟

ضرب بشر جبهته بيده وضحك ثم قال:

ـ لكن تهمتي هي الانتماء إلى حزب العمال الشيوعي؟

ـ هذا أفضل لك ولنا. لن يجدوك أبدا بين الزملاء في حزب العمال.

بدا بشر معجبا بحديث خليل ويفكر. سأله خليل:

ـ تحتاج إلى وقت لتفكر؟

ـ لا. أنا مقتنع جدا. لكن أفكر فيمن هو أفضل مني لمهمة السفر لإحضار الأوراق السرية. هل عرفت شيئا عن نادر؟

ـ الشاعر؟

ـ أجل. هل قابلته أيضا؟

ـ لا. لكني أستهدفه بعد ما سمعت عنه من حسن وكاريمان.

ـ نادر إذا سافر إلى القاهرة وعاد إلى الإسكندرية لن يشك فيه أحد،

فهو شاعر يمكن أن يعلن في كل مكان ذهابه إلى القاهرة ليعرض شعره على المجلات الأدبية، وعودته إلى الإسكندرية طبيعية فهي بلده.

ابتسم خليل ابتسامة لطيفة، وبدا معجبا ببشر. قال:

ـ ستكون كادرا مميزا في الحزب يا زميل «أمير».

اندهش بشر وقال:

ـ أمير مرة واحدة؟

ـ هذا اسمك الحركي من الآن..

ضحكا. قال خليل:

ـ ماهو المدخل السهل لنادر؟

قال بشر:

ـ دع هذا لي.

ثم بدا كأنما انتبه إلى شيء وقال:

ـ أنا جائع. ألست جائعا؟

قال خليل:

ـ أنا ذاهب إلى مقهى والي. هناك تنتظرني كاريمان.ستعزمني على سمك في الأزاريطة عند «حودة دنجل».

ضحك بشر وقال:

ـ وتعرف حودة دنجل أيضا؟ لا ياعم دا أنت إسكندراني أكثر مني!

وقف خليل مبتسما. بدا نحيلا قياسا إلى بشر، رغم أنهما تقريبا في طول واحد، وقال:

ـ سأتركك الآن. الأفضل ألا نجتمع نحن الثلاثة في مكان عام. كما أنني قد لا آتي هنا مرة أخرى.

مد يده يصافح بشر وابتسامته لا تفارقه، وقال:

ـ الآن يكون قطاع الطلاب في الحزبَ قد كسب رفاقا غير عاديين.

أحس بشر بالفخر لكن دق جرس الباب. ارتبك خليل فقال بشر:

ـ لا تقلق. هذه دقة روايح وغادة. تسكنان تحتنا. لا تستخدمان الجرس أبدا. الأفضل أن يبدو الأمر طبيعيا.

قال بشر ذلك وفتح الباب فقابله صوت روايح:

ـ سي بشر أخيرا. كنت فين يامضروب طول الإجازة؟

انتبهت روايح إلى خليل فهتفت:

ـ يا امه! مين الأسمر الحليوة ده؟

كانت غادة تبتسم ولا تتكلم. مر بينهما خليل خارجا وهو يقول:

ـ أنصرف أنا الآن لأني تأخرت.

ما إن عبرهما حتى التفت يقول لبشر مبتسما:

ـ أنت لم تسألني لماذا انتظرتك هنا، وكيف كنت متأكدا من حضورك؟ ـ ثم أشار إلى غادة وروائح ـ كنا متأكدين أنا وحسن من إنك ستترك بيت العائلة لتأتي لأحبابك.

وضحك ونزل مسرعا. قالت غادة لبشر الذي وقف مبتسما:

ـ ألم نوحشك يا مجرم؟

قال فاتحا ذراعيه:

ـ وأي وحشة؟المهم لا تقل لي واحدة أن عندها الدورة أو تريد كتابة جواب.

ضحكتا. فتحت له روائح ذراعيها فأخذها في حضنه. وصل فجأة من الجامع البعيد صوت أذان صلاة الجمعة فقالت:

ـ انتظر يا مجنون. يخلص الأذان! حرام!!

* * *

هل حقا قطع زيوس المسافة من اليونان إلى «صور» ليخطف «أوروبا» الجميلة ابنة حاكم المدينة. لقد ملّ زيوس حياته مع هيرا فوق جبل الأوليمب، وكعادته في هذه الحالة ينظر إلى البشر فوق الأرض يختار امرأة جميلة. هذه المرة كانت أوروبا التي لا تكف عن الخروج والمرح على الشاطئ.كانت ثيران الحاكم أيضا دائما على الشاطئ، ولأنها كلها سوداء نزل زيوس إلى الشاطئ وقد غير صورته وصار ثورا أبيض. تميز بين الثيران وجذب أوروبا البيضاء إليه، وما إن اقتربت حتى استلقى على ظهره وهي التي تحب المرح راحت تهدهده في صدره وهو يضحك ممتثلا، حتى إذا اطمأنت إليه وقف على أقدامه طالبا منها أن تصعد على ظهره. صعدت الفتاة المرحة فنزل بها إلى الماء ولم يستجب لطلبها بالعودة إلى الشاطئ. وصل

بها إلى جزيرة كريت وهناك عاد إلى هيئته كرب الأرباب. جامعها راضية وبقي معها وأنجب منها ثلاثة أبناء. من ترفض رغبات الآلهة؟ استقرت أوروبا بعد ذلك في القارة التي حملت اسمها. القارة التي جاءت إلى الإسكندرية مع اليونان والرومان. الإسكندرية التي أطلقت عليها الأساطير اليونانية الجزيرة التي وراء بحر الظلمات، قبل أن تعرف بالإسكندرية! لقد جسد الفنان العظيم فتحي محمود تمثاله وخلف زيوس وأوروبا رفع الأشرعة البيض وجعل التمثال كله أبيض مثل أوروبا وزيوس وقد تجسد ثورا أبيض. كل شيء أبيض يوحي بالنور القادم من أعالي البحر المتوسط، وهو النور نفسه الذي أشعته الإسكندرية على العالم لقرون عديدة.

وهل حقا حين قامت الحرب بين روما والإسكندرية، استطاع الجنود البطالمة أن يسلطوا أشعة الشمس، بعد أن تنعكس على مرايا في فنار الإسكندرية، إلى سفن الرومان فتحرقها؟ ياللإ سكندرية مدينة العالم القديم التي اشتهر شعبها بمصارعة الديكة وتناول النبيذ والتندر على الحكام!

وقف دقلديانوس على أسوارها ستة أشهر غير قادر على اقتحامها، حتى إذا دخلها قتل منها ومن المصريين ثمانين ألفا، في حربه على الديانة المسيحية، فاعتبر أهلها أن يوم اعتلائه عرش روما، بداية للتقويم القبطي، في مواجهة التقويم الجريجوري. خرجوا من زمن روما إلى زمنهم الحقيقي، وسمّوا شهورهم بأسماء الآلهة المصرية القديمة.

أعلنوا «المصرية»، في مواجهة «الرومانية»، ولم يطلقوا على

الشهور أسماء مسيحية. مصر من زمان أكبر من كل دين. أدرك أهلها ذلك، فكانت ملاذا لكل الأديان، وفي القلب منها الإسكندرية.

هكذا تداعت الأفكار على رأس عيسى وهو يقف أمام تمثال «عروس البحر» ولا يصدق أبدا أن عمود السواري ـ عمود بومباي قديما ـ بناه السكندريون تخليدا لدقلديانوس الذي دشن عصر الشهداء. لابد أنه هو الذي بناه، وكتب عليه ذلك شأن كل الحكام الطغاة.

عيسى الذي لا يعرف السهر في الملاهي الليلية، وقف هنا حزينا اليوم، لأن ثلاثة ملاه كبيرة أغلقت، ولا يعرف أحد هل ستتحول إلى قاعات أفراح، أم ستهدم لتقوم مكانها عمارات عالية قبيحة على البحر، تحجب عن المدينة الهواء؟! من قبل انتهى ملهى الكيت كات، ويسمع الآن أن ملهى هوليوود سيغلق أبوابه، وكذلك ملهى عطيات حسين والكوت دازور. عيسى الذي ليس مدمنا كبيرا على الخمور، يضايقه أن لا يكون الناس أحرارا. أن تغلق كل منافذ البهجة من أجل يوم للحساب قد يغفر الله فيه للجميع، مادامت ذنوبهم لم تتجاوزهم إلى الآخرين. سيأتي وقت لا يجد فيه أهل الإسكندرية ما يصبّون فيه آلامهم إلا البحر. هل سيتحمل البحر كل أوجاع البشر؟! ستتوقف أمواجه عن الصعود إلى سور الكورنيش. سيصيبها الوهن. وهذه المباني الخالية في الشتاء، تنتظر المصطافين في فصل الصيف، سيظهر بها رجال ونساء يبكون طول العام!

كان يكاد يدخل في بعضه من البرد، وهو يقف وسط الظلام، مستغلا انقطاع المطر لبعض الوقت، وخلفه لسان السلسلة الذي لا يزال محرّما على الناس، ولا عشاق يجلسون على سور الكورنيش.

هو المجنون الوحيد الذي مشى قليلا ثم عاد، بعد أن وصل إلى الشاطبي، ورأى ملهى عطيات حسين مغلقا.

لم يذهب عيسى إلى الكلية حتى الآن، ومضى أسبوعان على بدء الدراسة، وتردد على بار «الجبان» ثلاث مرات، ثم قرر أن يعود سيرته الأولى إلى أتينيوس. تاقت نفسه إلى صوت لوريس وسامي وسامية، ما إن دخل قاعة كريزي هورس حتى رأى الجالسين الليلة في أبهى زينتهم، وفوقهم وحولهم تحلّق روائح العطور الطائرة تنفتح لها الصدور وتحلق بها الأرواح. الزحام الليلة أشبه بليلة رأس السنة، رغم أننا في الأيام الأخيرة من فبراير. رأى بعيدا خريستو وبولا فتأملهما مندهشا. هل لازالت بولا في الإسكندرية؟ ما إن وصل إليها حتى وقف خريستو يصافحه هاتفا:

ـ لماذا تأخرت؟ لم نفتح زجاجة الشمبانيا حتى تصل.

اندهش عيسى. ليس هناك موعد بينهما. من زمان ليس بينهما مواعيد، ومن زمان يلتقيان من غير موعد. كانت بالفعل زجاجة شمبانيا مغلقة، وقليل من المزات أمامهما. مد يده يصافح بولا فوقفت، على غير عادة النساء، وقبلته في خده كأنهما صديقين قديمين. ما إن جلس عيسى حتى قال خريستو:

ـ أنا سأفتح الزجاجة.

وفتح زجاجة الشمبانيا فانطلق منها الصوت عاليا، وارتفعت الشمبانيا فيها بقوة كادت تهدر معظمها، وبولا تضحك من طريقته الهجومية، لكنه استطاع أن يلحق كثيرا مما كاد يهدر منها في كأس

صغيرة. هدأت الزجاجة الفائرة، وملأ كأسا ثانية وثالثة، ثم رفع كأسه هاتفا:

ـ في صحة بولا علشان تفتكرنا في سويسرا وترجع تاني.

نظر عيسى إلى بولا وقال:

ـ هل حقا ستسافرين؟

قالت:

ـ غدا.

قال:

ـ ألم تعجبك الإسكندرية؟

قالت وهي تشير إلى قلبها:

ـ إسكندرية هنا من زمان. ليس مهما ما رأيت. في صحتك.

ورفعت كأسها مرة أخرى أمامه.. قال خريستو:

ـ فيه فيلم حلو أوي في سينما مترو. فيلم لميلينا ميركوري.

اندهش عيسى وحرك حاجبيه، فسألته بولا:

ـ ألا تحب ميلينا ميركوري؟

قال عيسى:

ـ من لا يحب ميلينا ميركوري؟

نظرت إليه معجبة ومبتسمة. سأل هو خريستو:

ـ أي فيلم خريستو؟

قال خريستو:

ـ فيدرا.

مطّ عيسى شفتيه، ونظر إلى بولا التي بدورها أدركت ما يفكر فيه. هذا فيلم قديم منذ سنوات الستينيات، لا يمكن أن تعرضه سينما مترو الآن.

وبدا أن خريستو قد شرد عنهما. فسألها عيسى:

ـ ليتك تبقين معنا بعض الوقت. كان يجب أن نلتقي كثيرا. ربما لو تجولت معك في الإسكندرية ستكون رحلتك أفضل.

قالت:

ـ لم يعد فيها غير الذكرى. زرت الأماكن التي عشت وعملت فيها. تغيرت كثيرا. لكني وقفت أراها كما لو كانت كما هي. لم أشأ أن أؤلم نفسي.

بدا أنها متأثرة جدا بحق، وغير قادرة على إخفاء ألمها، وعاد إليهما خريستو بالحديث بصوت عال:

ـ ميلينا قوية جدا. زي هيرا زوجة زيوس. صح عيسى؟

قال عيسى باسما:

ـ صح خريستو.

وحط عليهم الصمت، فأراد عيسى أن يداعب خريستو فقال:

ـ فاكر خريستو the Auxiliary territorial service

قال خريستو في ارتباك.

ـ إيه دا. إيه دا. إيه معناه. أنا نسيت الإنجليزي؟

ضحك عيسى وقال:

ـ الـ ATSA الأتسا خريستو. بنات الخدمة الأرضية في الجيش البريطاني.

احك لنا عن البنت التي كنت تحبها زمان من بنات «الأتسا» في الحرب العالمية الثانية.

ابتسم خريستو. انفتحت عيناه إلى آخرهما ولمعتا. قال:

ـ خبيبي إنت شيوعي جميل تفكرني بأيام جميلة. خسارة. الإنجليز كانوا مجانين، وصل روميل العلمين خافوا يدخل إسكندرية. خدوا بنات الأتسا الحلوين خبوهم في أسوان.

ضحك عيسى وبولا. وقال عيسى:

ـ طبعا أنت تضايقت من الإنجليز، ولذلك حاربتهم مع المصريين في بور سعيد.

ـ لا خبيبي. أنا أخب مصر. إسكندرية في الحقيقة. قاهرة دي مجنونة. أي حد يهاجم مصر أنا أحاربه. صح بولا؟

قالت باسمة:

ـ صح خريستو.

ورفعت كأسها تحييه.

كانت موسيقى يونانية تنتشر في المكان من سماعات خفية. تغيرت الموسيقى فجأة فصارت سريعة، فقدت روحها اليونانية، وبدت أمريكية. اهتزَّ كثير من الجالسين، وبينهم بولا، التي راحت تهز كتفيها ناظرة إلى عيسى، الذي خشي أن تطلب منه الرقص على هذه الإيقاعات السريعة جدا. لكنها ابتسمت ولم تفعل. قام من بين الجلوس شاب وفتاة ترتدي فستانا قصيرا واسع الذيل، وكانت تدور معه مثل فراشة. كان يحملها ويدور بها كراقص باليه حقيقي، وصيحات الإعجاب لا تنقطع، وحين يتركها تدور حوله بسرعة ويتباعد عنها، ممسكا بيدها، ثم يتركها ويبتعد أكثر، وفي لحظة دارت بسرعة شديدة حتى وصلت إليه، فرفعها عاليا، فظهر الكلوت الأسود الصغير الذي ترتديه تحت الفستان، فصاح الجميع وصفقوا، وابتسمت الفتاة واحمرّ وجهها فكاد يشتعل، ثم عادت ترقص معه على الإيقاع البطيء الذي انتهت إليه الموسيقى، ثم عادا إلى مكانهما يقبّلها وهو يعبر بها بين الجالسين على خدها، ويحوطها بذراعه، بينما يستمر تصفيق الحاضرين. وقال خريستو فجأة لعيسى:

ـ حبيبي. أنت شيوعي مثقف. تعرف اسمها إيه الرقصة دي؟

أجاب عيسى على الفور:

ـ لا أعرف بالضبط. لكنها من فيلم قديم لجين كيلي لا أذكر اسمه الآن.

صفقت بولا قائلة:

ـ برافو.برافو. فيلم «الغناء تحت المطر»

ابتسم عيسى منتشيا. قال خريستو:

ـ دنيا من غير رقص وحشة خالص. صح بولا؟

ـ صح خريستو. في صحتك.

ورفعت كأسها من جديد أمامه.

ظهرت لوريس وفرقتها. صفق الحاضرون. وقفت لوريس تحييهم، وخلفها الشاب سامي عازف الأوكورديون، يلعب عليه نغمات عشوائية هادئة استعداد للغناء، وكذلك الفتاة سامية تفعل مثله على الكمان. قال عيسى مندهشا لأنه تذكر سؤالا قديما:

ـ الليلة غريبة جدا. زحام غير عادي. آخر ليلة زحام هنا كانت منذ شهر، ليلة عيد الغطاس. هل هناك مناسبة جديدة وأنا لا أعرف؟

هزت بولا كتفها مبتسمة، لكن خريستو قال:

ـ في مناسبة خبيبي. كل الناس دي جاية تودع بولا. أيوه. أنا قلت لهم..

ـ حبيبي.

قالت بولا واقتربت منه تقبله، فأعطاها وجهه ثم عاد إلى الشرود من جديد.

ـ جميل خريستو.

قال عيسى، فهزت بولا رأسها ورفّت رموشها في إعجاب.

كانت لوريس ترتدي الليلة فستانا طويلا أبيض، وكذلك كانت سامية ترتدي الموديل نفسه تقريبا. وتهادت الموسيقى، فعلت صيحات الإعجاب.

ـ لن أندم أبدا.

قالت بولا في تأثر، وشردت عن عيسى وخريستو الذي راح ينظر إلى لوريس في دهشة. وبدأت لوريس تغني أغنية إديث بياف..

Non. rien de rien

Non, je ne regrette rien

Ni le bien qu'on m'a fait, ni le mal

Tout ça m' est bien égal

لا. لا لن أندم على شيء
لا على ما قدموه من حسنات
ولا سيئات
كله عندي سواء

وظلت بولا تردد معاني الأغنية بالعربية، وتعيدها مع لوريس في تأثر أحيانا، ومبتهجة لحظات أخرى، حتى قالت ضاحكة:

لأن حياتي وأفراحي
تبدأ اليوم
معك أنت.

وأشارت إلى عيسى الذي بدا سعيدا جدا. صفق الحاضرون بقوة، وصفر بعضهم عاليا، ووقفت لوريس سعيدة مبتهجة، تشير إلى سامي وسامية، اللذين راحا بدورهما يحييان الحضور، ثم قالت:

ـ ما رأيكم في ديميس روسوس؟

صفق كل الحاضرين بقوة وصاح بعضهم معجبا فقالت:

ـ إسكندراني مثلنا.

أشارت إلى سامي فتقدم مكانها وأخذت هي مكانه، دوّى التصفيق من جديد، وجلست مكانه تعزف. بدأ هو يغني بصوته الشجي «Away» ويقلد ديميس روسوس حين يمد نهاية الكلام كأنه يصدح في فضاء لا نهاية له مجسدا البعد السحيق، والجميع صامتون سعداء مندهشون من صوت سامي الجميل.

There's a lucky man who' ll take you far away
Far away, so very very far away
He will come some day
To another land he'll take you far away
Far away, so very very far away

دوى التصفيق، وراح عيسى يهز رأسه، ويترجم الأغنية هذه المرة لبولا التي يعرف أنها لابد تعرف الإنجليزية، مادامت تعرف الفرنسية، ومادامت عاشت في الإسكندرية!

هناك رجل محظوظ سيأخذك يوما إلى مكان بعيد.
بعيد بعيد جدا جدا.

يوما ما سوف يأتي.
وإلى أرض أخرى سيأخذك بعيدا.
بعيدا بعيدا جدا جدا.
سوف يحدث هذا ولا أحد يعرف، من الذي سيشاركك الحب الصافي والغرام.
لكن في عينيك أستطيع أن أرى
أن هذا الشخص سيكون أنا

وما كادت تنتهي الأغنية حتى كان عيسى قد غفل عن خريستو تماما، وعن كل ما حوله، وتركزت عيناه فقط على بولا السيدة الأربعينية التي جاءت من أرض أخرى! قالت:

ـ جميلة جدا.

سألها:

ـ الأغنية طبعا.

قالت:

ـ الليلة كلها.

هنا تدخل خريستو وقال:

ـ أنا قلت لكم. الليلة دي احتفال ببولا.

كانت لوريس قد عادت من جديد لتغني، وعاد سامي إلى مكانه خلف الأورج، ووقفت سامية جوارها. بدتا جميلتين متألقتين في فستانيهما، وارتفعت الموسيقى السريعة من الأورج فصاح الجميع،

ووقف كثير من الرجال والنساء والشباب والفتيات، يتحركون إلى المكان الواسع بين «البست» والمقاعد.

- رقص.

هتفت بولا وهي تقف في سعادة، وكانت الحماسة قد اشتعلت في عيسى، فما إن مدت له يدها، حتى وقف معها شاعرا بالقوة تدب فيه، كما حدث ليلة رأس السنة وهم يسمعون Sway لدين مارتن. هذه المرة لفريق «الآبا».

بدأت الموسيقى ترتفع هادئة الإيقاع، وبدأت لوريس وسامية في الغناء، وتحرك الجميع حولهما كأنهم على موعد قديم مع الرقص.

Love me or leave me
Make your choice but believe me
I love you
I do, I do, I do, I do
I can't conceal it. Don't you see. Can't you feel it?
Don't you too?
I do, I do, I do, I do

وتتوقف الموسيقى لحظة والغناء والرقص، ثم تعود الموسيقى والغناء والرقص البهيج.

Oh, I've been dreaming
through my lonely past
Now I just made it,

I found you at last

So come on, now let' s try it,

I love you, can't deny it

Cos it's true

I do, I do, I do, I do

كالسحر مرت الليلة، وملأ الضحك والصياح فضاء المكان والجميع ينصرفون، يحيون بعضهم كأنهم أصدقاء، بينما كل خرج وحبيبته إلى جواره يحوطها بذراعه والسعادة على وجهها والبهجة على وجهه.

بعد أن عبر عيسى وبولا وخريستو الباب، ووقفوا على الرصيف في مواجهة الكورنيش، شملهم الصمت، بينما أصوات الذين خرجوا لم تبتعد بعد، وأصوات سياراتهم وهي تتحرك. لكن صوت البحر علا على كل الأصوات. بدا على بولا فجأة أنها دخلت في صمت عميق. فجأة قال خريستو لعيسى:

ـ خبيبي موسى. لازم نعمل لك ليلة خلوة زي دي.

انتبه عيسى إلى أن خريستو يقول له «موسى» فنظر إليه مندهشا، لكن بولا انفجرت ضاحكة وقالت:

ـ لا مشكلة. عيسى نبي وموسى نبي وكل من له نبي يصلي عليه. صح كدا. أنا لسه فاكرة كلام كتير.

نظر إليها عيسى بإعجاب، لكنه لمح دمعا يترقرق في عينيها وهي تقول شاردة بصوت خفيض.

ـ صوت البحر حلو أوي..

وسكتت لحظة ثم قالت:

ـ للأسف لازم أسافر بكره.

وجد عيسى نفسه يسألها:

ـ كيف دخلتي إلى مصر. أعرف أن كل من خرج من اليهود وقع على اقرارات أن لا يعود إلى مصر.

ارتبكت لحظات ثم قالت هامسة:

ـ لم أكن منهم. خرجنا جميعا، الأسرة كلها بطريق غير شرعي

احتضنت عيسى وقبلته على خديه، وبادلها القبل. قالت:

ـ كان بودي أن تطول السهرة معك أكثر. لم أتكلم مع أحد بما يكفي في هذه الزيارة. ربما أنت الذي كان من الممكن أن يستمع إلى حكاياتي القديمة. بالضبط كما قلت لي. لكن لا أعرف كيف لم نلتق بعد لقائنا الأول، وغدا... السفر.

وتركته وأسرعت إلى فندق سيسل القريب. هتف خريستو مندهشا:

ـ مشيت وسابتني!

وأسرع خلفها فبدا كأنه يتدحرج على الأرض لقصر قامته.

وقف عيسى لحظات يتابعها بعينيه. وقف فجأة أمامه تاكسي. سأله السائق:

ـ حضرتك تنتظر أحدا؟

قال عيسى شاردا:

ـ أجل.

تركه السائق ومضى. ظل هو وحده يقف يستمع إلى صوت البحر القديم.

* * *

مرت أحداث كثيرة بمصر والعالم. كانت أجاثا كريستي قد ماتت في يناير الماضي بعد أن بلغت نسخ أعمالها التي وزعت في كل الدنيا مليار نسخة، كما توفي في مصر سيد المداحين وصاحب أجمل مدرسة في الابتهالات الدينية، الشيخ سيد النقشبندي، ولحق بهما علي أمين مؤسس جريدة الأخبار مع توأمه مصطفى أمين في الأربعينيات، كما رحل حسين صدقي الممثل والمخرج صاحب أفلام شاطئ الغرام والحبيب المجهول وخالد بن وليد وغيرها، كما رحل الممثل الشهير جي.لي.كوب، والمخرج الإيطالي فيسكونتي، وقام الرئيس السادات برحلات إلى أبوظبي والبحرين وقطر والكويت، وأعلن أن موسكو لن تمد مصر بقطع غيار طائرات الميج، واعتبرها المعارضون افتراء منه هو الذى يرتمي في أحضان أمريكا كل يوم، وأعلن وزير البترول أن مصر ستبدأ استخدام الغاز الطبيعي في المنازل لأول مرة في أحياء المعادي ومصر الجديدة وحلوان، ولا يزال فيلم الكرنك حديث الصحافة، وانشغلت الصحف بمحاكمة الضابط محمد صفوت الروبي وزميلين له، المتهمين بتعذيب المعتقلين في سجون عبد الناصر، وتركزت المقالات أكثر على صفوت الروبي

كمثال جبار على الوحشية، وقالت إنه كان صاحب موهبة فريدة في تعذيب المعتقلين وانتزاع اعترافات منهم، وكيف التحق بالجيش برتبة نفر حتى أنعم عليه عبد الناصر برتبة ملازم بعد أن سافر في بعثة إلى ألمانيا الشرقية للتدريب على فنون التعذيب مع مجموعة من الضباط المصريين، وحاول شاب قتل شقيقته في منطقة سيدي بشر بعد أن شاهدها تمشي مع أحد الشباب، وطرد القذافي كثيرا من المصريين العاملين في ليبيا بسبب رفضه لتقارب السادات مع أمريكا، فأطلق عليه السادات لقب الواد المجنون بتاع ليبيا، وقال كمال جمبلاط زعيم الدروز في لبنان أن الحرب هناك وصلت إلى منطقة اللا عودة، وتم العفو عن ألفين ومائة مسجون في مصر بمناسبة المولد النبوي الشريف، كما تم تشكيل وزارة جديدة برئاسة ممدوح سالم أيضا، وعرض مسرح يوسف وهبي في القاهرة مسرحية «عالم علي بابا» ثم ألغى السادات معاهدة الدفاع المشترك مع الاتحاد السوفيتي، وأعلن نائبه حسني مبارك الاعتزاز بما تقدمه الصين لمصر ومضاعفة التبادل التجاري بين البلدين، واستيراد ملابس جاهزة ودخان ومنسوجات من الصين، ظهرت في الأسواق الشعبية فازداد الزحام فيها، وتم تقسيم منطقة سموحة الممتلئة بالحدائق والفلل المتفرقة التي هجرها معظم أصحابها الأجانب في الستينيات، وباعها من بقي من أصحابها المصريين لتتحول إلى مدينة سكنية، كما بدأ في منطقة المعمورة والمنتزة جنوب خط سكة حديد أبي قير اقتلاع أشجار الجوافة والموالح والرمان وغيرها لتقسيم الأراضي الزراعية وبيعها كأراضٍ للبناء، واتسع ردم بحيرة مريوط ليصل إلى منطقة الرأس السوداء وأبيس، كما بدأ في الغرب ردم مساحة كبيرة منها أيضا لتوسعات

في مصانع البترول، وعلى البحر ازدادت النوادي الخاصة، فظهرت نوادٍ جديدة للقوات المسلحة والقضاة والمحامين، وقل ظهور الشاب الذي يعزف على الأوكورديون على الكورنيش، ثم اختفى فقيل إنه مات، ثم ظهر من جديد، وسقطت عمارة جديدة جنوب سيدي بشر كانت قد ارتفعت لسبعة أدوار في زقاق ضيق، فأصابت البيوت التي حولها، وظلت فرق الإنقاذ تعمل طول الليل لإخراج الناس من تحت الأنقاض، وتجد صعوبة كبيرة في إدخال الأوناش لرفع الأنقاض، فصار الإنقاذ يدويا يشترك فيه الناس مع العاملين فيه، ومن ثم بدا أنها مهمة مستحيلة، وفي منتصف الليل سمعت سارينات سيارات قادمة من بعيد تزف عروسا وعريسا، ثم توقفت بعيدا إذ ظهر الزحام الشديد أمامها. نزل من فيها، وبينهم العروس والعريس اللذان عرفا بما جرى، فأسرعا يصرخان بين الناس، ليقفا أمام أنقاض العمارة التي بها شقتهما وأثاثهما. سقطت العروس مغشيا عليها، وتلطخ ثوبها الأبيض بالوحل والتراب، بينما انهار العريس المسكين جالسا على الأرض ببدلته الزرقاء يبكي واضعا يديه على وجهه، وكان مشهدا مؤلما للجميع..

-٥-

صوت محمد قنديل يأتي جميلا من الكاسيت الموضوع في ركن من الصالة، ونادر وبشر وحسن يجلسون حول ترابيزة السفرة الكبيرة، أمامهم أفرخ الورق المقوى والأقلام الملونة. الليلة سينتهون من آخر ثلاث مجلات سيعلقونها هذا العام.

لقد توقف شباب الجماعة الإسلامية عن الاعتداء على مجلاتهم بعد هجومهم الأول، وهم بدورهم لم يعلقوا مجلات إلا مرة أخرى بعد ذلك، بينما علق شباب الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين خمس مجلات في أماكن متفرقة من الكلية، وعلقوا على كثير من الجدران، في مسافات متفاوته، لافتات ورقية تحمل أحاديث نبوية وأحاديث قدسية، كان الطلبة والطالبات يقفون أمامها قليلا ثم ينصرفون بلا تعليق. كان هناك دائما طالب ملتح، لحيته قصيرة، وقد حف شاربه، يقف أمام المجلة، يتناقش مع من يقف من الطلاب الآخرين فيما هو مكتوب، وكثيرا ما يتأفف من الحديث مع الفتاة السافرة، كما يقولون، ومن ثم لم تكن كثيرمن الفتيات يقفن أمام

مجلاتهم. لم ينتشر الحجاب بين فتيات الكلية بعد، ولم يزد عدد الفتيات المحجبات على ثلاثين أو أربعين فتاة وسط الأعداد الهائلة للكلية. كان البنطلون الجينز قد انتشر في مصر كلها، ومن ثم في الكليات، يرتديه الشباب والفتيات، وكانت كثير من الفتيات يرتدين فوقه «البودي» القصير، الذي أحيانا، يكشف عن مساحة صغيرة جدا مع البطن، أو الكومبليزون القصير الذي تحت «البودي». كانت كثير من الفتيات مرتديات الجينز والبودي يرتدين جواكت قصيرة أيضا، ولا يغلقنها من الأمام، ومن ثم لم تمنع ظهور هذه المساحة القليلة من البطن، إذا تحدثت الفتاة ولوحت بيدها مثلا، وبينهن من كانت لديهن هذه المسافة ظاهرة لقصر البودي، سواء تكلمن وتحركن أم لا. كان الطلاب من الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمون ينظرون إليهن بقرف. وكانت موضة الميكروجيب لا تزال شائعة بين كثير من الفتيات.

لم يكن حسن وبشر ونادر سعداء الليلة، وفي الوقت الذي لم يظهر حسن تعاسته، وظلت ابتسامته الصغيرة، كان بشر في ضيق شديد من أجله، كذلك كان نادر. لقد وافقت إدارة «قصر ثقافة الحرية» على مسرحية له من فصل واحد، وتعاقدت معه على تمثيلها منذ شهر، لكنها اليوم أخبرته، حين ذهب ليقابل المخرج الشاب الذي رشحه قصر الثقافة لإخراجها، بأن المسرحية تم رفضها.. كيف؟ لم يجد إجابة. لقد عرضوا المسرحية على الرقابة ووافقت الرقابة، وأخذ عشرة جنيهات مقدما من ثمن المسرحية التي اشتروها منه بخمسين جنيها، وتم تحديد دفع بقية النقود على مرتين، عشرين جنيها حين تنتهي البروفات، وعشرين جنيها بعد عرض المسرحية. لم يكن هو

يفكر أبدا في أي نقود. كانت سعادته غامرة بأن مسرحية له سيشاهدها الجمهور، حتى لو كان جمهور قصر ثقافة الحرية الصغير.

قال بشر بعد أن انتهوا من تحرير مجلة كاملة:

ـ ما رأيكم الآن؟ عناوين الموضوعات وحدها تهد بلد.

وراح يقرأ العناوين في غبطة.

ـ إلغاء الرقابة على الكتب والصحافة والفنون.. وضع ضوابط اجتماعية لسياسة الانفتاح الاقتصادي.. الإفراج عن المعتقلين السياسيين.

ثم قال فجأة لحسن كأنه تذكر شيئا كان قد نسيه:

ـ ألم يكن في العقد شرط أن تحصل على بقية مستحقاتك لو تراجعوا عن إنتاج المسرحية؟

فكر حسن لحظة وقال:

ـ لا. العكس. كان هناك شرط يقول إن من حق قصر الثقافة إلغاء التعاقد في أي وقت دون إبداء الأسباب.

قال بشر ساخرا:

ـ هذه عقود إذعان لا توجد في أي مكان في العالم. أنا أعرف.

هنا ابتسم حسن ابتسامته الصغيرة وقال:

ـ طبعا. عندك خبرة كثيرة في العقود!

ضحكوا. قال نادر:

ـ مثل حسن يوافق على أي شرط. أنت لا تعرف يا بشر فرحة الكاتب حين يرى عمله معروضا للجمهور.

قال حسن ساخرا:

ـ واضح أن الرفض جاء من أمن الدولة. انسوا الموضوع. أنا نسيته. خلونا في المجلات الآن. لماذا حقا لا يهاجم طلبة الجماعة الإسلامية ولا الإخوان المسلمون المجلات الآن؟! هل هي تعليمات من أمن الدولة أيضا؟

قال بشر:

ـ ربما يجهزون لشيء أكبر.

وسمعوا المفتاح يدور في الباب، فعرفوا أنه أحمد باسم، الذي ما إن دخل حتى وقف مبتسما ومندهشا. تقدم من المجلات، ونظر في المجلة المنتهية المفرودة على الترابيزة. قرأ صامتا العناوين ثم قال:

ـ جميلة. ورغم أنه لا فائدة فأنا مبسوط من حكاية إلغاء الرقابة، ويارب يحصل على السينما بالذات. نفسي أشوف سهير رمزي عريانة، ويا سلام لو ميرفت أمين، ولو ربنا كرمني تكون سعاد حسني.

قال نادر مبتسما:

ـ ادخل يا أحمد غرفتك وخلينا نشتغل. لماذا تعود وحدك الليلة؟

ـ اليوم إجازة حسب الجدول.

كان في الأسابيع الأخيرة قد وضع جدولا بأسماء الطالبات اللاتي يأتين معه إلى الشقة ومواعيدهن، حتى إذا كان أحدهم موجودا لا

يخرج من غرفته فتراه الفتاة وتشعر بالخجل ولا تأتي مرة أخرى. كان بينهن ثلاث فتيات من قسم الفلسفة، واثنتان من قسم الآثار الذي يقول أن به أجمل فتيات الكلية رغم اسمه. قسم مثل البيت السري، لا يلتفت إليه أحد في الدور الثالث إلا من يقدر الجمال. ثم قال أحمد فجأة وقد علت الدهشة عينيه:

ـ شفتوا محمد شكر..

نظروا إلى بعضهم مندهشين أيضا. محمد شكر الطالب الوسيم الذي وقف بينهم وبين طلبة الجماعة الإسلامية، والذي يحبه الجميع، لكنه ليس من شلتهم.

واستمر أحمد في الحديث:

ـ رأيته اليوم يدخل تريانون. حذروا من كانت معه؟

قال نادر:

ـ هذا لا يهم أحدا يا أحمد. أنت مثلا معك بدل الواحدة عشرة.

ـ لا. هذه أهم بنت في القسم. فوقية. فوقية أخت فوزية. التوأم. بنتا الوزير السابق.

تبادلوا النظرات غير مصدقين. استمر أحمد:

ـ هذه هي البنات. ذكي محمد شكر هذا. لا بد أن أعرف منه كيف استطاع أن يفعل ذلك. بنت وزير يابقر!

وضحك، فقال بشر في توتر:

ـ طيب خلاص. ادخل غرفتك خلينا نشتغل.

كان محمد قنديل يغني:

عيونك سود وأقول مش سود
علشان الناس تتوه عنك
واصونك من حسود وعزول
واغير حتى عليك منك..

بدا أحمد يستمع للغناء لحظة ثم قال ضاحكا:

ـ كمان عيونك سود ولا أحد منكم يحب واحدة عيونها سوداء. يعني فاشلين حتى في اختيار الأغاني!

وسمعوا طرقات على الباب فجأة. نظروا إلى بعضهم. كانوا جالسين ولايزال أحمد واقفا، فضحك وقال:

ـ أكيد غادة وروائح..

قال نادر:

ـ لكنهما تعملان ليلا.

قال أحمد:

ـ إذن أمن الدولة. هي الليلة السوداء وليست العيون وحدها، ورغم ذلك سأفتح الباب. أي أمن دولة الآن والساعة لم تصل إلى التاسعة؟

التفت وفتح الباب، فظهرت روائح وغادة ترتدي كل منهما ثوب سهرة جميل فوقه بالطو، وقالت روائح على الفور:

ـ ما رأيكم في هذه المفاجئة؟ نفسنا نسهر معكم مرة. أتينا بملابس السهرة. نفسنا نتكلم معاكم كتير من غير قلة أدب.

ابتسم حسن ونادر، بينما ضحك بشر وأحمد الذي قال:

ـ إجازة أنتما أيضا؟

قالت غادة:

ـ أجل. إجازة مفاجأة للملهى. قلنا نسهر معكم. نفسنا نحس بأننا عائلة بجد.

كانتا قد جلستا على المقاعد دون انتظار الدعوة للجلوس. قالت روايح:

ـ أيضا غادة هذه المرة هي التي تريد أن يكتب لها أحد خطابا.

قال أحمد ضاحكا:

ـ ألم أقل لكم إنها ليلة سودا؟

قالت غادة:

ـ لا يا أحمد. السودا هي صاحبتك بتاعة السوداني، أنا فعلا عندي كلام مهم.

ضم بشر المجلات بعد أن بدا لحظة يجز على أسنانه في غيظ، وقام ليجلس قريبا منهما وقال:

ـ تعال يا نادر. تعال يا حسن. لن نكسر بخاطرهما.

أدرك نادر وحسن أن بشر قرر أن يطفئ غيظه في واحدة منهما كالعادة. ابتسما. جلسا وجلس أحمد أيضا.

قالت غادة:

ـ إذا كانت كتابة الجواب ستسبب ضيقا لأحد منكم فليس مهما أن يكتبه. سوف أنصرف. المهم أن تعرفوا أن من أريد أن أكتب له الجواب ليس في ليبيا ولا سوريا كما تفعل روائح، لكنه في السعودية.

نظروا إلى بعضهم في دهشة. ضحك أحمد وقال:

ـ طبعا. قومية عربية.

قالت غادة:

ـ اسكت أنت ياسي أحمد. أنا لا أفهم ما تقول. هذا شخص مهم جدا اسمه الشيخ زعلان.

ضحكوا بقوة، فبدا التأثر على غادة لحظات وقالت:

ـ لا تصدقوني. طيب. ما رأيكم أنه تزوجني؟

عادوا إلى الصمت والدهشة من جديد. قالت غادة:

ـ تعرفت عليه في الملهى منذ أسبوع. هو غني جدا. هو في الحقيقة مصري يعيش في السعودية منذ عشرين سنة. جاء في إجازة. يريد أن يشتري الملهى.

استمرت الدهشة على وجوه بشر وحسن ونادر، بينما يداري أحمد ضحكاته بيده على فمه. قالت روايح:

ـ البيه صاحب الملهى وافق. الشيخ زعلان قال له لازم هذا «الفُجر» ينتهي من مصر.

سألها بشر:

ـ وكيف عرفتما بذلك؟

ـ كل العاملين في الملهى يتحدثون في الموضوع. المهم اسمعوا غادة. تكلمي يا غادة.

نظروا إليها صامتين فقالت غادة لروايح:

ـ لا. احكي لهم أنت. أنا مكسوفة.

قالت روايح:

ـ طيب. لقد أعطى غادة مائتي ريال وليلة في فندق المتروبول.

تساءل أحمد ضاحكا:

ـ المتروبول! ولم يقبض عليكما أحد؟

قالت غادة:

ـ القانون لا يمنع الأجانب من أصطحاب النسوان. يمنع المصريين فقط.

قال بشر وهو يهز رأسه أسفا:

ـ ولا يمنع المصريين الأغنياء!

قالت غادة:

ـ لم ينم معي كما تتصورون. تزوجني ثم نام معي.

قالت روائح:

ـ لا تستغربوا. تزوجها وطلقها في نفس الليلة.

ازدادت الدهشة إلى درجة كبيرة على وجوه بشر وحسن ونادر، بينما كان أحمد يبتسم ساخرا ويمسك نفسه عن الضحك. قالت غادة:

ـ أعطاني في غرفة الفندق قبل أن أخلع ملابسي مائة ريال، وطلب مني الجلوس أمامه. أمسك بيدي وقال زوجتك نفسي على الصداق المسمى بيننا، وعلى مؤخر الصداق مائة ريال، وطلب مني أن أفعل مثله، فقلت ما قال وأنا مرعوبة.

ضحك أحمد بقوة وقال:

ـ مرعوبة تتجوزي واحد مليونير. هذا أكيد مليونير.

قالت غادة:

ـ طبعا مرعوبة ألا يطلقني ويتركني ويسافر. طيب ماذا أفعل أنا؟ ومن سيسمعني إذا اشتكيت ولا ورقة رسمية معي؟

ـ كأنك لم تتزوجي.

ـ أنت يا سي أحمد كل حاجة عندك سهلة. ربنا شايفنا، يعني بعد ذلك سأكون عاصية لربنا وزوجي. ربنا وبيغفر. أعمل إيه أنا قدام جوزي؟

هز أحمد رأسه وقال ساخرا:

ـ صح. كملي.

قالـت:

ـ خلاص. بعد أن نام معي طلقني وأعطاني المائة ريال. تركت الغرفة وهو لا يشعر بخروجي. نام.

حطّ عليهم صمت عميق لحظات. طامن كل من نادر وبشر وحسن رءوسهم إلى الأرض. بكت روايح فجأة وقالت:

ـ خلاص اشترى الملهى وأغلقه وسافر. لا نعرف ماذا سيفعل فيه حين يعود. أكيد لن يعود ملهى مرة أخرى. ونحن الآن بلا عمل.

وقف أحمد ومد يده إلى غادة وقال:

ـ هيا يا غادة معي. سأتزوجك أنا أيضا لكن بنصف جنيه مقدم ونصف جنيه مؤخر، وذنبنا في رقبة الشيخ زعلان.

وقفت وقالت:

ـ لا. بلاش جواز، ح أدخل معاك علشان زعلانة.

تبادل حسن ونادر النظرات في ألم. نظرا إلى بشر الذي وقف وقال فجأة:

ـ تعالي يا روايح معي. لا يجب أن تبكي أبدا.

صار نادر وحسن وحدهما في الصالة، قال حسن شاردا:

ـ ماذا سنفعل نحن والعالم يتغير حولنا على هذا النحو؟

وقف نادر وقال:

ـ لا أظن أنني سأبقى هنا الليلة.

ـ إلى أين ستذهب؟ الرياح شديدة في الخارج.

ـ لا أعرف.

* * *

كان أحمد باسم مندهشا من غادة التي بدا وهما يمارسان الجنس، أنها تعطيه كل مشاعرها، ويشعر بها كأنها لم تمارس الجنس من قبل قط. تصرخ وتتأوه وتحتضنه بقوة بذراعيها وساقيها، وتعض في صدره وذراعيه وكتفه، ولا تكف عن الحركة. يعرف طبعا أن خبرتها طويلة، لكنها لم تكن تفتعل ذلك، هو يحس أن هذه اللحظات بدت لها كأنها نهاية ما تريده من الدنيا. لقد همد وهو يستلقي جوارها لا يصدق. أدهشه جدا أنها انفجرت باكية فجأة وهي مستلقية على ظهرها جواره. تحرك فيه شيء من التعاطف الحقيقي معها. مد ذراعه تحت رأسها وجذبها إليه، فصارت رأسها على صدره، وقال:

ـ لا تبك يا غادة. إغلاق الملهى ليس نهاية العالم. الملاهي كثيرة.

لم ترد. بدا أنها صارت شاردة، لكنها راحت بهدوء تقبّل شعره الكثيف على صدره في نشوة هادئة. قال فجأة:

ـ أنت وروايح معنا هنا منذ وقت طويل، لكني لا أعرف حتى الآن هل أنت من إسكندرية أم لا.

قالت:

ـ أنت تنسى. أنا من السويس. روايح من الإسماعيلية. قلنا لكم ذلك من قبل.

قال:

ـ حقا. كيف نسيت؟ كنت أقصد لماذا تركتما السويس والإسماعيلية؟ لماذا لا تعودان إلى هناك؟

ابتعدت عنه واستلقت على ظهرها من جديد، وراحت تمسح دموعها بيدها وتقول:

ـ هل تتصور أن أحدا لا يزال يتذكرنا هناك؟

حط عليه الصمت، بينما راحت هي تحكي، كيف تم تهجير معظم السكان بعد هزيمة ١٩٦٧. تفرقوا على أكثر من بلد. كان نصيب عائلتها مدرسة في قرية بمحافظة القليوبية صارت معسكرا لإيواء المهجّرين من السويس والإسماعيلية. هناك تعرفت على روايح. كان كل عشرة تقريبا ينامون في غرفة، كانت في الأصل فصلا دراسيا أخلي من المقاعد ووضعت بدلا منها المراتب الإسفنجية. كثيرا ما كانت تحدث اعتداءات جنسية بالليل. أما التحرش الجنسي فكان طوال الوقت. دورة مياه واحدة في المدرسة. هربت هي وروايح من هذا الجحيم. كان السبب أن كلا منهما فقدت عذريتها مع رجل اختفى من المكان بعد ذلك. الرجل نفسه فعل ذلك بأكثر من فتاة. بالقوة أحيانا والناس نيام، وبالإغراء بالزواج، رغم أنه كان يعيش معهم ومعه زوجته وطفلته. كثيرات هربن مثلهما إلى القاهرة والإسكندرية، وتلقفتهن الملاهي الليلية وبيوت الدعارة الخفية. وصلتا إلى الإسكندرية عام ١٩٦٨. انقطعت صلتهما نهائيا بعائلتيهما، ولا أحد أيضا من العائلتين بحث عنهما. «الحمد لله إن العائلتين فعلتا ذلك، وإلا كان مصيرنا القتل». هكذا قالت.. بالطبع لم يعد ممكنا لأي منهما العودة إلى بلدتيهما بعد حرب أكتوبر. انتصرت مصر، لكنهما كانتا قد انهزمتا إلى النهاية.

سكتت قليلا شاردة وقالت:

ـ حتى لو عدت واقسمت لعائلتي أني طاهرة بريئة لن يصدقني أحد. بسبب هذا على الأقل.

أشارت إلى أعلى فخذها، فرأى آثار جرح طويل يكاد يدور حول الفخذ. كيف حقا لم ينتبه إليه في المرات القليلة السابقة التي نام معها فيها، ولم تكن مقبلة عليه كما فعلت اليوم؟ كانت دائما جامدة كأنها تؤدي عملا مفروضا عليها، وإذا صرخت وتأوهت فذلك لتعجل من شهوته ويقذف وتنتهي منه. كان يمكن له من قبل إذن أن يرى الجرح، لكنه أيضا في المرات السابقة كان يهمه أن يتخلص من رغبته أكثر مما يهمه إشباعها، لذلك ربما لم يفطن بدوره إلى هذا الجرح. سألها مندهشا من نفسه:

ـ ما هذا؟

ـ جرح ألا ترى؟

ـ أعرف. كيف حدث؟

ـ ألا تعرف؟

ـ لا. لم أنتبه من قبل ولم أسألك.

ـ وعامل لّي بتاع نسوان! اسمع يا سيدي.

حكت له كيف أن طريق الكورنيش كله مقسّم إلى مناطق بين الفتوات، القوادين في الحقيقة. كل قواد مسئول عن النساء في منطقته، ومن تخرج عن طوعه يترك فيها أثرا يجعلها لا تصلح للعمل بعد ذلك. أو على الأقل تقل قيمتها.

نظر إليها مندهشا. كيف يسمع ذلك لأول مرة حقا، هو الذي عرف نساء كثيرات. قالت:

ـ لا تندهش. الحمد لله لم يصبني في وجهي. جرحني هنا وقال إن هذا إنذار. اختار أعلى مكان في فخذي وأنا ممسوكة بين مساعديه، ومشى عليه بالموس ابن الوسخة وأنا أصرخ.

كاد يضحك لكن صوتها انخفض وقالت:

ـ بصراحة كان يحبني. لذلك اختار مكانا لا يمنعني فيه الجرح عن العمل.

تساءل ساخرا:

ـ قواد ويحب؟!

ـ كان في ذلك مختلفا.

ـ وماذا فعلت ليفعل بك ذلك؟

ـ مارست عملي يوما واحدا في منطقة أخرى. بصراحة كنت أحب القواد الثاني. لكن ماذا أفعل والملهى الليلي الذي أعمل فيه في منطقة الذي يحبني ولا أحبه؟

نظر إليها مندهشا يضحك وسألها:

ـ طيب. وكيف عرف الأول؟

ـ الثاني أخبره. حبيبي أراد أن يغيظه. المهم. كل ذلك انتهى. لقد سافر الأول إلى القاهرة، وقتل الثاني الذي أحبه في غيطان سموحة.

وجدوا جثته وكتبت عنه الصحف. ألم تقرأ شيئا في الصحف من عامين عن..

قاطعها قائلا:

ـ طيب كفاية كفاية.

قال ذلك متأففا بحق، فقالت:

ـ ماتزعلش. الكلام جاب بعضه. الآن في منطقتنا قوّاد فريكيكو. شاب مش على بعضه. حاسة إنه لاموخذة «خول». أجل. هو كذلك فعلا.

ضحك هذه المرة فقالت:

ـ معه دائما بنت مثل القمر لا تفارقه. عمرها ١٨ سنة. يلف بها على البيوت ويعطينا الفرصة أن نفعل ما نشاء.

قال مندهشا:

ـ ١٨ سنة؟

ـ تحب أجيبهالك هنا؟

قال هاتفا:

ـ لا. أرجوكِ. هنا مكان محترم. مذاكرة فقط.

ضحكت. بدا أنها نسيت كل ماجرى. قالت:

ـ أنت عفريت. خلتني أعترف لك بأشياء كثيرة.

وضربته على صدره بلطف. ابتسم. نظر إليها لحظات وسألها فجأة:

ـ بذمتك ودينك حكاية الشيخ زعلان حقيقية؟

ـ والله حقيقية.

ـ طيب وهل هكذا يكون الزواج حلالا؟

هزت كتفها وقالت:

ـ أنت متعلم وتعرف. أنا طبعا صدقته وقلت ذنبي في رقبته. أنا شخصيا شايفاه ابن كلب ويكذب على ربنا. الواحد يعمل الغلط أحسن ما يكذب على ربنا. والا إيه رأيك؟

فكر لحظة وقال:

ـ فعلا. معك حق.

وكان يفكر في شيء آخر. الكذب أفضل طريقة لاستمرار الحياة!!

بدأ فجأة سعيدا وهو يكتشف شيئا لم يصل إليه من قبل!

* * *

الساعة الثانية عشرة ليلا، وصوت الريح في الخارج، يصل قويا إلى حجرة يارا، التي يرتفع في فضائها خيط رفيع من دخان السجائر، التي تدخنها كاريمان.

كاريمان ممددة فوق السرير، وقد ارتدت قميص نوم يارا الشتوي، الذي صارت يارا تسميه قميص كاريمان.

يارا جالسة خلف مكتبها، تشرح لها ما تقرأه من كتاب الفلسفة الإسلامية، أو تتناقشان معا. لاحظت يارا كثرة شرود كاريمان منذ

أتت قبل ساعتين. وقفت الآن وتركت المكتب إلى السرير، فتحركت كاريمان قليلا إلى الداخل لتتمدد يارا جوارها وتسألها:

ـ ما الذي يشغل بالك الليلة؟ يخيل لي أنك لم تسمعي كلمة واحدة مما قلت. هل حدث سوء بينك وبين حسن؟

ابتسمت كاريمان وقالت:

ـ ليت كل الدنيا مثل حسن. يبتسم حتى بعد رفض قصر ثقافة الحرية تمثيل مسرحيته بعد أن وافقوا عليها.

ـ كلنا زعلنا لكن أكيد ستأتي فرص أخرى، وأكيد ستكون أفضل.

ابتسمت كاريمان وقالت:

ـ ذهبت معه إلى الشقة

قالت يارا في دهشة ضاحكة:

ـ يخرب بيتك. وطّي صوتك. ذهبتِ مرة ثانية؟

ـ وثالثة ورابعة وحياتك.

صمتت يارا وفكرت، هل تصارحها أنها أيضا صارت تذهب مع نادر؟ بينما أغمضت كاريمان عينيها وهي ترى حسن يضع يده على نهدها، ثم ينقلها إلى النهد الآخر فتعض شفتها السفلى وتتأوه بصوت خفيف، ثم ينزل إلى بطنها وإلى شعر العانة الأصفر تحتها، ويمشي عليه ببطء كأنه يتذوق ملمسه الحريري، ثم يصل إلى مركزعفتها فتفتح ساقيها بحرص قائلة، خد بالك، وتروح في اللذة، فلا تتمالك نفسها، فتحوطه بذراعيها تضمه إلى صدرها، فيقبلها بقوة بينما جسدها ينتفض. ثم هزت رأسها أمام يارا وقالت مبتسمة:

ـ يخرب بيتك أنت يا يارا. فكرتيني بكل شيء.

ضحكت يارا وقالت:

ـ فكرتك بشيء حلو أكيد.

أشعلت كاريمان سيجارة أخرى، ونفثت دخانها، ثم قالت:

ـ حسن يتأمل جسدي ويتحسر لأنه ليس فنانا تشكيليا ليرسمني.

قالت يارا في انزعاج:

ـ يرسمك في لوحة؟

ـ أجل.

ـ ويعرضها ليراها الناس؟

ـ ولم لا؟ ألا يفعل الفنانون ذلك؟

ـ مع الموديلز. ليس مع من يحبونهم.

ـ ومع من يحبونهم والله.

ـ في أوروبا ربما. في بلادنا تصير فضيحة.

وسكتت يارا بينما بدا الضيق على وجه كاريمان التي قالت:

ـ إلى متى ستظل بلادنا متخلفة هكذا؟ الكارثة إنها بدأت تعود إلى الوراء من جديد.

ـ أنا شخصيا لا أقبل ذلك سواء كنا في أوروبا أو في مصر.

قالت يارا ذلك ضاحكة. ثم أردفت:

- جمال الحب في الكتمان. الحبيب ليس سلعة تعرض للبيع.

هزت كاريمان رأسها غير مقتنعة، وكانت الآن قد صارت جالسة فوق السرير مرتكنة على الحائط بظهرها، تنظر إلى يارا التي بدورها صارت تستند إلى ظهر السرير وقالت:

- في كل مرة أرى حسن وهو معي أشبه بالضائع وهو يتحسس جسدي. سألته مرة لماذا تغمض عينيك، فقال إن الجنس للمحبوبين مثل مقامات الصوفية، ينتهي بمقام الفناء. الأورجازم حالة من حالات الفناء.

وضعت يارا يدها على فم كاريمان، وتلفتت خائفة ناحية الباب المغلق. قالت هامسة:

- نفس كلام نادر.

واحمرّ وجهها.اشتعل تقريبا. تذكرت أنها لم تخبر كاريمان من قبل أنها ذهبت مع نادرفاشتعل وجهها خجلا. نظرت إليها كاريمان في دهشة، وتهلل وجهها بالفرح، ثم قالت ضاحكة:

- أخذت منك اعترافا.

قالت يارا:

- يخرب بيتي فعلا. لم أستطع الكتمان. فكرتيني بكل شيء. نادر يتحسس جسدي كأنه في معبد .

- حسن في النهاية يلعن دائما العذرية. يقول وهو يمط شفتيه، الأورجازم ليست في مكانها الطبيعي.

ارتبكت يارا وقالت:

ـ يعني إيه؟

ـ بصراحة أفكر أن أتركه يدخل المعبد .

انزعجت يارا جدا وقالت:

ـ إياكِ يا كاريمان.

ـ أريد ذلك أكثر مما يريد هو.

تركت يارا السرير إلى المكتب وقالت:

ـ تعالي قدامي هنا على الكرسي. خلينا نذاكر ربنا يخليكِ.

ضحكت كاريمان وانتقلت إلى أمام المكتب ونظرت كلاهما إلى الأخرى في صمت وبدا أن يارا قد شردت بعيدا ثم قالت:

ـ شيء رائع حقا أن يرسمك حبيبك في لوحة.

ـ يعني مقتنعة؟

ـ شيء رائع أن أطل من اللوحة على الناس وهم يتفرجون عليّ.

ضحكت كاريمان لكن فجأة قالت يارا في ضيق وهي تمشي

بيدها على صدرها:

ـ لماذا لا تكف الرياح الليلة عن الحركة؟ صوتها رهيب.

ضحكت كاريمان من جديد وقالت:

ـ منذ يومين والرياح لا تنقطع. نوّة عوّة يا حبيبتي.

قالت يارا وهي تهز رأسها:

ـ صحيح. نوّة عوّة ما بعدها نوّة. خلاص. خلينا نذاكر ونشوف آخرتها مع الحلاج.

فجأة ارتفع في الراديو صوت موسيقى عربية. تبادلتا النظر في دهشة. قالت يارا:

ـ محطات الإذاعة دخلت في بعضها. أكيد بسبب الرياح.

هتفت كاريمان:

ـ الله عبد الحليم حافظ. أحسن حاجة عملتها النوّة.

كان عبد الحليم يغني:

«بين صحبة الورد شوف
أجمل عيون وخدود
حسان ومتجمعة في مهرجان مشهود
لوّن وعطّر وندّى ربنا المعبود».

وقفت يارا وقالت وهي تمشي بيدها على جسمها:

ـ بصراحة بعد ما قلناه لازم أشرب قهوة.

وراحت تعد القهوة، بينما تسمع صوت عبد الحليم يتهادى وادعا مطمئنا:

« بيني وبين الناس أحوال
يا ذا الجمال والكمال
خليني عبدك لوحدك
لا عبد جاه ولامال».

لاحظت يارا دموعا تترقرق في عيني كاريمان فقالت:

ـ ماذا جرى يا كاريمان؟ عبد الحليم حرك أشجانك! لازال أمامنا على الأقل شهر ونصف حتى إجازة نهاية العام الدراسي. يعني تستطيعين أن تقابلي حسن كما تشائين. أنا الذي عاد أخي من رحلته الطويلة، وسيمضي بيننا ثلاثة أو أربعة أشهر يحاسبني فيها عن كل دقيقة أتأخر فيها بالخارج.

ـ سيمنعك من الخروج وحدك؟

ـ لن يمنعني، لكنه يكون في كل مكان في إسكندرية. ربما يكون في شقة أيضا في شارع تانيس في أي لحظة.

ـ هل هومتزمت إلى هذا الحد؟

ـ يعيش حياته كما يريد، مثل غيره من الرجال. ينالون كل اللذات ويعلنون الطهارة علينا.

هزت كاريمان رأسها في أسف وقالت:

ـ في النهاية هو أخوكي. أنا التي يبدو أني سأقتل زوج أمي يوما ما.

ـ ألا يزال يتحرش بك؟

ـ هددته أني سأخبر أمي فضحك ساخرا. هددته أني سأذهب إلى الجامع الذي يصلي فيه وأحكي للناس، فقال لن يصدق أحد فتاة سافرة فاجرة.

وظهرت في عينيها دموع جديدة. حكت ليارا كيف سمعته أمس يقول لأمها أن لديه عريسا لها. لقد دخلت حجرتهما فجأة فسمعت

ذلك. ما إن رآها حتى خرج تاركا الغرفة بحجة الصلاة في الجامع. كانت صورة في يد أمها للعريس. قدمتها أمها لها طالبة أن لا ترفض قبل أن تراها ثم تتعرف عليه. أمها مكسورة جدا فلا أحد من أهلها يقف بجوارها.

ما إن أمسكت كاريمان بالصورة حتى ألقت بها على الأرض دون أن تنظر إليها. الصورة وهي على الأرض ظهر فيها وجه رجل لا يقل عن الخمسين من العمر، عريض الكتفين كثيف اللحية وبلا شارب ويرتدي جلبابا. في الخمسين من العمر. تصوري.قالت كاريمان إنها كادت أن تدوس عليها بقدمها لولا أنها استحرمت ذلك وأخذت تبكي في صدر أمها. قالت لأمها أن تطلب من زوجها الطلاق. إنها تسمع إهانته لها دائما، كما إنها تعمل ولها راتب يكفيها بعيدا عنه، لكن أمها قالت إن طاعة الزوج من طاعة الله.

كانت يارا تسمع في ذهول. وقالت كاريمان:

ـ لقد غسل عقل أمي تماما.

كانت القهوة قد فارت من الغليان ولم تنتبه لها يارا، وكان ما نزل منها على السبرتاية قد أطفأها. انتبهت يارا الآن بعد أن شمت رائحة البن في الغرفة. قالت:

ـ خير. اللهمّ اجعله خير.

تغيرت فجأة محطة الإذاعة، وارتفع صوت الراديو جدا. نظرتا

إلى بعضهما لحظات ثم انطلقتا ضاحكتين. لقد اندفع من الراديو صوت تينا تشارلز تغني:

Dance little lady dance

لم تستطع يارا أن تسكت وهتفت سعيدة:

ـ الله باحب هذه الأغنية جدا. تعيش نوّة عوّة!

تركت المكتب وأمسكت بيد كاريمان التي صارت تضحك بصوت خفيض وقالت لها:

ـ قومي. قومي ارقصي. لازم تنسي كل شيء، وتسمعي كلام تينا تشارلز..

قالت كاريمان وقد عادت الابتسامة إلى وجهها:

ـ والقهوة!

ـ بعد الأغنية أعمل غيرها.

وقفت كاريمان لا تصدق ما تفعله يارا، التي بدت لها طفلة بريئة كما تبدو لها دائما. وراحت ترقص معها بهدوء على صوت وإيقاع الأغنية.

Some one taught me
How to dance last night
What a mover he was
And some one taught me
How to do it right
What a groover he was!

ويارا تضحك وتقول:

ـ أين هو الذي يعلمنا الرقص الآن؟

وتضحك كاريمان.

He taught me all the
Steps to do the rock' n' roll
I found my sense of
Rhythm but I lost
My self control
When he said:
Dance little lady dance

ومدت يارا يدها ترفع صوت الراديو لأعلى، فاندهشت كاريمان جدا وقالت:

ـ باباكي ومامتك نائمان!

قالت يارا وهي تهز رأسها ضاحكة:

ـ ليس مهما. نأخذ حقنا مرة.

ازدادت بهجة كاريمان وضحكت من قلبها.

You know you've only
Got one chance
dance
dance
dance

ويارا تهتف:

ـ ارقصي ارقصي ارقصي

وترقص معها كاريمان باستمتاع كبير.

* * *

بعد أن دخل نادر من باب الملهى رآها في مكانها المعتاد. هي رأته أيضا فتألقت عيناها.

حين وصل إليها لم تقف وتحتضنه كما ودت. خافت إن فعلت ذلك لا تتركه. قالت له بعد أن صافحته وهي جالسة:

ـ غبت عني طويلا يا نادر.

قال هامسا بعد أن تلفت حوله:

ـ ارتبكنا بعد القبض على بشر.

كانت الضجة كبيرة حوله، والراقصة علياء متألقة كعادتها، وحملت عيناه إلى نوال رسالة بسؤال كانت هي توافق بلا إجابة عليه، وهو هل يمكن أن نترك المكان؟ مدت يدها تربت على يده وقالت:

ـ نصف ساعة فقط ونذهب إلى البيت.

ثم نظرت إليه نظرة عميقة وقالت:

ـ كم أنا مشتاقة أن استمع إليك..

مرت ساعة كاملة وهو صامت. كانت تشعر بقلقه. لقد أراد

الجمهور فيها أن تغني. طلبوا ذلك بقوة أكثر من مرة، فوقفت وغنت لنجاة الصغيرة:

بان عليّ حبه من أول ما بان
ياما كنت بحلم والله بحبه من زمان

وكانت تنظر وسط الضوء الخافت يسارها بعيدا حيث يجلس نادر. وراح الجمهور يطلب منها الإعادة حيث بدا أنها تغني بصدق حقيقي.

من أول ما شفت عيونه
أنا قلت الليالي يهونو يهونو
تحميه السما وتصونه.. تصونه، أنا شفت اللي مستنيني
وعرفت اللي حيهنيني
من أول ما بان

ثم ركزت نظرتها على نادر طويلا هذه المرة:

من خوفي عليه مابانامش
وافرش له طريقي برمشي برمشي
هناني وهواه ما رحمش
ليه لما ندا لبيته
وبين الضلوع خبيته
من أول ما بان.

ولم يتركها الجمهور الصاخب حتى غنت الأغنية مرة أخرى. وفي هذه المرة، وعند النهاية، أصاب الحاضرين الجنون، لأنها وهي تغني:

شباك الهوى وفتحته

أشارت بيدها إلى صدرها كأنها تمزق عنه ثوبها وتكشفه، فانفجرت القاعة بالتصفيق والصياح والصفير. ثم..

والدنيا جناين تحته

وأشارت إلى أسفل بطنها من بعيد، فانفجرت القاعة أكثر بالصياح والتصفيق والصفير والهياج، بينما أغمضت بعض النساء عيونهن خجلا وبعضهن ابتسمن في دهشة.

في النهاية اتجهت إلى نادر مسرعة، فأخذته من يده وأسرعت خارجة، وكل من رآها تفعل ذلك اندهش وبعضهم ضحك. على باب الملهى والهواء يتحرك بسرعة كبيرة يطير ثوبها، قالت له وهي تضع يدها على الثوب الطويل من أسفل.

ـ يا ريت أمشي معك في الهواء على البحر. هذه الليلة أنا فرحانة جدا ومجنونة جدا، ولقد رأيت ماذا فعلت بالجمهور. أول مرة في حياتي أعمل كده. مرة واحدة من نفسي لأني فرحانة بيك جدا.

كان صوت البحر عاليا أمامها. وقالت:

ـ للأسف لا يمكن. هيا بنا.

ودخلت إلى سيارتها الفيات فدخل إلى جوارها.

الآن في شقتها بدت أهدأ انفعالا، بعد أن غيرت ثيابها وارتدت قميص نوم جميل وعادت إليه في الصالة لتقول له من جديد:

ـ غبت عني طويلا يا نادر.

قال لها نفس الرد:

ـ ارتبكنا بعد القبض على بشر.

ـ تصورت أنكم نسيتموني.

ـ يمكن أن ينساكِ كل الناس يا مدام نوال لكني لا أستطيع.

ـ قل لي يا نوال فقط حتى أصدقك.

ـ خفت فعلا أن أمر عليك. لم أشأ أن أسبب لك شيئا يزعجك.

نظرت إليه ثم ابتسمت وقالت:

ـ لم نشرب شيئا ولم نتعش في الملهى. ما رأيك أن نأكل ونشرب الآن..

وقبل أن يتكلم وقفت واتجهت إلى المطبخ. دقائق وعادت ومعها عربة صغيرة عليها أطباق من الجبن وعسل النحل والزبادي والخبز نقلتها إلى السفرة ثم دعته إلى الجلوس.

ما إن جلس حتى تركته وعادت بسرعة بزجاجة نبيذ وكأسين. فتحت الزجاجة وملأت الكأسين. رأته ينظر إليها نظرة طويلة. قالت:

ـ هل جئت معي لتراني فقط؟

قال:

ـ اشتقت إليك جدا.

قالت:

ـ سأسمع شعرا جديدا. إياك أن تقل لي لم تكتب شيئا..

ـ كتبت قليلا.

تنهدت وبدا عليها الارتياح. راحا يأكلان على مهل في صمت. قال فجأة:

ـ هناك شيء آخر جعلني أخشى الحضور إليك.

نظرت إليه حائرة فقال:

ـ انضممت إلى الحزب الشيوعي المصري.

نظرت إليه مندهشة وتوقفت عن الأكل وسألته:

ـ هل هناك أحزاب في مصر الآن؟

ـ حزب سري.

ارتبكت لحظة. ارتبك هو أكثر. ما كان واجبا أن يخبرها أبدا. لم يعد ممكنا التراجع. قالت:

ـ ولماذا تخبرني بذلك.؟

ارتبك من جديد. قال:

ـ بصراحة لا أعرف. على أي حال أنا آسف إذا كنت سببت لك أي ارتباك.

ابتسمت ابتسامة كبيرة. قالت:

ـ لم ارتبك. على العكس. أنت تعيدني إلى زمن جميل كما قلت لك من قبل.. لكنه حزب سري كما تقول، فكيف تخبرني بذلك؟

ـ لأني أثق بك.

ـ أعرف. لكن انتبه إلى نفسك حتى لا تتكرر القصة معي وأفقدك ـ وسكتت لحظات ـ لكني أعرف من زمان أن الأحزاب الشيوعية حلت نفسها بعد الخروج من المعتقلات عام ١٩٦٤.

ـ منذ أعوام بدأ أكثر من حزب تنظيم نفسه.

ـ إذن الاتهامات التي توجه للمعتقلين كل عام صحيحة؟

ـ ليست كلها طبعا. كثير منهم ليسوا كذلك. الشيوعية هي التهمة الجاهزة عند جهاز أمن الدولة. أنت علمتيني ذلك..

ابتسمت وسكتت. سكت بدوره. انتهيا من الأكل وعادا إلى مكانهما الأول. أخذت ما تبقى من الجبن ووضعته أمامهما وزجاجة النبيذ والكأسين.. جلست بجانبه هذه المرة. أحاطته بذراعها وقالت:

ـ لم يسعدني شيء يا نادر قدر أنك تذكرتني الليلة. وإن كنت أعرف أني لن أبقى كثيرا في مصر..

ـ قلتِ لي ذلك من قبل. وقلتِ إنك ستوضحين لي ذلك فيما بعد..هل يمكن أن أعرف الليلة؟

قالت باسمة:

ـ حدثني أولا عن أصحابك. بشر وحسن. لقد عرفت بنبأ القبض

على بشر من الصحف، لكن ليس معي رقم تلفون لأي منكم، لذلك لم أتصل بكم.. طبعا لا أعرف أيضا بيتكم أو بيوت عائلاتكم. كنت أود أن أقدم أي مساعدة.

ـ تم الإفراج عن بشر بعد شهر واحد والحمد لله. بعدها دخلنا جميعا إلى العمل السري.

ضحكت وقالت:

ـ وتفشي لي أسرار أصحابك أيضا؟

ابتسم في حيرة من نفسه. قال:

ـ حسن للأسف رفضوا له مسرحية بعد أن تعاقدوا معه عليها في قصر ثقافة الحرية.

ـ القصر الموجود في شارع فؤاد أمام نقطة شريف؟

ـ بالضبط.

ـ لماذا رفضوها. لعيب فني مثلا أم الرقابة؟

ـ وافقوا فنيا ووافقت الرقابة، وعند بداية البروفات توقف كل شيء. لا بد أنها تعليمات من جهاز أمن الدولة. أدركنا ذلك. لهم عيون في كل مكان. رغم أنها مسرحية عبثية اسمها السماء الثامنة. لا يعرفون أن مسرح العبث نفسه مرفوض في الاتحاد السوفيتي الذي يتهمونا به. أي والله. بيكيت ويونيسكو كاتبان ممنوعان في الاتحاد السوفيتي!!

نظرت إليه بإعجاب وابتسمت، رغم أنها لا تعرف مسرح العبث

الذي يتحدث عنه، ولا تعرف المؤلفين اللذين يتحدث عنهما. القدر يضع المثقفين في طريقها دائما. وسألها:

ـ بالمناسبة ماذا فعلت في ديوان عصمت مفتاح؟

قالت:

ـ ذهبت به إلى الحاج الرملي. بائع الكتب في محطة الرمل. قال لي أن أحضر موافقة الرقابة أولا. سألني عن عصمت مفتاح من يكون. أخبرته. قال لن توافق الرقابة. قلت له لقد مات. قال لا أحد يموت عند جهاز أمن الدولة.

ـ غريب. رغم إنه يبيع كتابا لعيسى سلماوي؟!

ضحكت وقالت:

ـ رأيته عنده. كتاب «معنى البيان الشيوعي» سألته كيف تبيع هذا الكتاب ولا تساعدني في نشر ديوان شعر؟ قال لي هذا صاحبه حي وحصل لنفسه على موافقة الرقابة ونشره على نفقته. أنا لم أنشره، ولا أحد يشتريه. صاحبه مجنون. ضحكت. لا يعرف أني أعرف عيسى سلماوي.

فكر نادر لحظة ثم قال:

ـ غريب أيضا أن يحصل عيسى سلماوي على موافقة الرقابة. أليس كذلك؟

انتبهت إلى ما يقصد فقالت في جد وإن ظل صوتها خفيضا:

ـ إياك أن تظن أن لعيسى اتصال من أي نوع مع أمن الدولة. عيسى

شخص طيب جدا. مؤكد أنهم لا يأخذونه مأخذ الجد.هذا رغم أنه يجد من يقتنع بما يقول أحيانا مثلكم.

ـ على أي حال نحن لا نراه كثيرا هذه الأيام، ولم نخبره بمسألة الحزب السري. ربما حقا يتركونه يفعل ما يفعله ليجدوا متهمين لهم وهو لا يدري.

ضحكت وارتفع صوتها. رفعت كأس النبيذ أمامه وقالت:

ـ لم تقل لي الليلة في صحتك.

رفع كأسه وقبلها على خدها وقال:

ـ جوار فرش كتب الرملي هناك عم السيد. أنا أستعير منه الكتب الغالية أقرأها نظير مبلغ بسيط. أستطيع أن أسأله ربما يرشح لي ناشرا للديوان.

ـ لا تشغل بالك. الحاج الرملي قال لي المفيد. أن أجد طريقة لنشره في بيروت. لقد أعجبه الديوان جدا. لكني فكرت أن لا أنشره. سأتركه لك قبل أن أسافر لتنشره أنت. الآن هو يخصني وحدي، والأفضل أن لا يشاركني فيه أحد.

ثم وقفت قائلة:

ـ كيف لا نسمع موسيقى. كيف نسيت؟

أدارت جهاز البيك أب القديم، ووضعت أسطوانة موسيقى تركية ثم قالت:

ـ هذه موسيقى رائعة أشتريتها حين زرت إستانبول..

ـ هل سافرت إلى تركيا أيضا؟

ـ مرة واحدة.

ارتفعت الموسيقى الهادئة في فضاء الصالة الواسعة. موسيقى بها مسحة حزن خفيف ظهر أثرها على وجهه بسرعة، فدخل في شرود سريع لحظة، ثم قال لها بعد أن عادت تجلس إلى جواره:

ـ لم تحدثيني حتى الآن عن مسألة سفرك من مصر. لا تلوميني هذه الموسيقى أشبه بوداع حزين.

أخذت نفسا عميقا وأغمضت عينيها لحظة. قالت:

ـ سأحكي لك كل شيء.

وضعت رأسها على صدره وحدثته كيف أنها حين سافرت إلى باريس أول مرة، كان ذلك بدعوة من صديقة يونانية تركت الإسكندرية مع أهلها عام ١٩٦٥ . كانت زيارتها الأولى منذ خمس سنوات فقط. صارت مدمنة زيارات لباريس كل عام. قال:

ـ كنت تبحثين عن حبيبك الضائع.

قالت ومازالت رأسها على صدره:

ـ ربما. لكني حين وصلت إلى هناك سألت نفسي ما معنى أن تضع الفصل الأخير في رواية انتهت. غرقت مع صاحبتي في باريس التي لا تشبع منها أبدا.

ثم رفعت عينيها إليه وفيهما فرح طفولي وقالت:

ـ لكن حدث شيء آخر لم يكن في حياتي أبدا.

سكت ولم يتكلم. أحس بالحيرة فاستمرت تتحدث.

ـ كان هناك شاب صغير أثناء الحرب العالمية الثانية. كان في المدرسة الثانوية. كنت أنا طفلة. ربما في الخامسة أو السادسة من عمري. كان أبوه عاملا في السكة الحديد مع أبي. كانت له قصة حب عرفناها فيما بعد مع فتاة مسيحية من غيط العنب، كانت أسرته تسكن مع أسرنا في مساكن السكة الحديد الموجودة على المحمودية بين كرموز وكفر عشري. هل تعرفها؟

ـ لا.

ـ هل تعرف غيط العنب؟

قال ضاحكا:

ـ طبعا. كلها مخدرات الآن. تفوقت على جبل ناعسة، لكني لم أذهب إليها.

ضحكت ثم قالت:

ـ المهم. بعد الحرب العالمية الثانية سافر رشدي، هذا اسمه، إلى فرنسا. بعد ذلك تركت أسرته المساكن بسرعة. انقطعت أخبارهم لكن قصته ظلت معروفة بيننا، وكثيرا ما يذكرها الناس متعجبين كيف حقا أحب رشدي وهو في سن صغيرة فتاة ومسيحية أيضا، وكيف انتهت قصة الحب بسبب اختلاف الديانة؟ الفتاة كان اسمها كاميليا. أعرف اسمها فقط طبعا لأنهم كانوا يذكرونه إذا ذكروا القصة. يقولون إنها

صارت راهبة في دير في الصعيد زمان.ونحن الذين كنا أطفالا لم ننساه أبدا. كان لا يتكلم كثيرا ويبدو دائما في يده كتاب يقرأ فيه على سطح المنزل أو على شاطئ ترعة المحمودية.

تساءل مندهشا:

ـ هو سافر من مصر وهي صارت راهبة؟

ـ هذا ما كان يحكيه الكبار أمامنا.

قال في دهشة:

ـ حكاية غريبة.

لكزته في صدره بحنان وقالت:

ـ المهم. اسمع بقية القصة. قصتي أنا في باريس.

أخذها في حضنه يشعر بها طفلة حقيقية رغم عمرها. قال:

ـ إياكِ أن تقولي قابلتيه هناك!

ـ قابلته فعلا.

أبعدها عنه قليلا ونظر في عينيها وهي تضحك. قال ضاحكا بدوره..

ـ لا. أنتِ مؤلفة أفضل من يوسف السباعي. والله لا يوسف السباعي ولا محمد عبد الحليم عبد الله يستطيع أن يؤلف هذه القصة المليودرامية. ربما يستطيع حسن الإمام مخرج المليودراما إخراجها للسينما.

راحت تدق على صدره بيدها وهو يضحك وهي تقول له:

ـ اسمعني. أنت سألتني وخلّتني أتكلم وصدقني.

ضمها إليه وقال:

ـ تكلمي يا ست الكل.

قالت:

ـ والله أنا نفسي لا أصدق. المهم. كنا نتعشّى في مطعم يوناني بمنطقة «راسباي». مطعم يغني فيه جورج موستاكي. هو أيضا يوناني من الإسكندرية وهاجر منها. رأينا رجلا في حوالي الخمسين من العمر مصري الملامح يجلس وحده. ما إن رأته إيريني، صاحبتي اليونانية، حتى قامت واتجهت إليه تصافحه. بدا سعيدا ودار بينهما حوار أشارت فيه إليّ. بدا سعيدا وهو ينظر إليّ ورفع يده يحييني، ثم فوجئت بإيريني تعود إليّ وتطلب مني أن ننضم إليه. كان أستاذها بالسوريون حيث أكملت تعليمها..

وسكتت نوال. بدا أنها تتذكر وترى في سعادة كل ما جرى بعد ذلك.

قال:

ـ وماذا بعد؟

ـ سأكمل الحكاية. يبدو أنني لن أسمع شعرا الليلة.

وحدثته على مهل. بدا أنها حقا نسيت رغبتها في سماع الشعر. عرف الرجل أنها صاحبة ملهى ليلي في الإسكندرية فابتسم. عرف أنها كانت تعرف بعض الشيوعيين الذين قبض عليهم نهاية عام ١٩٥٨، فهز رأسه كأنه يعرف القصة. ولما سألها من أي حي هي

في الإسكندرية وأخبرته، اتسعت عيناه دهشة. قال مبتسما هل يمكن أن يخرج من هذا المكان أحد يعرف الشيوعية؟ قال ذلك في دهشة حقيقية. سألته هل يعرف المكان؟ قال إلى حد ما، ولم يتحدث بقية السهرة. أكلوا وشربوا واستمعوا إلى جورج موستاكي وانصرفوا، لكن شاء القدر أن تقابله مرة أخرى ومعها إيريني أيضا، في مطعم مغربي بشارع سان جيرمان. لقد صارت تحفظ كثيرا من معالم باريس الآن. قررت أن ترد له عزومته السابقة لأنه رفض من قبل أن تدفع أي منهما حسابها. ضحكوا من الصدفة. قال لها وهم يأكلون:

ـ سألتيني من قبل هل أعرف المكان الذي نشأتِ فيه وقلت لك إلى حد ما.

سكتت ولم ترد.نظرت إليه في دهشة. قال:

ـ أنا أيضا من هناك.

كانت قد عرفت من إيريني أثناء الجلسة السابقة أن اسمه مسيو رشدي المصري، وأنه معروف في باريس كأستاذ في الأدب المقارن. ولما ابتهجت بكونه من نفس المكان الذي ولدت فيه، طلبت منه أن يخبرها كيف أنه من هناك ولم يسبق لها رؤيته هناك؟! وعدها أن يخبرها فيما بعد. لكنها طلبت من الله في سرها أن تعرف كل شيء عنه في هذه الزيارة وليس غيرها. قد تأتي مرة أخرى فلا تجده. كان واضحا على وجهها رغبتها في المعرفة. من هو حقا؟ أعطاها رقم تلفونه. قال لها أن تتصل به حين تأتي إلى باريس من جديد. لم يكن يعرف أنها ستبقى أسبوعا آخر،

ولم تكن تعرف أنها ستقابله صدفة أيضا بعد ثلاثة أيام في مطعم بالأوديون. هذه المرة ضحكت في سعادة كبيرة. هو أيضا قال لها إن القدر يرتب لقاءات غريبة. لم يتحدثا في شيء تلك اللية. ولكنها لم تكف عن النظر إليه في إعجاب حتى أخجله ذلك، ورأت الخجل على وجهه أكثر من مرة. قررت أن تلقاه منفردة. قالت لنفسها فلتجرب. اتصلت به في الليلة نفسها فإذا به ببساطة شديدة يعطيها موعدا في مقهى بالسان ميشيل. إذن ستلقاه وحدها. هذا ماتريده. كانوا في الصيف، والنور يملأ الدنيا، والناس تتحرك كأنها أقواس قزح من ألوان ملابسها، والعري الظاهر من أجساد النساء يعكس الضوء في كل مكان. كل شيء كان مبهجا، حتى الجرسونات كانوا يتحركون بين الجالسين في سرعة ونشاط كبيرين، بين المقاعد الكثيرة الممتدة على الرصيف الواسع جدا. عرفت أن اسمه الحقيقي رشدي عبد الغني، فتذكرت القصة كلها، ونظرت إليه غير مصدقة. القصة كانت تحكى كحقيقة لكن من يسمعها كان يتخيل أنها أسطورة ومحض خيال. قالت له في ذهول كبير، أنت رشدي الذي أحب المسيحية كاميليا، فهز رأسه باسما. قال إنه تزوج هنا في باريس، ولديه ولدا وبنتا يعملان ويدرسان في الجامعة الآن، لقد انقطعت صلته بأهله للأسف، ولا يعرف كيف حدث ذلك، إذ كان يرسل إليهم حتى وقت قريب بعض المال. بعد موت أبيه وأمه اللذين لم يرهما منذ غادر الإسكندرية إذ لم يعد إلى مصر أبدا، قلت المراسلات مع إخوته، ثم انقطعت تماما. ثم ابتسم وقال:

ـ كنتم تعرفون القصة وتحكونها؟

ـ طبعا. من في ذلك المكان لم يكن يعرف القصة؟

وحدثته هي أيضا بتفصيل كبير عن أحمد الطبيب الذي أحبته، وأخذها إلى الشيوعيين لأول مرة، وكيف أحبتهم، وما جرى بعد ذلك. وكيف تزوجت زعيمهم بعد خروجه من المعتقل، وأعطاها كل ما يملك ثم رحل إلى الاتحاد السوفيتي، وهناك مات.

ولما سألها عن اسمها قالت نوال حمزة. بدا يفكر بعمق. قال إنه يتذكر بين عمال السكة الحديد رجلا طيبا بشوشا كان اسمه حمزة خطفه الإنجليز في الحرب العالمية الثانية. ضحكت وقالت إنه أبوها. وضحكا كثيرا ذلك اليوم.

لم يلتقيا مرة أخرى إلا بعد عام. وهكذا صارا في كل عام يلتقيان حتى الآن.

في لحظة ظن نادر إنها مثل روايح تحكي قصصا متخيلة أو قصصا تتمناها، ربما المهنة في الملاهي الليلية لا تترك مساحة للقلب إلا في الخيال، لكنه قال متنهدا:

ـ حكاية غريبة جدا فعلا..

قالت بحماس:

ـ إذا تركت الإسكندرية سأعيش في باريس. أفكر أن أشتري مقهى صغيرا هناك أو نايت كلوب صغير.

ـ لكن هذا لابد مكلف جدا.

ـ مؤكد. لكن الذين يعرضون عليّ شراء الملهى لتحويله إلى قاعة أفراح يعرضون نقودا خيالية تزداد كل يوم ـ وضحكت ـ أحدهم شخص اسمه الشيخ زعلان، يسميه الناس زعلان من وجود الملاهي، ويعلن دائما ذلك لمن حوله. إنه يفكر في شراء السينمات أيضا، وخاصة في الأحياء الشعبية.

قال مندهشا:

ـ ما هي حكاية الشيخ زعلان معي اليوم؟

سألته:

ـ تعرفه؟

ـ لا طبعا. لكن عرفت قصته اليوم من روايح وغادة اللتين تسكنان تحتنا وتعملان في ملهى ليلي. لكن مسألة شراء السينمات لم أعرف عنها شيئا من قبل.

سكتت لحظات وقالت:

ـ لو استطاعوا أغلقوا كل ما فيه متعة للناس. هناك من يدفع ويمول هذا كله.

كانت خيوط الفجر تتسلل من خلف النوافذ. وصوت الريح لا ينقطع. وبدا هو جامدا لا يتحرك. قالت بعد لحظات.

ـ ما زلت أشعر إنك أتيتني لشيء آخر. هل هناك مشكلة بينك وبين يارا؟ هل يقلقها إنك ستسافر إلى القاهرة بعد التخرج كما قلت؟ هل حدثتها مثلا ورفضت الفكرة؟

هز رأسه نافيا. ثم وقف وأمسك يدها فوقفت أمامه. أخذها إلى حضنه فقالت:

ـ لم نسمع الشعر.

راح يقبلها بهدوء وقال.

ـ لم أعد أرى أو أذكر شيئا إلا أنت.

وقبلها قبلة طويلة، ثم تحرك بها إلى غرفتها وهو يسأل نفسه، هل صار مثل بشر زهران، كلما ضاقت به الدنيا اتسعت بامرأة، أم يحبها حقا ولا يدري؟

* * *

في كافتيريا الكلية جلسوا سعداء حول عيسى سلماوي. سعادتهم هذه المرة كانت بانتهاء السنة الدراسية. لم يتبق لهم إلا مادة واحدة هي مادة علم النفس، التي يتندرون على أستاذها الذي كتب كل الشهادات التي حصل عليها على أغلفة كتبه الأربعة، التي اكتشفوا أيضا أنها كتابان اثنان، منهما كون فصول الكتابين الآخرين، ووضع لهما عنوانين جديدين. لم يكن أي منهم مشغول الآن بأمر الفراق في الإجازة. جو الامتحانات والصيف الذي أشرق فخلع الجميع فيه ثيابهم الثقيلة، ولمعت أذرع الفتيات.

كان الطلاب الذين سيكون امتحانهم بعد الظهر، يتفرقون في الحدائق وأمام مدرج العبادي، وعند ملعب التنس، يراجعون ما

ذاكروه استعدادا للامتحان، وبعضهم يجلس يراجع دروسه في الكافتيريا في صمت.

كان عيسى قد انقطع كثيرا عن الدراسة في الأسابيع السابقة، واستغرق في دراسته لتاريخ الإسكندرية وعمارتها. كان قد وضع بالفعل خطته، أن يكون حديثه معهم عن عراقة المدينة ووضعها التاريخي، أكثر من حديثه عن الماركسية. واليوم فكر أن يكون حديثه عن التاريخ ممزوجا بأمثلة واقعية. قال لهم:

ـ ما رأيكم ما دامت المادة الباقية سهلة، أن نبدأ برنامجا من الرحلات لنعرف الإسكندرية الحقيقية.

نظروا إلى بعضهم وكادوا يضحكون. أي برنامج الآن وقد بقى لهم لقاء واحد وتنتهي الدراسة. يارا لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك فأخفت شفتيها بيدها وكتمت صوتها.

كان حسن يخطط لاصطحاب كاريمان إلى الشقة، ونادر اعتذرت له يارا التي بدت مرهقة. ولما سألها عن سر الإرهاق قالت إنها المذاكرة والسهر، ولم يعرف أنها الدورة الشهرية اللعينة، سأله بشر:

ـ ماذا تقصد بالضبط ياأستاذ عيسى. حدثتنا بالفعل من قبل عن تاريخ الإسكندرية ونصحتنا بكتب نقرأها، لكن ماذا تقصد الرحلات داخل المدينة ونحن نعيش فيها؟

كادوا يضحكون من جديد فقال عيسى:

ـ أقصد أن نزور المتحف اليوناني الروماني مثلا، أو عمود

السواري، أوقلعة قايتباي، أو كثيرا من الآثار التي لا يعرفها أحد. والأهم هو زيارة المقابر.

حطّ عليهم الصمت وتبادلوا النظر فاستكمل:

ـ مقابر الشاطبي تحفة تاريخية. حافظة لتاريخ الإسكندرية ربما لا يتخيلها أحد. أفكر أن أذهب إليها اليوم. الساعة الآن الواحدة وهي تغلق أبوابها في السادسة.

لم يرد عليه أحد. ظهر من خلف الزجاج الطالب الوسيم محمد شكر، الذي أخبرهم أحمد باسم من قبل إنه رآه مع فوقية ابنة الوزير يدخلان ترياتون. كان محمد شكر يمشي مع فوقية باسما يمسح بيده على شعره الأصفر الخفيف، وهي شعرها الطويل منسدل على ظهرها، وترتدى فستانا رائعا. رءوهما كلهم في وقت واحد، فقال حسن مبتسما ابتسامته الصغيرة.

ـ فعلا محمد شكر يحب فوقية!

قال عيسى سلماوي:

ـ ألا تعرفون ذلك؟

نظروا إليه بدهشة. قال:

ـ أنا الذي لا أحضر كثيرا أعرف.

قال بشر:

ـ نحن لانراها إلا قادمة مع أختها التوأم فوزية، أو عائدة معها، وعند باب الكلية ينتظرهما السائق بالسيارة. نادر ما يتحدثان إلى أحد.

هزت كاريمان رأسها وقالت:

ـ اتركوا سيرة الناس واسمعوا الأستاذ عيسى.

ثم قالت لعيسى:

ـ أنا أتشاءم يا أستاذ وسامحني من زيارة المقابر، وخصوصا في الامتحانات.

ضحكوا. ولم يضحك عيسى الذي يبدو دائما جادا ثم أردفت:

ـ هل رأيتم محل ملابس المحجبات الجديد في شارع صفية زغلول؟

تبادلوا النظرات في دهشة فقالت يارا:

ـ ماذا تعني ملابس المحجبات؟

قال بشر:

ـ أنا شفته. كان أصله محل جزم. محل بريوني. هذا أول محل يغير نشاطه. سيصبح ذلك عاديا في الأيام القادمة. لماذا يا أستاذ عيسى لا يوجد بين الماركسيين أغنياء يوسعون الملاهي ويزيدون السينمات ويفتحون محلات ملابس للطبقة العاملة؟

ضحكت يارا ضحكة قوية لفتت انتباههم. شعرت بالخجل وقالت:

ـ آسفة. لا أعرف ملابس المحجبات فهل سأعرف ملابس الطبقة العاملة؟ آسفة جدا..

ثم خاطبت عيسى قائلة:

ـ أنا أيضا مرهقة جدا يا أستاذ ولا أستطيع الذهاب إلى المقابر.

قال نادر مبتسما:

ـ وأنا يمكن أن أذهب معك يا أستاذ عيسى في يوم آخر.

وقال حسن:

ـ وأنا أيضا. اليوم أحتاج إلى نوم عميق.

ونظر إلى كاريمان نظرة ذات مغزى رأتها يارا فابتسمت. قال بشر:

ـ أنا سأذهب معك يا أستاذ عيسى. أنا مزاجي حلو اليوم. وأكيد الموتى سيعكرون مزاجي وهو المطلوب.

ضحكوا. كان حسن ونادر فقط يعرفان ما يقصد. سينتهي من المقابر ليزور الشقة حيث يلتقي روايح وغادة. لايحتاجهما إلا في حالات الضيق والغيظ.

مشى بشر مع عيسى سلماوي حتى المقابر. كان عيسى يسبقه في المشي، ولم يكن بشر مندهشا من اتساع خطوته فهو طويل بالنسبة إليه، لكن من سرعته. لماذا حقا يسرع هذا الرجل في الطريق كأنه ذاهب إلى الجنة، رغم أنه ذاهب إلى الموت؟ وكان بشر يبتسم ويكاد يضحك.من أول بوابة قابلتهما، بوابة الأقباط الأرثوذوكس، دخلا. بدأ عيسى يتكلم. وقف بين مقبرتين وقال:

ـ قبل أن ترى كثيرا من الأسماء المهمة التي احتواها تراب

الإسكندرية هنا، لابد أن تعرف أن تعدد أقسام المقابر دليل كبير على كوزموبوليتية الإسكندرية. تعدد أجناسها ودياناتها، ومذاهبها أيضا.

كان بشر ينظر إلى أعداد قليلة من النساء الجميلات، يرتدين الملابس السوداء، على وجوههن حزن وصمت، لكن بشرتهن تنطق بالنعمة والجمال. قال عيسى:

ـ هنا مقابر الأقباط الأرثوذوكس، وسنذهب إلى مقابر الأرثوذوكس اليونان، والأرثوذوكس الأرمن، والكاثوليك السوريين، والكاثوليك الأرمن، والكاثوليك اللاتين، ومقابر اليهود والإنجليكان. لاحظ تعدد المذاهب والأجناس. والأهم مقابر المفكرين الأحرار، هؤلاء الذين لم يكونوا تابعين لأي مذهب أو دين.

قال بشر:

ـ طول عمري أتصور أن هنا مقابر الأقباط المصريين فقط..

قال عيسى مبتسما:

ـ من أول شريط الترام حتى شارع جمال عبد الناصر منطقة تعلن بالموتى عالمية الإسكندرية!

بعيدا عن مقابر الأقباط الأرثوذوكس قلت أعداد الناس. لم يعد يظهر لهما أحد. في وسط مقابر اليونانيين الأرثوذوكس، قال عيسى..

ـ ألا تلاحظ أن لا أحد هنا غير الحارس والجنايني والكلاب؟

انتبه بشر. اتسعت عيناه. قال:

ـ طبعا لا يوجد يونانيون تقريبا في الإسكندرية. لكن ما كل هذه الكلاب؟

ابتسم عيسى وقال:

ـ الوحيد الباقي من اليونانيين تقريبا هو صديقي العزيز خريستو. أما الكلاب فهي من ملامح المقابر في أي مكان في مصر. لا تخف.

واستمر عيسى يمشي ومعه بشر والكلاب تحوطهما. من الأرثوذوكس اليونان إلى الكاثوليك. وإذا بعيسى يتوقف طويلا أمام مقبرة صغيرة من الرخام الأبيض، جوارها مقبرتان أخريان صغيرتان. الكتابة على المقابر كلها هنا باليونانية. لا يعرف بشر منها إلا تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة. طالت وقفة عيسى أمام المقابر الثلاثة الصغيرة، جوارها على الناحيتين تمثالان أحدهما فيما يبدو للإله أبولو والثاني لأفروديت. في الحقيقة كانت التماثيل الكثيرة هي ما يشد انتباه بشر. تماثيل يونانية في أوضاع حب وطيران وقوة. تماثيل لمريم والمسيح.تماثيل كثيرة متفرقة. قال فجأة.

ـ من هؤلاء؟

كان يقصد من في المقابر التي يقف أمامها عيسى. لم يرد عيسى. بدا مذهولا ثم قال:

ـ بيرسا.

سكت بشر. إنه لا يعرف أحدا مشهورا بهذا الاسم. لكن عيسى قال فجأة:

ـ يبدو أني سأكون مثل خريستو.

نظر إليه بشر الذي لا يعرف خريستو ولا بيرسا وسكت. استطرد عيسى:

ـ بيرسا لاتزال حية. هذه مقابر أبيها وأمها وأختها الكبيرة. هي في اليونان الآن. قابلتها عام ٦٦ في أتينيوس مع خريستو. كانت شابة. وكانت جميلة. لم يكن خريستو قادرا أن يجاريها في الرقص. رقصت أنا معها. واعدتها ثلاث مرات ثم سافرت إلى اليونان قبل أن أعلن حبي لها.

سكت بشر ولم يعلق. مشى إلى جوار عيسى الذي لازمه الصمت لحظات كان يقول فيها لنفسه، الروما نسيون نوعان يا عيسى، نوع يحاول تغيير العالم، ونوع تتحول حياته إلى ميلودراما. أنت ترفض أن تعترف بالثانية وتتمسك بالأولى، بينما كل شيء جميل قد تسرب من بين يديك.

كان بشر يشعر بجلال الموقف. لابد أن عيسى الآن حزين. كان يبدو له حزينا حقا. لذا التزم بشر الصمت، حتى وقفا أمام مقبرة كفافيس. طالت وقفتهما.فكر بشر كيف حقا لم يقرأ شيئا لكفافيس حتى الآن، وهو الشاعر الذي لا يأتي اسمه إلا مرتبطا بالمدينة. وصار عيسى نشطا فجأة وأخذ بشر إلى مقبرة أنطونيادس صاحب الحديقة والقصر المشهوراللذين يحملان اسمه في منطقة النزهة، ثم إلى مقبرة سلفاجو وأنسطاسي وكوستا وبيانكي وجليمونوبلو وأفيروف وزورباداكي وغيرهم من أعيان الإسكندرية ورجال اقتصادها الذين لاتزال أسماؤهم في سماء المدينة، تركوها على محلات أو مدارس أو مستشفيات أو

في ذاكرة الكبار، رغم ما جرى على صناعاتهم وتجارتهم بالتأميم في عهد عبد الناصر، هم وغيرهم مثل صاحب الصالون الأخضر والبن البرازيلي، رغم أن اليونانيين كانوا في مدينة من صنعهم أصلا، ولم يكونوا يشعرون أنهم جالية مصرية، بل مصريون أكثر من غيرهم. لقد وعدهم ناصر أن لا يطولهم التأميم لكنه أخلف وعده. هكذا كان يحكي عيسى ثم يستدرك كماركسي حقيقي، وهذا حدث مع المصريين أيضا ورضينا به. ليس ثمة ظلم لأحد. لكن المهم أن المدينة كانت تتسع لكل الأجناس والأديان. هكذا بناها الإسكندر. هل تعرف ماذا حدث وهو يقف بين مهندسيه ليطلعوه على تخطيط المدينة؟

قال بشر:

ـ لا.

ـ لم يجدوا الجير الذي يرسم به المهندس دينوقراطيس المدينة على الأرض. رسم له تخطيط المدينة بالحبوب، وماكاد ينتهي حتى هبطت الطيور من السماء مسرعة تأكل الحبوب.

ضحك بشر فاستمر عيسى:

ـ بدا أن الإسكندر قد تشاءم، لكن أحد رجاله قال له لا تتشاءم سيدي هذا فأل حسن، فهذه المدينة ستكون للبشر من كل الدنيا.

وقف بشر واجما يفكر في هذه الحقيقة التي استمرت قرونا طويلة، ويسأل نفسه ماذا جرى للإسكندرية حقا وماذا يجري فيها الآن؟ لكن لأن الأسماء التي على الشواهد كلها باليونانية فكر بشر أن عيسى قد يأتي هنا كثيرا لأنه يعرف بسهولة أين يوجد من يريد أن يرى مقبرته.

ومشى معه صامتا معجبا بالتماثيل اليونانية المبهجة وبتماثيل العذراء مريم والمسيح وفعل عيسى الأمر نفسه أمام مقابر البروتستانت الإنجليز. هنا كانت الأسماء بالإنجليزية، وأدهشه أن بعض الموتى كان أهلهم حريصين أن يكتبوا أنه مات في منطقة الرمل، وحين دخل به إلى مقابر الكومنولث أذهل بشر اتساعها ونظافتها وتناسق أرضيتها النجيلية وأشجارها. قال له عيسى إن معظم المدفونين هنا من ضحايا الحرب العالمية الثانية. وهذه المقابر هي ومقابر الحلفاء في العلمين، تلقى رعاية دول الكومنولث حتى الآن، لذلك هي جميلة ونظيفة. وطافا بمقابر الأرمن التي وقفا فيها صامتين فلا أحد منهما يعرف الأرمنية، وبدا لبشر أن عيسى لم يزرها من قبل. وبدا على عيسى التعب فقال بشر باسما:

ـ يكفي هذا اليوم. لقد مشينا كثيرا ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن تفعل بنا الكلاب بعد ذلك.

ابتسم عيسى وقال:

ـ ندخل بسرعة إلى مقابر اليهود.

ـ لا مانع.

قال بشر. لكن حارس المقابر قال لهم إن الزيارة ممنوعة إلا بتصريح. هذا إجراء وقائي أخذته الطائفة اليهودية، والتصريح يكون منها.

ابتسم بشر ساخرا وقال:

ـ وأين هي الطائفة اليهودية؟!

هزّ عيسى رأسه وانصرفا آخذين طريقهما إلى شارع الإسكندر الأكبر القريب جدا، فالمقابر تقع على ناصيته وإن كان بابها يبتعد عنه بأمتار. توقف عيسى فجأة وأمسك بيد بشر وقال:

ـ نسينا مقابر اللاتين ومقابر المفكرين الأحرار؟

قال بشر:

ـ نأتي إليها يوما آخر.

ابتسم عيسى وقال:

ـ هي فسحة على أي حال. كلما ضاقت نفسك تعال هنا لتعرف عظمة هذه المدينة.

لم يبدو أن بشر قد اقتنع بما يقوله خاصة أنه قد بدأ يشعر بالتعب أيضا من التجوال، لكن كان في ذهنه حقا دهشة وانسجام، عكس ما توقع تماما. لقد رأى مقابر لعظماء من كل الملل والأجناس. يعرف أسماء بعضهم من قبل ولا يعرف أسماء الكثيرين. فلماذا حقا توقع من قبل أن يتملكه الغيظ؟ هذه المدينة حتى لو لم تعرف عظماء مرة أخرى، فيكفي أنها قد عرفت كل هؤلاء. قال عيسى:

ـ سيأتي يوم أذهب معك فيه إلى مقابر الشاطبي القديمة، ومقابر الرومان في منطقة الرأس السوداء. وانظر حتى مقابر المسلمين في كوم الشقافة جوار منطقة أثرية عظيمة، كأنها تعلن للعالم أن التاريخ في الإسكندرية لا يمكن فصل أجناسه وأديانه بعضها عن بعض.

لم يكن بشر يفكر في هذا من قبل أبدا، رغم أنه ذهب أكثر من مرة

في جنازة أحد الأقارب أو الجيران ليدفن هناك في مقابر العمود، التي هي جوار عمود السواري! لكن في هذه اللحظة فقط أدرك بشر أن الحديث عن الموت أخذ أكثر مما يجب، وشعر بأسنانه تكاد تصطك في بعضها. طعم مالح يخرج إلى فمه من جوفه. إذن ليذهب إلى الشقة يطفئ الغيظ المفاجئ في روايح أوغادة! الآن.

-٦٠-

بلغت حرارة الطقس في الإسكندرية ثلاثين درجة. ترتفع درجة أحيانا أو تقل درجة، بينما في القاهرة كانت دائما تزيد على الخمس وثلاثين درجة. وشهدت البلاد كالعادة في الصيف موجات عالية من الرطوبة، خاصة في الإسكندرية، التي امتلأت شواطئها بالمصطافين، يشعرون بذلك عند ابتعادهم عن الكورنيش ولو إلى الرصيف الآخر. امتلأ شارع خالد بن الوليد بهم، وفتحت مطاعمه ومقاهيه التي تغلق في الشتاء، وملأ الباعة الرصيفين ونزلوا أحيانا إلى نهر الشارع، وما زالت قضية من أسمته الصحف سفاح التعذيب، صفوت الروبي وزميليه، أمام المحكمة العسكرية، وتشغل صفحات من الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية، وعرضت سينما ريو بالإسكندرية فيلم «سيقان في الوحل» لميرفت أمين، وبدأ الحديث عن تفكير الدولة في إقامة مشروع مترو الأنفاق في القاهرة، وقتل شخص سيدتين في ساعة واحدة. خنق الأولى ليسرقها وحطم رأس الثانية بعد أن اغتصبها. ولم يستطع نادر أن يقابل يارا إلا يوم ظهور النتيجة. لقد حاول الاتصال بها مرتين، لكن أحدا لم

يرد على التلفون. أصابه اليأس لكن بلا موعد قابلها يوم ظهور النتيجة، وقد مضى الآن شهر على انتهاء الامتحانات. نجحوا جميعا بتقدير جيد، إلا هي التي فازت بجيد جدا، مما جعله يقفز في فناء الكلية، ويكاد يقبلها أمام العديد من الطلاب الذين جاءوا يرون نتيجتهم. لدهشته رأى مجلات الحائط التي علقوها في الشهر السابق على الامتحان لاتزال مكانها، كذلك مجلات الطلبة من الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين. فقط سقط بعض أطرافها. ولما قال لها إنه اتصل بها مرتين ولم يرد أحد على تلفونه، ضحكت في سعادة الأطفال وقالت له:

ـ هل نسيت؟ نحن نقضي معظم أيام الصيف في كابينة ستانلي.

كيف حقا فاته ذلك وهو يعرفه من العام الماضي؟ قال آسفا:

ـ وطبعا في كابينة ستانلي لا يوجد تلفون.

ـ أنت اتصلت بالبيت، ونحن في الكابينة. ولابد أنك اتصلت بالنهار. نحن بالليل في منزلنا كل يوم.

ـ المهم أني وجدتك هنا اليوم حبيبتي. أريد أن أحتفل معك بنجاحنا. هيا بنا.

كانت تتلفت حولها في حيرة وقالت:

ـ لماذا لم تأت كاريمان؟

ـ هل بينكما موعد؟

ـ لا. لكن لتعرف النتيجة.

ـ لابد ستأتي غدا أو بعد غد. وقد تكون أتت أمس.

ـ كان نفسي أشوفها. هي أيضا اختفت.

كان ينظر إلى أثر الشمس على وجهها وعنقها وذراعيها العاريتين، وتبدو له خلاسية ازدادت جمالا. قالت سعيدة وهي تمشي إلى جواره خارجين من الكلية:

ـ لماذا حقا لا تأتي مرة إلى شاطئ ستانلي؟

قال ضاحكا:

ـ وأراكي بالمايوه.

ضحكت بسعادة وقالت:

ـ ستراني بالمايوه وكل الفتيات.

وتوقفت. أمسكت بيده قائلة وهي تنظر إليه:

ـ تصور ظهرت سيدات ينزلن الماء بالبنطلون والتوب وطبعا البونيه فوق الرأس. وأيضا رجال يرتدون شورت طويل يصل إلى الركبة يسمونه الشورت الشرعي.

وازدادت ضحكا ثم قالت:

ـ قليلون حتى الآن. المهم كيف سنحتفل؟ لابد أن أعود إلى الأسرة بسرعة. إنهم ينتظرون النتيجة.

نظر في ساعته وقال:

ـ الساعة الآن الواحدة. أعزمك على الغداء في أتينيوس، وفي

الثالثة والنصف ندخل سينما مترو نشاهد فيلم يوسف شاهين الجديد «عودة الابن الضال».

ـ يمكن أن أتغدى معك لكن نؤجل الفيلم للقاء آخر.

ـ فيلم جميل جدا وأخشى أن يرفع من السينمات بسرعة.

ـ لماذا؟ فيلم ليوسف شاهين لابد يستمرمثلا ثلاثة أسابيع.

ـ أفلام يوسف شاهين صعبة على الجمهور العادي. ربنا يسهل ويستمر أسبوعا.

ضحكت وقالت:

ـ لامانع. أنت واحشني يا نادر يا حبيبي جدا.

وضغطت على الكلمات الأخيرة وهي تفتح عينيها على اتساعهما وتبتسم.

في أتينيوس الذي كان مزدحما للغاية قالت بعد أن جلسا على منضدة بعيدة.

ـ أول مرة أدخل أتينيوس. الله. جميل جدا.

راحت تنظر إلى الرسوم اليونانية البارزة الدائرة أسفل السقف، ومع الجدران وقالت:

ـ أساطير يونانية. صح؟

ابتسم. قال:

ـ نساء جميلات يذكرنني بآلهة الجمال يغنين ويعزفن ويرقصن.

هنا أيضا كما ترين تماثيل قليلة متفرقة وصورا لزيوس وهرقل وأبولو لمن يعرفهم. الجميع فوق الجدران وتحت السقف، كأنهم في احتفال يدورون حول رءوس الجالسين، النساء كالفراشات كلهن سعداء رغم ثباتهم في الحائط.

ـ أنت تأتي كثيرا إلى أتينيوس إذن.

ـ هذه أول مرة. لكن هكذا حدثني عيسى سلماوي عن المكان. هناك أيضا قاعة كريزي هورس للسهرات لكن لم أدخلها بعد.

قالت في أسف:

ـ عيسى هذا موسوعة ثقافية، لكن لماذا لا يكتب كتابا يضع فيه معارفه؟

ـ له كتاب صغير عنوانه «معنى البيان الشيوعي».

هزت كتفها باسمة. قالت:

ـ لم أسمع به. لم يخبرنا به رغم أنه يجلس بيننا.

ابتسم وقال:

ـ انظري إلى النجف العتيق والمقاعد وكل التحف والتماثيل في الأركان. حتى بلاط الأرض الإيطالي النادر. كل ذلك فعله صاحبه اليوناني القديم قسطنطين أتينيوس وافتتحه عام ١٩٠٠ . كان مكانه أرض فضاء يملكها يهودي إيطالي فأقنعه قسطنطين أن يبنيها عمارة له نظير أن يعطيه الدور الأول يفتحه كحلواني ومقهى. مات أتينيوس وباعته زوجته كاتينا عام ١٩٧٠ لصاحب مطعم نصار، طبعا تعرفينه

على البحر، وكما ترين احتفظ نصار بكل ما في أتينيوس. هل تعرفين ماذا تعني أتينيوس؟

ـ اسم صاحبه كما قلت.

أجابت في حيرة فقال:

ـ أجل لكنها تعني الأثيني. ونطقها الصحيح أثينيوس.

قالت ضاحكة:

ـ صح. مثل الإسكندراني.

ضحك وأمسك يديها فوق المنضدة لحظات، وتبادلا النظر والهيام صامتين، ثم حضر الجرسون ومعه الغداء الذي صار يضعه على المنضدة وهي في ذهول. بعد أن انصرف الجرسون سألته:

ـ هل معك نقودا تكفي؟ هذا كثير جدا. سمك وكاليماري وسلاطات كثيرة.

قال:

ـ لاتقلقي. معي عشرة جنيهات كاملة. ستكفي الغداء والسينما والآيس كريم الذي سنأكله في الاستراحة في السينما أيضا.

مرّ الوقت كما يمر على المحبين أسرع من الزمن. في سينما مترو جلسا في حفلة الساعة الثالثة والنصف. لم يكن بالسينما عدد كبير من الرواد، لكنهم لم يكفوا عن الصياح طوال الفيلم، فحوار الشخصيات سريع، وتقطيع المشاهد سريع، ولا أحد يستقر على معنى أو صورة. كانت هي تجتهد لتحمّل الفيلم لأنها أيضا لم تكن قادرة على استيعابه

وفهمه، بينما هو سعيد بقدرته على الفهم ويعد نفسه ليحدثها عن الفيلم باستفاضة فيما بعد، لأنها ستسأله وهو متأكد من ذلك.

كان المثير في الفيلم مشاهد كثيرة، لكن المغنية اللبنانية الشابة الصغيرة ماجدة الرومي التي لم يعرفها جمهور السينما من قبل، كانت شيئا جميلا بريئا طاهرا بالنسبة له وليارا أيضا، بينما صوتها الأوبرالي كان جديدا على الجمهور، الذي كان يصرخ بدوره معها يشوش على الأغنية. وبلغ ضيق يارا مداه من الجمهور الذي يعطل فهمها للفيلم. لقد نجح هو إلى حد كبير أن يتماهى مع الفيلم ويفصل نفسه عما يحدث حوله، لكن كان ذلك مرهقا لروحه وعقله.

انتهى الفيلم وأضاءت صالة السينما فلم يكن تبقى من الجمهور القليل إلا آحاد تقريبا. قال في غيظ:

ـ هذا فيلم يجب أن نراه وحدنا ليس معنا أحد من الجمهور لكن كيف؟

أمسكت بيده تهون عليه، رغم أنها كانت أكثر منه غيظا من إيقاع الفيلم ومن الجمهور معا وقالت:

ـ صوت ماجدة الرومي حلو جدا. عارف أنا سمعت الأغاني كلها، وبالذات الأغنية الأخيرة رغم أنف الجمهور. لكنه سألها:

ـ كيف سأراكي؟

قالت:

ـ اتصل بي دائما يوم الجمعة في أي وقت بالنهار. نحن لا نذهب عادة للكابينة يوم الجمعة بسبب الزحام على الشاطئ.

ـ وهل ستردين عليّ أنت؟

ـ اتصل الساعة الواحدة ظهرا. يكون أبي في جامع المرسي أبو العباس يصلي، وتكون أمي مشغولة في المطبخ.

ـ وأخوكي؟

ـ هذا لا يجلس في البيت.

وضحكت. ثم راحت تردد أغنية ماجدة الرومي.

ساعات أقوم الصبح قلبي حزين
أطلع بره الباب
ياخدني الحنين
اللي اشتريته اتباع
واللى لقيته ضاع
واللى قابلته راح
وفات الأنين
وارجع واقول
لسه الطيور بتحن
والنحلايات بتطن
والطفل ضحكه يرن
مع إن مش كل البشر
فرحانين.

انتهت بينما هو ينظر إليها في إعجاب كبير وقال:

ـ لقد حفظتِ الأغنية! كيف رغم الضجيج؟

ضحكت وقالت:

ـ عبقرية يابني! ثم أنه من غير المعقول أن أخرج من الفيلم بلا أي شيء.

ضحك ثم قال:

ـ أغنية كلها أمل. هذا هو المهم..

قالـت:

ـ كان نفسي طبعا أسمعها بشكل أفضل.

ونظرت في ساعتها واستطردت:

ـ ياه. تأخرت جدا. لازم آخذ تاكسي.

كانت الرطوبة عالية في شارع صفية زغلول، وكان مطعم إيليت على يمينهما قد أصبح محاطا بجدار من الخشب والزجاج لا يظهر من بداخله. كان رواده من قبل ظاهرين للمارة ويشربون القهوة والبيرة ويأكلون. لم يشأ أن يقول لها ذلك لأنها لم تلاحظه. ركبت التاكسي وهو يقف ينظر إليها غير مصدق.ثم مشى على مهل سعيدا.

في محطة الرمل وقف ينظر إلى الزحام حول باعة الفشار والآيس كريم، وإلى ماسحي الأحذية الذين يجلسون على الأرض، وإلى حركة الناس التي لا تنقطع إلى الترام ومنها، وعلى الرصيف الآخر حيث مقهى على كيفك وحلواني الفيومي، وإلى باعة الكتب، والسنترال خلفهم، ثم اتجه إلى عم السيد وهو يسأل نفسه كيف حقا لا يمشي بحبيبته في الطرقات كما يشاء وفي كل وقت، كيف

لا يراها حقا كل يوم؟ وقف أمام عم السيد الذي لاحظ انشغالا على وجهه فقال:

ـ مالك يا أستاذ نادر. تبدو غير سعيد؟

ابتسم وقال:

ـ بالعكس. اليوم أنا سعيد جدا. ما الجديد عندك؟

مدّ عم السيد يده إلى ديوان شعر صغير وهو يقول:

ـ هذا ديوان جديد لأمل دنقل وصل من بيروت.

أعطاه الديوان. «العهد الآتي». ضمه إلى صدره في فرح، وأخرج ثمنه أعطاه إلى عم السيد الذي قال:

ـ يمكن أن تستعيره. تقرأه وتعيده.

قال باسما:

ـ أمل دنقل لا يعار. يظل هنا.

وأشار إلى قلبه ثم مشى سعيدا ناسيا كل الأسئلة.

في لبنان سقط مخيم تل الزعتر الفلسطيني بعد مذبحة كبيرة نفذتها ميليشيا حزب الكتائب اللبناني اليميني ومعها القوات السورية التي حمّلتها منظمة التحرير الفلسطينية المسئولية كاملة. راح ضحية المذبحة أكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني، في عملية إبادة جماعية غير مسبوقة في العالم العربي، ولا حتى في فلسطين عام ١٩٤٨ بلغت الإبادة هذا العدد، وتمت العملية بعد أن تم قطع

المياه والكهرباء والطعام لعدة أيام عن المخيم ومحاصرته، مما سهل الأمر على ميليشيات حزب الكتائب والجيش السوري، فقضوا على المقاتلين الفلسطينيين المتحصنين بالمخيم، وقضوا على سكانه بالكامل، ومن بقي منهم كان يأكل لحم الموتى من المقاتلين والكلاب والقطط خوفا من الموت جوعا، وفي مصر تم اكتشاف اثنين من المستشارين، القضاة، أدخلا مستشفى الأمراض العقلية في العهد الماضي، من قبل جهاز أمن الدولة، وما زال الرئيس السادات يواصل رحلاته، فبعد قطر والكويت يزور عمان والسعودية وسيلان، وتوترت العلاقات بين مصر وليبيا أكثر إذ تم اكتشاف مجموعة تابعة للنظام الليبي كانت تعد لسلسلة انفجارات في مصر، وفي دمشق وقع انفجار في نادي الضباط، وأعلنت منظمة سورية مناهضة للحزب الحاكم مسئوليتها عنه، واحتل الباعة الجائلون كل أرصفة ميدان محطة مصر بالإسكندرية، ميدان الشهداء، ومساحات كبيرة من الشوارع في قلب الميدان، يبيعون الملابس الصينية المستعملة المصنوعة من الألياف الصناعية، وفاكهة مستوردة، وأسماك مجمدة رخيصة، والزحام حولهم من الفقراء القادمين من الأحياء الشعبية القريبة والبعيدة: راغب ومنطقة العمري وكرموز وعرفان وبوالينو. وفوق الأرض صارت بقايا الأوراق والأكياس والأطعمة والزبالة ترتفع أكوامها وتتسع ولا أحد يرفعها عن الأرض. لا أحد الآن يقوم بتنظيف الميدان. لا أحد يقوم بتنظيف شوارع الإسكندرية.وفي المكس حيث يسكن نادر، وصل بشر في الصباح الباكر. دق باب شقة نادر ففتحت له أمه التي رأت بشر أمامها، أسمر قصيرا، ولم تكن قد رأته من قبل، فوقفت في

دهشة وارتباك أصابه هو بالعدوى أيضا فسألها متلعثما عن نادر، فدخلت بسرعة إلى غرفته. أيقظته من النوم. رفض بشر الدخول إلى البيت، الحديث على البحر أفضل، هكذا قال ونزل السلم ليلحق به نادر الذي لم يتأخر، وأمه تراه يغير ثيابه وينزل بسرعة دون حتى أن يدخل الحمام أو يشرب كوبا من الشاي، وتقول في نفسها خير اللهم أجعله خير، ثم انشغلت بشرب كوب من الشاي بالحليب والاستماع إلى الراديو، فهي تحب جدا صوت فؤاد المهندس في برنامج «كلمتين وبس» وتشعر وهو يشخط ويرفع صوته كأنه يطرد أحدا أمامه، كما تحب برنامج «أخبار خفيفة» الذي تقدمه جمالات الزيادي ذات الصوت الحميم، وبعدها تحب الاستماع إلى أغاني الصباح، حيث عادة يكون هناك مطربون غير مشهورين لكن لا تخلو أصواتهم من حلاوة مثل كمال حسني، وما إن صار نادر أمام بشر في الشارع حتى قال بشر الحمد لله أني لم أسأل أحدا، عرفت البيت لوحدي، تذكرت عنوانك الذي ذكرته أمامنا مرة منذ عامين. وعبرا الطريق، ومحطة السكة الحديد التي لا تأتيها القطارات، والكورنيش الصغير، يشغل مساحة منه باعة السمك، يشغلون الرصيف، وقد صفوا «طاولاتهم» التي عليها الأسماك المختلفة الأنواع، المياس والدنيس والبربون والبوري والشراغيت والوقار، وبعضا من الجمبري، والسردين، والبساريا، والأخطبوط وسلاحف البحر. سيارات قليلة تقف أمامهم يشتري أصحابها، ورجال ونساء جاءوا من الحي ومن الأحياء القريبة مثل «وادي القمر» و«الورديان» و«الدخيلة»، وأطفال حفاة يتسكعون بين الطاولات يبحثون عن الأسماك الصغيرة المهملة، يجمعونها

في علب من الصفيح، والباعة يتركونهم، وبعض الأطفال يتحرك تحت الشِّبَاك المفرودة عالية فوق الرمال، وقد علق بكثير منها بقايا قليلة من نباتات البحر، حيث الفلائك المركونة بعد العودة من رحلات الصيد، يجمعون أيضا ما قد يكون سقط أو أهمل من أسماك، يقفزون داخل الفلائك ذاتها يبحثون عن السمك، وفي الجو رائحة الأسماك خفيفة لا يكاد يدركها أحد دليل على طزاجة السمك كله. وبشر ينظر إلى ذلك ويقارن بين الأسماك هنا والأسماك المعروضة في سوق باكوس حيث يسكن، ويشعر أنهم هناك يبيعون «زبالة» السمك، وقال فجأة:

ـ غريب أمر البني آدم. لم يترك شيئا في الأرض ولا في السماء ولا في البحر إلا أكله.

ضحكُ نادر وقال:

ـ هل جئت اليوم مبكرا هكذا لتقول لي هذه الحكمة؟

قال بشر:

ـ أول مرة أشوف مشهد كهذا. خلينا نتفرج قليلا ثم أكلمك.

مشى معه نادر بين الباعة، ليتفرج بشر، وبعضهم يحييه. هو بدوره يلقي عليهم التحية. لمحهما «عم جابر» الصياد الشهير بالمنطقة، وكان جالسا على الرصيف الآخر، وقد وضع صبيانه أمامه منضدة خشبية صغيرة قديمة عليها كوب من الشاي، فنادى نادر الذي ابتسم وتقدم يصافحه وخلفه بشر، لكن عم جابر قال:

ـ أصل زميلك شكله متعلم زيك. قلت لازم أعمل واجب.

وأمر أحد صبيانه بإعداد هدية من السمك في كيس بلاستك، ونادر يطلب منه أن لا يفعل ذلك، فهناك سمك كثير اشتراه أبوه أمس، لكنه ضحك وقال:

ـ بصراحة أصل صاحبك قصير فكرني بأبي.

ارتبك بشر لكن عم جابر خاطبه مباشرة:

ـ لاتزعل يا أستاذ. أبي خلفني وأخوتي كلنا طوال ماشاء الله.

وكان الصبي قد أحضر الكيس البلاستك الذي به السمك، فقدمه عم جابر لنادر قائلا:

ـ لا تكسفني. لازم تفطر صاحبك الطيب هذا من سمكنا.

ونادى على صبيه قائلا:

ـ حطّيت بربوني يا وله؟

ـ أوه يا معلم.

ـ وشراغيش؟!

ـ أيوه يا معلم.

ـ وموزة؟

ـ أيوه يامعلم. كل اللي بيحبه أبوالأستاذ نادر. أصل أنا عارفه بيحب إيه.

وقال عم جابر لبشر في فخر:

ـ سمك صغير لكن حتدعيلي.

أخذ نادر الكيس البلاستك ومشى مع بشر إلى الرصيف البعيد مقتربين من كازينو زفير ثم توقف وقال:

ـ ما رأيك أتركك لحظات وأعطي السمك لأمي تجهز لنا إفطارا حتى نعود.

قال بشر:

ـ لا. نتكلم أولا. لن نتأخر.

قبل مطعم زفير الذي لايزال مغلقا منذ سنوات جلسا على سور الكورنيش. أشارنادر إلى المطعم وقال:

ـ هنا في مطعم زفير كان يأتي فنانون زمان مثل عبد الحليم حافظ وعمر الشريف يأكلون..

قال بشر مباشرة:

ـ خليل يريدك أن تسافر القاهرة بعد الغد.

اندهش نادر وسأله:

ـ هل رأيته؟

ـ قابل حسن في المنصورة.

ـ وكيف عرفت من حسن. بالتلفون؟

ـ أي تلفون؟ أنت مجنون. التلفونات دائما متراقبة! حسن في إسكندرية منذ أمس وزارني في البيت.

ابتسم نادر وقال:

ـ جميل. لقد وحشني حسن. إذن يمكن أن أراه اليوم.

ـ لا. الأفضل أن لا تراه.

ولم ينتظر بشر منه أن يرد واستطرد:

ـ هيا إلى الست الوالدة نفطر بالسمك الصغير لعم جابر الطويل.

وضحكا بصوت عال.

كان حسن قبل أن يأتي إلى الإسكندرية قد اتصل بكاريمان بالتلفون، وحدد معها موعدا في مقهى والي، وبعد أن زار بشر تركه وذهب ليقابلها.

كانت قد سبقته إلى المقهى، وما إن وقفت تصافحه حتى وجدها شاحبة حزينة، شعر بالخوف..

ـ مالك يا كاريمان. هل أنتِ مريضة؟

ارتعشت يداها وتلعثمت، فجلس وجلست وبدا عليها حزن شديد.لكنه قال:

ـ نقوم من هنا أحسن. نتكلم براحتنا.

هزت رأسها موافقة، ودمعها يترقرق في عينيها الخضراوين. ما إن وقف معها على الرصيف ينتظران تاكسي، حتى أحاطها بذراعه يضمها إلى جانبه، بدورها استجابت كأنها تبحث عن هذا العطف. لم يتحدثا في المسافة القصيرة إلى البيت في شارع تانيس، ودخلا الشقة فجلست على أحد المقاعد وجلس جوارها، أدارت وجهها

إليه فرأى الدمع في عينيها يترقرق من جديد. قال وهو يمسح دمعها من فوق وجنتها بأصابعه:

ـ هذا اللؤلؤ لا يجب أن ينزل من مكانه.

وراح يقبلها على مهل على خديها، ثم جبينها وشفتيها، وهي لا تتكلم. خلع عنها ملابسها فوقفت مستسلمة تاركة إياه يفعل ذلك. أخذها إلى السرير في الغرفة وهي لا تتكلم وأمالها على ظهرها، وراح يمشي بيديه على جسدها مشتاقا حقيقيا إلا أنها انفجرت باكية.

كان يظن أنه هكذا سيأخذها بعيدا عن أي حزن. نام جوارها وقال وهو ينظر إليها:

ـ ما بك يا كاريمان. ماذا جرى في غيابي. هل أخطأت لأني غبت كثيرا؟

انفجرت في البكاء أكثر، ثم اعتدلت وصارت جالسة متكومة ورأسها بين ذراعيها، وذراعاها فوق ركبتها. رفعت وجهها إليه فراح يمسح دموعها بيده من جديد. قال في خوف حقيقي:

ـ مالك يا حبيبتي؟ أرجوك كلميني.

مدت أمامه ذراعها اليسرى، فرأى في رسغها آثار جرح غائر. قال مصدوما:

ـ ما هذا؟

اندفعت تبكي وقالت:

ـ حاولت الانتحار.

أحس بالصدمة والارتباك. أخذها في حضنه يهدهدها ويشعر بالألم من أجلها وقال:

ـ زوج أمك مرة أخرى؟!

قالت وهي تبكي:

ـ استغل وجود أمي في المستشفى لتلد ودخل عليّ الغرفة وأنا نائمة يريد أن يغتصبني.

صرخ:

ـ السافل. إلى هذا الحد!

قالت وهي تهتز في رعب:

ـ كنت وضعت سكينا تحت المخدة متوقعة ذلك. لكني بدلا من أن أطعنه بالسكين قطعت شرايين يدي..

وارتمت في حضنه تبكي وهو في ذهول كبير يشعر أنه سينفجر قطعا من الغيظ من زوج أمها هذا. لحظات وكفت عن النحيب فسألها:

ـ ومن أنقذك؟

ـ هو. صرخ وربط يدي وأنا واقعة على الأرض انتفض وطلب الإسعاف. حرر محضرا أنه دخل البيت فوجدني أحاول الانتحار وأنه أنقذني.

قال في عزم وتصميم:

ـ هذا الرجل لابد أن يقتل. لابد أن يختفي من الدنيا. وأنا سأفعل ذلك.

ـ وتضيع حياتك في كلب؟ وماذا عني أنا بعدك؟

لم يستطع أن يمنع نفسه عن البكاء. لكن توقف بسرعة وقال:

ـ لماذا لم تخبري البوليس بكل شيء؟

ـ أنت لا تعرف الوضع الذي فيه أمي. أمي وحيدة، وقد غسل عقلها فلم تعد تصدق أحدا غيره. أمي صارت منقبة. تقريبا أول منقبة في إسكندرية، وأيضا أنجب منها الآن. ـ وبكت قائلة ـ لابد أن نترك مصر يا حسن.

أخذها في حضنه من جديد وقال:

ـ سنتركها يا حبيبتي. مصر تبتعد عنا الآن. عن تاريخها. ستبتعد لسنوات طويلة. أراها الأن تركب جملا وتمشي في الصحراء مع قطاع الطرق. أجل قطاع الطرق. لكن لابد من عقاب من دفعها إلى هذا الطريق.الرئيس السادات الذي فتح الباب لهذا كله.

لم يستطيعا ممارسة الحب. أخذ حسن طريقه إلى المنصورة بالليل من محطة سيدي جابر. قبل أن يتركها قال:

ـ أفكر أن أنتقل إلى كلية آداب القاهرة وتنتقلين معي. نتزوج هناك ونبحث عن عمل. لابد سنجد عملا ونحن ندرس. هذا ينقذك أيضا.

ابتسمت وقالت:

ـ بقي عام واحد يا حبيبي. لاتقلق.اعذرني إذا كنت أفسدت يومك. أنا كنت أنتظرك بفارغ الصبر لأبكي على صدرك. لا تخف عليّ. لقد عرف الآن ما يمكن أن أفعله به. أظن أنه سيأخذ هدنة طويلة.

أخذها في حضنه وسط الظلام وقبلها، وركب السيارة التي ستذهب إلى طنطا. من هناك سيأخذ سيارة أخرى إلى المنصورة.

وقفت هي في الفضاء الواسع، وسط الظلام الذي لا تضيئه المصابيح البعيدة، وأحست أنها بنت السماء التي أنزلها الله إلى الأرض الآن، ولن يقدر على إيذائها أحد.

في اليوم التالي وصل نادر إلى القاهرة، وخرج من محطة السكة الحديد ليرى ميدان رمسيس أمامه لأول مرة. صدمه المشهد فتوقف، وفكر على الفور في العودة إلى الإسكندرية. وقف لا يصدق عينيه، وأحس بدقات قلبه. كل هذا الاتساع وكل هؤلاء البشر وكل هذه السيارات وهذا الكوبري الحديد الذي يدور حول الميدان، كوبري ضخم يزيد من جهامة الميدان ولا شجرة واحدة. الفضاء الواسع وضوء الشمس قوي والحرارة شديدة تلفح وجهه وذراعيه إذ يرتدي بنطلونا وقميص نصف كم، ويشعر بها تدخل جسده. محطة مترو يقف تحت سقفها كثير من الناس ينتظرون وصول المترو الذي يسير فوق الأرض، وحولهم وبينهم يتحرك باعة الكوكاكولا والبيبسي والمثلجات الأخرى داخل الجرادل وأكثر الواقفين يشربون هذه المياه الغازية. على يمينه مطاعم فول وكسكسي وأرز بلبن وفلافل وبطاطس. كلها واضحة أمامه بضاعتها في واجهة المحلات ذاتها وأكثر المأكولات مع باعة جائلين يقفون في الميدان. تمثال رمسيس يقف صامتا مرفوع التاج، ناظرا إلى الأمام في ثقة غير مبال بما حوله ونافورة الماء تخرج من قاعدته تحته مسافة قليلة جدا. آه لو أدرك رمسيس ما يحدث حوله! هز رأسه وبدأ يفكر أنه سيحتفظ في روحه بهذه الرغبة المفاجئة والكبيرة في العودة إلى الإسكندرية بعد أن أخافته القاهرة على هذا النحو لكن سيكمل رحلته. سيعيد النظر في مسألة السفر بعد التخرج للعمل هنا. الساعة الآن الثانية ظهرا،

وموعده مع الفتاة التي ستعطيه مجلات ونشرات الحزب في السابعة مساء في كازينو كليوباترا بالزمالك. سيرى الزمالك التي سمع عنها كثيرا في الأفلام، وسيرى حديقة الأسماك، لكن في زيارة أخرى، عليه الآن الذهاب إلى مجلة الطليعة بمبنى جريدة الأهرام. المبنى قريب. هذا شارع الجلاء كما قال بشر الذي قال له حسن كل شيء قاله له خليل في وصف الطريق!!

مشى يخوض في زحام المارة على الرصيف، وتطلع عليه رائحة الأطعمة من المحلات والباعة. هذا مكان للأوبئة بامتياز. قال ذلك لنفسه حين رأى الفلافل أمامه ترتفع في كومة عالية في كل محل. في الإسكندرية لا نأكلها إلا ساخنة. لا يقلي البائع أكثر مما يريد المشترون. وفي طريقه لم يجد أحدا من المارة يحترم إشارات المرور. في تقاطع الطرق، في الإسكندرية تقف طالبات الثانوي والجامعة الآن متطوعات تنظمن المرور. إنجاز لطيف للمحافظ الذي بدأ بردم بحيرة مريوط! إنجاز قديم هو منذ الستينيات في الحقيقة عاد إلى الظهور. البنات الجميلات في جيبات رمادية قصيرة وبلوزات بيضاء بكم، وفوق رأس كل منهن كاب رمادي أيضا عليه علامة إدارة المرور. من الذي لا يطيع الفتيات الجميلات في هذا العالم؟

وصل إلى مبنى الأهرام فوقف أمام البوابة الزجاجية العريضة الفخمة يفكر. هذا هو المبنى الجديد للجريدة العتيقة الذي أقيم منذ وقت قليل حين كان محمد حسنين هيكل رئيسا للتحرير. مبنى يليق بالجريدة حقا. وصف له رجال الأمن مكتب ناقد مجلة الطليعة الأدبي، هو يحب كتاباته من قبل.

كان باب المكتب مفتوحا فدخل ليجد أمامه الناقد الكبير خلف مكتب عريض وحوله كتب على الأرض، وكتب على أرفف بالحائط وفي أكثر من دولاب، وفوق المكتب كتب كثيرة أيضا ودوسيهات، والناقد يرتدي نظارة سميكة. رفع إليه رأسه وقال:

ـ نعم؟

ـ حضرتك الأستاذ فاروق عبد القادر.

قال ذلك مرتبكا لكن الناقد قال:

ـ ح يكون مين يعني. اقعد. واقف ليه؟

جلس. وفتح مجلة روزاليوسف التي معه أخرج من بينها ورقتين بهما قصيدته. قال بارتباك:

ـ أنا شاعر من الإسكندرية. اسمي نادر سعيد. هذه قصيدة أرجو أن تجد حظا للنشر في المجلة.

نظر إليه الناقد مندهشا وقد اتسعت عيناه وهو يتناول الورق منه وسأله:

ـ نشرت من قبل؟

ـ أول مرة. لم أحاول..

ـ أول مرة وتريد أن تنشر في الطليعة؟

ارتبك بحق. ماذا يقول له؟ هل يخبره أنه ماركسي وأن المجلة هي الأنسب له، فهي مجلة الماركسيين في السياسة ومجلة الاتجاهات

الجديدة في الأدب، وأنه يعرف أسماء كل كتابها ويقرأ لهم. أم يقول له إنه في حزب شيوعي سري. لم يتكلم. فوجئ بالناقد يضع ورقه في دوسيه على يمينه ويقف قائلا:

ـ أحسن شيء تأتي معي إلى مقهى ريش. سأعزمك على بيرة هناك ونتكلم براحتنا.

أحس بشيء من الراحة، والفخر، نسي ماكان يفكر فيه أن الناقد قد يقرأ الشعر ويقول له رأيه في الحال. خرج الناقد من المكتب فخرج وراءه. في شارع الجلاء أوقف الناقد تاكسيا. دخله وجلس جوار السائق فجلس هو في الخلف وظل صامتا لأن الناقد لا يتكلم. التاكسي يسير، وإلى يساره مترو يسير إلى محطته الأخيرة عند كورنيش النيل. وحين استدار التاكسي ليدخل ميدان التحرير رأى على يمينه مبنى كبيرا. قال الناقد:

ـ هذا هو المتحف المصري. غير ذلك لن أقول لك شيئا.

ابتسم مندهشا من طريقة كلامه. ظهر أمامه ميدان التحرير. سيدور فيه التاكسي ليدخل شارع طلعت حرب. لكنه قال:

ـ وهذا هو ميدان التحرير. صح؟

ـ طبعا..

أجاب الناقد مندهشا.

هال نادر تساع الميدان. رأى فندق هيلتون على يمينه بعيدا وأمامه أوتوبيسات كثيرة تقف وزحام من الناس، ورأى مجمع التحرير والتاكسي

يدور في الميدان فعرفه مما قرأه عن القاهرة في الصحف، ورأى الكعكة الحجرية على يساره والتاكسي يقترب ليدخل شارع طلعت حرب. هذه هي التي جعل منها أمل دنقل رمزا للثورة لا ينساه أحد.

قال بحماس:

ـ هذه القاعدة الحجرية المستديرة هي الكعكة الحجرية. صح؟

ـ أيوه ياسيدي. لكن أمل كان يقصد المتظاهرين الذين أحاطوا بها. أما القاعدة نفسها فلها حكاية، زمان كان مقررا لها أن تكون قاعدة تمثال للخديوي إسماعيل. مات ولم يوضع التمثال. بعد موت عبد الناصر غطوها بالرخام لتكون قاعدة لتمثاله.السادات أوقف المشروع.

فكر نادر لماذا حقا أسماها أمل دنقل بالكعكة. هل لاستدارتها أم لأن من يأتي إليها يتذوق طعم الحرية.ربما المعنى الثاني، فهذا المكان شهد تاريخا طويلا من الاحتجاجات الوطنية.

لكنه كان مندهشا من الكوبري الحديدى العلوي الذي يدور مع الميدان فقال:

ـ كوبري علوي هنا أيضا. تشويه!

قال الناقد:

ـ حمير بعيد عنك، حكامنا حمير شوهوا كل حاجة.

ونزلا أمام مقهى ريش التي تضع مناضد ومقاعد في الممر الصغير. على اليسار منها كشك سجائر صغير صاحبه داخله يظهر منه وجهه

فقط. أشار الناقد إلى الجالسين على المنضدة الأولى الكبيرة بعد الرصيف، وقال وهو يدفع الأجرة لسائق التاكسي:

ـ هل رأيتهم من قبل؟

ـ لا.

ـ تعال.

وتقدم وجلس يقول له وهو يشير إليهم:

ـ أمل دنقل ونجيب سرور وسليمان فياض. تعرفهم طبعا؟

ارتبك نادر بحق. هؤلاء الذين يحب كتاباتهم بجنون. لم يتكلم. قال الناقد الكبير:

ـ اسحب كرسي واقعد معنا.

جلس نادر غير قادر على الكلام. قال الناقد الكبير:

ـ نادر سعيد شاعر من إسكندرية.

لم يرد أحد. بدا نجيب سرور مشغولا بالنظر إلى الطريق، وابتسم أمل دنقل ابتسامة صغيرة أظهرت أسنانه الكبيرة، لكن سليمان فياض ابتسم وقال:

ـ أهلا. أنا كنت مدرس زمان في العباسية الثانوية بإسكندرية.

وتقدم الجرسون الذي تجاوز عمره الخمسين، وهو يشخشخ النقود الفضية في جيبه. طلب الناقد الكبير زجاجتي بيرة. كانت أكثر من زجاجة فارغة بينهم على المنضدة، وثلاث زجاجات أخرى

ملئوا منها كئوسهم. فجأة اتسعت ابتسامة نجيب سرور وبرقت عيناه. كانت فتاة تمر أمامهم بسرعة وقد ارتدت الميني جيب وبلوزة تكشف ذراعيها وشعرها الطويل ينطلق خلفها وهي تعلق حقيبة على كتفها. قال في إعجاب ووله:

ـ مهرة.

صار نادر متعجبا منه ومن نظراته، وجاء الجرسون يحمل زجاجتي البيرة ووضعهما أمامهما هو والناقد الكبير. وضع الكأسين وفتح الزجاجتين ثم وقف يشخشخ النقود المعدنية في جيبه فإذا بنجيب سرور يغضب ويقول:

ـ كل ما تيجي تقف تشخشخ. أنت لك عندنا فلوس؟ اتفضل امشِ شوف شغلك بعيد عننا.

قال الجرسون وهو يتراجع هازا حاجبه:

ـ خلاص يا نجيب بيه. حقك عليا.

همس سليمان فياض:

ـ يا نجيب هي عادة عند الرجل. مائة مرة قلت لك.

ـ لا. هو يفعل هذا أمامنا فقط. عارف إننا مفلسون. يأخذ فلوسه مرتين في كل مرة.. أحّا..

كان نادر مندهشا جدا مما يسمع. شيء لم يتوقعه أبدا من أدباء كبار يحبهم. قال أمل وهو يبتسم فتظهر أسنانه:

ـ بعد قليل يأتي «فلفل» فترتاح يا نجيب من «ملك».

عرف نادر اسم الجرسون الحاضر، والجرسون الغائب. لكن نجيب الذي وقعت عيناه على فتاة أخرى جميلة تعبر أمامه ابتسم وقال:

ـ غزالة.

قال الناقد الكبير لنادر:

ـ هو كده نجيب سرور. اشرب ولا تشغل بالك. ستتعود.

لكن نجيب نظر إلى الناقد الكبير بحدة وقال:

ـ جرى إيه يا روح أمك. يعني إيه هو كده نجيب سرور؟ خلاص عيّنك لطفي الخولي بتاع السادات في الأهرام.

صارت دهشة نادر ممزوجة برعب حقيقي. وحط الصمت على الجميع. لكن نجيب خاطب نادر قائلا وهو مبتسم:

ـ آسف. لاتزعل ـ ثم ظهر عليه الغضب ـ هل عندكم في إسكندرية نقاد ولاد دين كلب مثل ماعندنا؟

زاد رعب نادر واحمرّ وجهه، وراح أمل دنقل يهز رأسه بينما اتسعت ابتسامة سليمان فياض كأن ما يحدث هو أمر عادي، لكن نادر خيم على وجهه الذهول والصمت، ووقف الناقد الكبير قائلا لنادر:

ـ تعال نجلس في الداخل نتكلم براحتنا أفضل.

وحمل زجاجة البيرة والكأس. وقف نادر مرتبكا ثم فعل مثله، ودخل خلفه إلى القسم الداخلي من المقهى، فرأى أمامه لوحات كثيرة تحمل صورا فوتوغرافية كبيرة لعدد كبير من الكتاب والفنانين

الذين رحلوا. أدرك على الفور أنهم كانوا من رواد هذا المقهى العتيق. راح يتطلع إليها ثم اقترب منها ودارعليها جميعا مندهشا. صورهم لا تختلف عن الصور التي رآها لبعضهم في الصحف من قبل وعبر السنين. الصور كلها بالأبيض والأسود، تماما مثل الصحف، لكن هنا من عيونهم نظرات رضا واطمئنان. هدوء شفيف على وجوههم رغم أن حياتهم كانت تمتلئ بالعواصف. العقاد الذى كانت له معارك ثقافية وسياسية كبيرة. طه حسين الضرير الذى كان يرى مالايراه المبصرون في الماضي والحاضر والمستقبل. نجيب الريحاني وأنور وجدي وحسين رياض الفنانون الذين ملئوا حياة المصريين بالبهجة ومعهم سليمان نجيب الجميل وإستيفان روستي الذي إذا ظهر استحوذ على اهتمام المشاهد وحده. المخرجان محمود ذو الفقار وعز الدين ذو الفقار. يا إلهي كيف تستغني الدنيا عن هذه الكنوز. وراح يقف أمام الآخرين من الشعراء الكبار. صالح جودت الذي يحب أغانيه ولم يحب موقفه من اليسار، وكامل الشناوي الذي كتب أغاني يتسع لها الفضاء، ثم الفنان السيريالي رمسيس يونان الذي قرأ عنه ولم ير له شيئا، والروائي عباس أحمد صاحب رواية «البلد» الجميلة. وأم كلثوم التي لا يصدق أنها رحلت، فهي في الصورة جالسة متكئة على جانب المقعد في اطمئنان كبير تنقله لمن يراها، وغيرهم وغيرهم ممن قرر أن يتوقف أمامهم في المرات القادمة.

عاد إلى الناقد الكبيرالذي بدا يشرب البيرة شاردا عن كل شيء. لم يطل بينهما الكلام عكس ما توقع نادر. لم يسأله الناقد الكبير عن شعره، ومتى بدأ الكتابة مثلا، وماذا يقرأ، ومن يحب من الشعراء. صار الناقد الكبير متوحدا مع البيرة ثم عزمه أيضا

على الغداء. قال له أن يجرب سكالوب ريش، وطلب بيرة مرة أخرى لكن نادر توقف عند الزجاجة الأولى، وسأل الناقد الكبير كيف يذهب إلى الزمالك، فأخبره أن الشارع الخلفي اسمه هدى شعراوي في نهايته وزارة الأوقاف جوارها موقف أوتوبيس رقم «١٣» الذي يذهب إلى الزمالك.

في حوالي الخامسة تقريبا ترك نادر المكان، وأخذ طريقه إلى الزمالك. كيف مرّ كل هذا الوقت في صمت؟! لا يعرف.

سأل الكمساري عن الطريق إلى كازينو كليوباترا فأخبره أن ينزل في شارع حسن صبري جوار العمارة التي يسكن فيها عبد الحليم حافظ، ويمشي في الشارع الذي أمامها فيجد الفرع الثاني لنهر النيل، وهناك سيجد الكازينو. كان نادر سعيدا حين نزل جوار بيت عبد الحليم حافظ، وراح يتسكع قليلا في شوارع الزمالك، ولا يبتعد حتى لا يفقد الطريق. أعجبته الأشجار والعمارات القديمة، الذين قابلهم كانوا كلهم في أبهى زينة، والنساء قليلات في الشوارع لكنهن جميلات، وفي السابعة والخمس دقائق دخل الكازينو الممتد طويلا على النيل. لم يكن غير ثمانية زبائن، جلسوا إلى أربع مناضد، على كل منها شاب وفتاة. وكانت فتاة تجلس وحيدة بعيدا رأى جوار قدميها حقيبة جلدية، ففكر أنها هي التي سيقابلها. تقدم ناحيتها قليلا فرأى على المنضدة مجلة روزاليوسف أيضا، فابتسم وهو يضع المجلة التي يحملها أمامها. قال:

- هاني.

ابتسمت وقالت:

ـ وفاء.

جلس مجذوبا في الحقيقة من جمالها، سمراء عيناها خضروان، وجهها مستدير، شفتاها مكتنزتان، شعرها الأسود الغزير ينسدل خلفها على كتفها. هل كل البنات في الحزب جميلات هكذا. قال:

ـ هل تسمحي لي بالحقيبة؟

ابتسمت وقالت:

ـ انتظر قليلا حتى لا يبدو أنك جئت من أجل ذلك فقط.

أدرك غباءه لكنه صار مبتهجا. سيجلس معها لبعض الوقت. الزمالك والنيل وفتاة خلاسية حقيقية رائعة الجمال في القاهرة.

قالت:

ـ اطلب لنا شيئا من الجرسون. أنت الرجل. لكني سأعزمك.

ابتسم. طلب الآيس كريم له ولها. عرف منها أنها تحب الإسكندرية لكنها لم تذهب إليها قط، لأن أباها يحب مصيف رأس البر، وقال لها يوما ما ستأتي إلى الإسكندرية. لابد. وستفرح بك المدينة. ضحكت واحمرّ وجهها من الخجل وهي تضحك فوضعت يدها على فمها. وجد نفسه يقول:

ـ غريب أن يلتقي اثنان ولا يعرف أحدهما الآخر إلا باسمه الحركي. كأننا مثلا في فيلم.

ضحكت من جديد. صار واضحا أنها كلما ضحكت وضعت يدها على فمها، رغم أن أسنانها بيضاء ناصعة الجمال. قالت له إنها طالبة

في كلية الألسن وتسكن في المعادي ولا تزيد عن ذلك، فقال لها إنه طالب بالآداب ويسكن في المكس ولن يزيد أيضا، وضحكا. سألها كيف يذهب إلى رمسيس من هنا. قالت الأفضل أن يستقلا تاكسي، ينزلها في التحرير، ويستمر به إلى رمسيس.

تركا الكازينو. حملت الحقيبة فحملها عنها فتركتها له. في التاكسي جلست في المقعد الأمامي، وهو في المقعد الخلفي والحقيبة معه. نزلت في ميدان التحرير فأحس كم كانت جميلة، وكم كان اليوم جميلا. وكانت الساعة التاسعة والنصف.

لقد تكلما كثيرا وجلسا كثيرا دون أن ينتبها، وتحدثا في كل أمور الحياة والثقافة والتعليم، وفي قطار العاشرة والنصف، قال لنفسه هي القاهرة حقا وليست الإسكندرية الجديرة به ككاتب، وكل ما رآه من كتابها الكبار اليوم لا يعني غير ذلك. هم غرباء غير متوافقين مع المجتمع. إذن فهم الأدباء الحقيقيون. أنا غريب إذن أنا موجود. هكذا نجيب سرور صاحب المسرحيات الصادمة، وهكذا أمل دنقل صاحب القصائد التي لا تبلى، وهكذا سليمان فياض الذي بدا أكبرسنا صاحب القصص والروايات النبيلة، وهكذا فاروق عبد القادر صاحب المقالات النقدية الضاربة في السياسة الرافضة لكل شيء. نسي ما فكر فيه من قبل أن لا يغادر الإسكندرية. راح منه كل خوف وهو يحمل الحقيبة التي بها خمسون نسخة من مجلة «الانتصار» النشرة السرية للحزب، وعشرون نسخة من مجلة «كتابات مصرية» التي تصدر في بيروت، كما عرف من بشر ومن وفاء. مجلة الانتصار لا تزيد على ست عشرة صفحة، وكتابات مصرية هي مجلة حقيقية

تزيد صفحاتها عن المائة، لكن في النهاية الحقيبة ليست كبيرة وغير ملفتة وسيتعامل معها كأنها حقيبة ملابس. وضعها بالفعل على الرف العالي في القطار المكيف، وكان حريصا في الأربع محطات التي يقف فيها القطار أن لا يأخذه النوم من تعب السفر، حتى لا يخطئ أحد ممن يغادرون القطار في المحطة ويأخذها في يده، أو يسرقها أحد، من يدري؟

في محطة سيدي جابر فقط شمله الخوف. أين يذهب الآن حقا بما يحمل؟

هل يذهب إلى بيتهم في المكس؟ استبعد ذلك. ربما يعبث أخوه الصغير في الحقيبة، فهو تلميذ في السنة الأولى الإعدادية ويعرف القراء ة. ربما يكون البوليس يتابعه طوال النهار. هذه المرة سيذهب إلى الشقة في شارع تانيس.

كان الوقت بعد منتصف الليل، ولا أحد من زملائه هنا. حسن لابد ترك الإسكندرية، وإن كان موجودا فهو زميل. سيصعد إذن السلم بهدوء حتى لا تشعر به روايح وغادة إذا لم تكونا في الملهى..

صعد السلم على مهل دون صوت، وأدار المفتاح في الباب برفق، ودخل فتنفس مرتاحا وهو يضع الحقيبة أمامه على طرابيزة السفرة ويجلس أمامها. كيف وصل بأمان حقا إلى الإسكندرية؟!

لكنه بسرعة حمل الحقيبة ودخل الغرفة ووضعها تحت السرير.

فتح النافذة التي تطل على الشارع. لا أحد في الطريق الآن. فليخلع ملابسه ويدخن سيجارة وهو فوق السرير يسترجع اليوم كله. ما كاد يخلع ملابسه ويرتدي بيجامة حتى دق جرس الشقة.

جمدت عيناه. هذا جرس. روايح وغادة تدقان الباب باليد. بشر معه المفتاح وكذلك حسن إذا كان هنا. تلكأ فدق الجرس مرة ثانية وثالثة.. خرج إلى الصالة ووقف ينظر إلى الباب. سمع صوت روايح.

ـ افتح يا سي بشر. لقد سمعنا صوت قدميك.

تنفس مرتاحا وفتح الباب، ما إن رأتاه حتى هتفتا.

ـ سي نادر. حقك علينا فكرناك بشر.

ـ لا عليكما. تفضلا.

كانتا ترتديان ملابس نوم صيفية تظهر أذرعهما وجزءا كبيرا من صدريهما. كان هو قد فكر بسرعة أن تكونا ملاذا لإزاحة خوفه ولو لبعض الوقت.

جلستا أمامه وصمتتا فجأة لحظات طويلة. توقع أن تطلب منه إحداهما أن يكتب لها خطابا، خاصة أنهما لم ترياه أو أحدا من زملائه منذ وقت طويل، لكن روايح قالت في أسى:

ـ الشيخ زعلان اشترى الملهى الثاني الذي عملنا فيه.

قالت غادة:

ـ هذا منذ شهر. ولم نجد عملا في ملاه أخرى، عملنا في مقهى جديد على البحر، لايقدم الخمور، قلنا نتوب إلى ربنا، مادامت الناس كلها تقول ذلك. صاحب المقهى كل يوم يتحرش بنا بالليل بعد أن يغلق المقهى.

نظر إليهما في إشفاق حقيقي ثم قال:

ـ لماذا لا تعملان بالمقهى بالنهار؟

ـ يرفض. يقول إن زبائن الليل تحب الجرسون الحريمي، وطبعا أنت تعرف أن زبائن المقهى ليسوا مثل زبائن الكباريهات، يعني البقشيش ملاليم، ورضينا وقلنا يمكن مكتوب لنا العيشة النظيفة.

ظهر التأثر على روايح أكثر مما هو على غادة، وبدأت دموع ترقرق في عينيها. وقالت:

ـ هل يمكن أن تساعدنا. تكلم الست نوال صاحبة نوال بوط نعمل عندها. هذه الست محترمة ومشهورة في مصر كلها. أعرف إنها تحبك. أنتم تقولون عنها ذلك دائما.

ابتسم وقال:

ـ هذا سهل جدا. المهم أن لا تبيع الملهى أيضا.

ابتسمتا. قالت روايح في حيرة:

ـ لم نتعلم مهنة أخرى. وافقنا على النظافة لكن لاأحد يعطينا الفرصة. حرام بحرام يبقى مع زبائن حقيقية وليس مع صاحب المقهى ومجانا.

وسكتت قليلا وهي تنظر إلى الأرض ثم قالت:

ـ وربنا يسامحنا.

ووقفتا للانصراف فقال لهما:

ـ انتظرا. باتا معي هنا.

نظرت إليه غادة في دهشة وتساءلت:

ـ أنت يا سي نادر؟ نحن نعرف أنك تحب!

ـ لا أقصد شيئا. ناما في الغرفة الأخرى. محتاج لونس معي في الشقة. لم أتعود على النوم وحدي في مكان.

في الصباح استيقظ حوالي العاشرة فوجدهما جالستين على مقعدين أمام السرير، وقد ارتديتا ملابس منزلية أخرى، وكل منهما تضع يدها على خدها وتنظر إليه. قال في دهشة وهو يفتح عينيه ولا يزال فوق السرير.

ـ ماذا جرى؟.

ـ لا شيء.حضرنا لك الفطار وخائفين نوقظك، الظاهر أنك تعبان جدا.

ابتسم مندهشا من رقتهما. ترك السرير إلى الحمام. في الصالة رأى على ترابيزة السفرة إفطارا جميلا: بيض مسلوق وجبن استنبولي وجبن رومي وعسل نحل ومربى وخبز. تساءل:

ـ كل هذا؟

قالت روايح:

ـ نزلنا تحت استحمينا وغيرنا هدومنا وطلعنا بالفطار. ما رأيك؟

قبّل كل منهما على خدها لا يصدق ما يحدث. ثم تذكر إنهما خلال سكنهما بالبيت كثيرا ما أعدتا لهم طعاما على نفقتهما أيضا. قالتا له:

ـ الشقة قذرة جدا. هل تتركنا ننظفها إذا كنت ستخرج؟

هز رأسه موافقا. بعد ساعة من الإفطار والاستحمام وحلاقة ذقنه حمل الحقيبة وخرج أمامهما تاركا إياهما في الصالة، وأخذ طريقه إلى مقهى «أَنَح» في الأنفوشي، في يده نفس العدد من مجلة روزاليوسف. سيجد هناك مسئول المنطقة يحمل نفس العدد. لدهشته وجد الجالس بالمقهى بالداخل ويضع العدد أمامه هو بشر زهران. وقف مرتبكا فقال بشر:

ـ تعال يا هاني.

اندهش أكثر.وقف بشر يمد يده يصافحه ويقول مقدما له نفسه كأنه لا يعرفه:

ـ أمير.

ـ اسمك الحركي؟

هكذا قال نادرفجأة فنظر بشر حوله في هلع وقال:

ـ اسكت. يخرب بيتك.

جلس نادر حائرا. بعد لحظات سأل بشر لماذا اختار هذا المقهى البعيد، فأخبره بأن رواده كلهم من الصيادين، ليس بها مثقفون ولا فنانون ولا طلاب يتعرفون عليهما، وتكون أسئلتهم كثيرة عن الحقيبة وما فيها. طيب لماذا لم تتسلم الحقيبة في الشقة مثلا، قال بشر إن هنا أفضل، لا أحد يتوقع أن يلتقيا هنا.

كان نادر يمنع نفسه عن الضحك بصعوبة. وفي النهاية ترك له الحقيبة وانصرف. حينما ابتعد كثيرا ضحك من قلبه غير مصدق ما جرى، صديقان يتحدثان بالأسماء الحركية. جنون!

مرت أحداث كثيرة في الدنيا، والإسكندرية. صار نادر يقابل يارا كل أسبوعين في الشقة في شارع تانيس، انفتحت روحه لكتابة الشعر، وعرف من البودي جارد الواقف أمام ملهى نوال بوط إنها في باريس وستأتي في أكتوبر. إجازتها طويلة هذه المرة، وحين هلَّ سبتمبر قلّت أعداد المصطافين في المدينة، وصار الهواء يجري منطلقا في شارع خالد بن الوليد بعد أن رحل المصطافون وأغلقت المحلات وبدا خرابا حقيقيا، وازدادت المكروفونات التي تذيع الآذان في الأحياء الشعبية في الإسكندرية، وامتدت المساكن العشوائية إلى أماكن لم يتوقعها أحد مثل الهانوفيل بالعجمي وبينه وبين البيطاش، وكل من يبني بيتا دون رخصة من الحي مخالفا لشروط البناء يجعل في دوره الأول جامعا صغيرا، مصلى صغيرا في الحقيقة وليس جامعا، يؤذن فيه البواب حتى لو لم يكن هناك سكان، وتعجز السلطات عن توقيع أي عقاب عليه، فالسادات أصدر قانونا بإعفاء البيوت

والعمارات التي تحتها جوامع من أى مخالفات في البناء، في الوقت الذي استمر فيه يزعق في خطبه طالبا إيقاف القتال في لبنان والقتال لا يقف، وعيسى سلماوي مازال يدور في الإسكندرية يستكمل معرفته بفن العمارة الإيطالية، وتم هدم سينما كونكورديا بشارع الغرفة التجارية لإقامة عمارة كبيرة مكانها، ومات ماوتسي تونج زعيم الحزب الشيوعي الصيني ومؤسس الصين الشعبية وصاحب ما عرف في العالم بالثورة الثقافية عام ١٩٦٦. الثورة الثقافية التي لم يذكرها عيسى سلماوي أبدا في أحاديثه مع تلامذته لأنه يرى ماوتسي تونج وأفكاره تحريفا للماركسية اللينينية، وبدأ شهر رمضان مع سبتمبر فخلت الشواطئ تقريبا إلا من عدد قليل من المصافين يجلسون غالبا تحت الشماسي، لكن ما زالت بعض الفتيات تنزلن الماء بالمايوهات، من أهل الإسكندرية أو زوارها من القاهرة الذين أرادوا وقتا أطيب بعيدا عن زحام يوليو وأغسطس، وشوهد الكثيرون يتناولون إفطارهم على الشواطئ، وضعوا المناضد البلاستيكية وعليها الأطعمة وجلسوا حولها على المقاعد البلاستيكية أيضا التي صارت الآن كثيرة على الشواطئ، وفي آخر لقاء لنادر ويارا بالشقة قالت ضاحكة:

ـ انتهى الصيف ولم تحضر إلى ستانلي ولم ترني بالمايوه.

كانت عارية جواره. ضحك. قال لها باسما:

ـ قلت لك أنا دائما في شاطئ المكس.

قالت ضاحكة:

ـ لا أصدق ما تقول. كيف يكون شاطئا وكل الذين ينزلون فيه هم العربجية يحمّون الأحصنة والحمير.

ـ هكذا صار بعد أن كان زمان شاطئ الاستجمام والعلاج أيضا. كان هناك أجانب في الإسكندرية. كنت صغيرا لكني أتذكر ذلك. حتى الكبائن الخشبية التي في المكس الآن كانت لليونانين وغيرهم. باعوها برخص التراب وتركوا المدينة.

ـ ألا تذهب أحيانا إلى شاطئ آخر؟

ـ أذهب أحيانا مع أصحابي إلى العجمي نجلس في الشاطئ العام لأن بيانكي صار شاطئا خاصا.

قالت هاتفة:

ـ بيانكي. هذا أجمل شاطئ. فيه أيضا فنانون. عبد الحليم حافظ وفاتن حمامة وحتى صالح سليم لاعب الكرة.

ـ كيف عرفت. هل ذهبت هناك؟

ـ أخي يحكي لنا عنه ـ ثم ضحكت ـ وطبعا هناك بكيني كثير جدا.

ابتسم ثم قال:

ـ أدخل الشاطئ من الماء لأنهم وضعوا حاجزا من الحبال بينه وبين الشاطئ العام، أمشي بين البكيني النائم. تصوري النساء تتمددن على بطونهن ويفتحن السوتيان من الخلف لتصل الشمس إلى مكان الخيط الرفيع.

لكزته في صدره ضاحكة وقالت:

ـ يعني أنت تعرف كل شيء. لذلك لا تأتي لستانلي.

ضحك وأخذها في حضنه وراح يقبلها بتبتل وهو يقول لها.

ـ أحلم بيوم يكون لديّ القدرة أطير بك في السماء، أطوف بك العالم، نرى ثلوجه البيضاء فوق الجبال، ونرى أشجاره في الغابات، وطيورا لا نعرفها، وأنهارا وشلالات وبحارا..

ضحكت وقالت:

ـ أنا أحلم بيوم يجمعنا فيه بيت يعرف الجميع أنه بيتنا ولنا وحدنا ولا يأتون إلا بميعاد.

-٧-

جلست كاريمان تنتظر دخولها. كان الموعد في الثامنة مساء، وهاهي الساعة تدخل في التاسعة. كعادتهم حين يستدعون شخصا ما يتركونه نهبا للأفكار والهواجس والتوقعات، حتى إذا دخل وقابل المسئول، يكون مستعدا لأي شيء. طريقة رخيصة مستهلكة يعرفها كل من تعامل معهم. كانت تقول لنفسها ذلك وهي لاتكف عن التدخين. تخرج علبة سجائرها والولاعة من حقيبتها ثم تعيدهما إلى الحقيبة. بعد ثلاث سجائر متتابعة وضعت علبة السجائر والولاعة على الترابيزة الصغيرة أمامها. المقاعد جلدية حقا، لكن بردا يخرج من بلاط الأرض إلى ساقيها، رغم أن اليوم هو نهاية سبتمبر، ولم يدخل الشتاء بعد. تسمع أصوات صرخات نسائية لا تعرف مصدرها، تعلو تارة وتنخفض أخرى وتصبح كالأنين. لابد أنها الأصوات التي حدثهم عنها نادر من قبل.

رغم وجود طفاية السجائر أمامها على الترابيزة الصغيرة، إلا أنها كانت تلقي بأعقاب السجائر على الأرض وتدهسها بحذائها. فجأة

خرج شاب أسمر الوجه من باب لا تراه، وتقدم ناحيتها مشيرا لها بالدخول.

في هذه اللحظة فقط ساورها شيء من الاطمئنان، رغم أنها ستقابل رئيس جهاز أمن الدولة، سيد بيه عبد الباري، ذائع الصيت في المدينة.

المهم الآن أنها ستدخل وينتهي انتظارها وليكن ما يكون. لقد سبق أن استدعوا نادر لكن الذي قبضوا عليه كان بشر.

دفعت الباب برفق دون أن تطرق عليه. لم تنتبه إلى اتساع الغرفة. انتبهت إلى الرجل الجالس بعيدا خلف مكتبه الكبير. تذكرت ما قاله نادر عنه أنه يشبه حلاق حي المكس، لم تر من قبل حلاق الحي هذا، لكنها رأت على وجه الرجل ملامح طيبة لم تتوقعها. قال:

ـ أهلا يا آنسة كاريمان.

ووقف مادا يده يصافحها. بدا حقا معجبا بها. ربما لأنها كانت ترتدي تاييرا جميلا جدا. لكنها بعصبية مفاجئة جلست وقالت:

ـ لو سمحت هل يمكن أن توقف صوت الصراخ الذي أسمعه منذ وصلت؟

لم تصافحه، وهو لم يهتم. سحب يده بسرعة كأنها لم تفعل شيئا وجلس.

تساءل:

ـ أي صراخ؟

قالت في حدة:

ـ صراخ النسوان.

ـ أنا لا أسمع شيئا.

ـ أنا أسمع. أرجوك أوقفه إذا أردت أن أرد على أسئلتك.

أصابتها الدهشة فجأة لأن الصوت كان قد انقطع وهي تتكلم فقال باسما:

ـ لا أعرف علام تتحدثين. أنا لا أسمع شيئا حقا.

هزت رأسها. فهمت الأمر. هناك من يستمع لحديثهما. لكنها بالفعل كادت تجن فجأة، وعليها أن تخفي ذلك بكل ما تستطيع من قوة. قال في شبه همس:

ـ آنسة كاريمان. هل تعاني من شيء؟ شيء نفسي أقصد؟

زمت شفتيها ونظرت إليه قائلة وبهدوء:

ـ تحت أمرك. أنا في حالة جيدة جدا. تفضل اسأل.

هز رأسه مفتعلا الدهشة. مد يده إلى أعلى المكتب، وسحب من فوقه بعض صور الكارت بوستال، أخرج منها واحدة قدمها إليها. أمسكت بها تنظر فيها. قال:

ـ بلاشك تعرفينها؟

ـ طبعا. يارا. زميلتي وصديقتي.

ـ رائع. إنها أيضا صديقة لنا.

نظرت إليه في استخفاف. أدركت الفخ الذي ينصب لها. وقبل أن تتكلم قال:

ـ ستتخرج هذا العام. أنت أيضا ستتخرجين. سيتم تعيينها معيدة بقسم الفلسفة. مارأيك؟

نظرت إليه في لامبالاة فاستمر يتحدث:

ـ المعيد هو الطريق الأمثل للدكتوراه والأستاذية بعد ذلك. طبعا تعرفين.

لم ترد أيضا. قال:

ـ ستسأليني كيف يتم تعيين معيدتين في قسم واحد هو الفلسفة. هذا عملنا. سنختار جامعة أخرى لك، قد تكون جامعة طنطا، وهي جامعة جديدة، أو القاهرة.

وسكت لحظة وهو ينظر إليها نظرة عميقة ثم قال:

ـ أنا شخصيا أفضل لك جامعة القاهرة، أو حتى أسيوط، لأن هناك مشاكل بينك وبين زوج أمك.

هنا أغمضت عينيها في ألم، وأحست بالضيق الشديد. دخل الشاب الأسمر الذي رأته من قبل يحمل كوبا كبيرا من عصير الليمون وضعه أمامها وخرج. انشغل عنها سيد بيه عبد الباري لحظات يقلب في أوراق أمامه ويقرأها. كان صدرها يعلو وينخفض بالغضب، وكانت تبذل مجهودا كبيرا ألا تسقط دموعها. قال:

ـ اشربي الليمون، لا تتضايقي. نحن لا نعرف كل شيء عنك فقط، ولكن عن جميع الطلاب. زوج أمك في جماعة إسلامية وأنت شيوعية، فلابد أن هناك مشاكل بينكما ـ ثم أخفض من صوته وابتسم ـ ثم أنك جميلة جدا، وهؤلاء الناس يحبون الغواني.

قالت بغضب:

ـ أرجوك.

قال بسرعة:

ـ نادر كان هنا أيضا في العام الماضي ورفض التعاون معنا. طبعا تعرفين ذلك. لم يرفض صراحة، لكننا نتركه لبعض الوقت. بشر لم نستدعه لأنه لن يتعاون، وسيستمر فيما هو فيه. ربما لو قبضنا عليه مرة أخرى صار أسهل. حسن لأنه حبيبك فقط، سنستدعيه يوما دون أن نقبض عليه. المهم تتعاوني معنا ـ ووقف يدور حول المكتب ـ آه. بالمناسبة نحن لسنا ضد الحب، كذلك الأمر بالنسبة لنادر ويارا. لكن سنساعدك في النهاية السعيدة.

نظرت إليه ساخرة، وفي شجاعة مفاجئة قالت:

ـ حضرتك تحدثني عن أشياء غريبة جدا. حب إيه ومعيدة إيه؟ يمكن أن أصدقك أن زوج أمي عضو في جماعة إسلامية لكن غير ذلك لا.

سألها بصوت هادئ جدا:

ـ طيب وخليل؟

ارتبكت. قال:

ـ خليل هو اسمه الحركي. هو ناقد أدبي ومترجم اسمه عاصم بهجت. أليس كذلك؟

تماسكت وقالت:

ـ لا أعرف أحدا باسم خليل ولا عاصم بهجت.

هنا ظهر عليه الغيظ. عاد إلى مقعده وسكت لحظات طويلة، ثم ابتسم وقال مغيرا الموضوع:

ـ بصراحة أنت جميلة جدا يا آنسة كاريمان، وأنا غير قادر على الجلوس أمامك. لا أتخيل لحظة أن هذا الجمال يمكن أن يتعرض للبهدلة التي تعرضت لها مثلا سعاد حسني. أكيد شاهدتِ الفيلم.

هزت رأسها وقالت:

ـ هذا كان أيام جمال عبد الناصر، الرئيس السادات منع التعذيب.

ضحك بقوة أفزعتها للحظة. ثم مد يده إلى علبة صغيرة مغطاة بالقطيفة على يمينه، وأخرج منها قطعة شيكولاته قدمها إليها.

نظرت إليه نظرة الواثقة بنفسها، ومدت يدها وأخذت قطعة الشيكولاتة. أخذ هو بدوره قطعة أخرى وضعها في فمه وقال:

ـ مادمتِ أخذتِ الشيكولاتة إذن هناك أمل. صحيح الرئيس السادات منع التعذيب لكن من يضمن بقاء الحال؟ لايزال الضباط في السجون هم الضباط، وأمن الدولة هو أمن الدولة. ثم هل تسمحين لي بسؤال؟

ـ حضرتك تسأل وتتكلم كما تريد.

ـ هل تعرفين شعار الحركة الشيوعية السري؟

هزت كتفها وقالت:

ـ ولا العلني.

قال:

ـ الشعار ياستي، ولا تؤاخذيني، هو، فاتح وافتح.

ظهرت الحيرة على وجهها فاستمر.

ـ واضح أنك ساذجة جدا. فاتح البنت بالانضمام للحزب ثم افتحها.

صرخت:

ـ لو سمحت.

وضع رأسه على يده وقال وهو ينظر إليها ساخرا:

ـ أنا آسف. لكن هل تحبين أن أخبرك بعدد الفتيات الجميلات اللاتي تم الضحك عليهن؟

قالت ولم تعد قادرة على السيطرة على دموعها فجأة:

ـ لو سمحت. عيب كده.

مد إليها يده بمنديل كلينكس من العلبة التي أمامه وقال:

ـ جففي دموعك. صحيح الدنيا تغيرت يا كاريمان، لكن الزمن يمكن أن يعود إلى الوراء.

واتتها شجاعة كبيرة بعد أن جففت دموعها وقالت:

ـ أنا لن أخاف، وحضرتك لن تخيفني، ولن تحصل مني على شيء.

ـ أنا أفتح لك طريق المجد يا آنسة. سأريحك على الأقل من زوج أمك.

ـ هذا رجل تافه لا يهمني في شيء. تستطيع أن ترمي به في أي مزبلة. أم أنه يعمل معكم وهو الذي دلكم عليّ؟

ـ سيعمل معنا آجلا أو عاجلا، لكن المهم هو أنت. لاتجيبي الآن بنعم أو لا. يمكن أن تنصرفي وتفكري على مهل. نحن غير مستعجلين. وأرجو أن لا تحاولي الانتحار مرة أخرى.

وقبل أن تتكلم قال باسما:

ـ مع السلامة يا آنسة.

وقفت بسرعة فقال:

ـ بعد يومين سيبدأ العام الدراسي الجديد. وبعد ثلاثة أشهر سيهلّ يناير. وسلمي لي على أحمد فؤاد نجم.

تحركت خارجة. أدركت أنه يقصد أغنية الشاعر الشهيرة «كل ما تهل البشاير من يناير كل عام» التي يذكر فيها عمليات القبض المتكررة على الشيوعيين في يناير كل سنة.

ما كادت تخرج من الباب الأخير للمبنى وتجد نفسها في شارع الفراعنة، الظلام حولها والمصابيح ضعيفة ونسمة باردة لكن منعشة، حتى أخذت نفسا عميقا، ومشت في حسم مبتعدة عن المكان.

* * *

قال بشر في فخر:

ـ هذا ما قلته لكم أيضا. هذا عين الصواب. نحن الآن في نهاية أكتوبر.

كانت الساعة حوالي الخامسة عصرا. كانوا يعرفون أن أحمد باسم لن يعود إلا متأخرا. ذلك يحدث كثيرا الآن. يخرج في المساء وفي يده سبحة، وقد ارتدى جلبابا أبيض، وكوفية بيضاء، ولا يعود إلا متأخرا جدا. صاروا يعرفون أنه إذا خرج مرتديا الجلباب عاد متأخرا. صار هو قليل الكلام معهم. يقول لهم أحسن شيء في الدنيا الواحد يعرف ربنا، ولا يعارضهم فيما يفعلون، ولا يناقشهم فيه. لكن جدول النساء والفتيات كما هو، فقط قل عددهن. صرن ثلاث يشغلن فقط ثلاثة أيام في الأسبوع، وهي أيام يرتدي فيها الجلباب أيضا، لكن لا يغادر الشقة. ذقنه طالت أكثر من ذي قبل. حدث هذا كله بلا مقدمات. انتهت إجازة نهاية العام وعاد إلى الشقة في هذه الهيئة الجديدة.

كانت أوراق المجلات بينهم على ترابيزة السفرة، وينتظرون حضور يارا وكاريمان معا. أجل. لم يعد هناك ما يدعو إلى الخجل الآن. كل منهما تعرف بحضور الأخرى مع حبيبها، وكل من الحبيبين يعرف، وبشر يعرف أيضا، لكنه يبدو وكأنه لا يعرف، هو أيضا محل ثقة الجميع. هو مسئول الاتصال في الحزب، أو على الأقل، الذي يصل بين مسئول المنطقة ونادر، الذي سيذهب مرة أخرى أيضا لإحضار أعداد جديدة من المجلات.

دق جرس الباب فابتسم كل من حسن ونادر. نظر إليهما بشر في إعجاب ثم همس:

ـ هنا الاجتماع للعمل. لا يطلب مني أحد أن أخرج.

ابتسم حسن ابتسامته الصغيرة، وابتسم نادر زاما شفتيه وهو يفتح الباب. رآهما أمامه فأسرع قلبه ودق بفرح. صافحهما دون أن يقبّل يارا، وكان ذلك قاسيا عليه. كم يود أن يقبلها فعلا. تبدو اليوم أكثر جمالا من كل يوم.

كانت يارا قد عرفت بما جرى مع كاريمان في جهاز مباحث أمن الدولة، وقررت ردا على ذلك أن تتواجد معهم في أي مكان. ولم يكن نادر يحب ذلك. كانت تعرف أنهم يحررون مجلات جديدة، وقررت أن لا تكتفي بإعطاء مقالاتها لنادر، بل تحررها معهم، تماما كما ستفعل كاريمان. هذا هو الرد الوحيد على أمن الدولة. لن أسمح لهم بدق الأسافين بيننا. قالت ذلك في حسم، وفي براءة تفوق ما توقع نادر. وقال بشر الآن:

ـ مادامت يارا قد صدقت، ومادامت قررت أن تخوض المعركة معنا، فلن يقدر علينا أحد.

ثم أشار إلى نادر أن يتبعه إلى إحدى الغرف، وما إن دخلا حتى قال له:

ـ هل تعرف يارا أنك في حزب سرّي؟

ـ لا. وأنا خائف عليها جدا.

ـ لا تخف. هي أشجع منا جميعا. لا تفكر في براءتها. هي تعرف ماذا تريد وكيف تضحي. ما رأيك أن نأخذها معنا في الحزب؟

ـ لا. أرجوك. ليس الآن. ما تفعله يارا هو رد فعل عفوي بريء بعدما عرفت من كاريمان ما قاله رئيس المباحث عنها. يارا ليست للعمل السياسي يا بشر.

هز بشر رأسه وقال في أسف:

ـ حقا هي أرق من فراشة. هيا نخرج إليهم.

خرجا إلى الصالة. جلسا حول ترابيزة السفرة معهم. وقال بشر على الفور:

ـ يارا. أريد أن أكلمك بصراحة. وجودك هنا معنا أو في أي مكان يعني أنك زميلة لنا في الحزب.

نظر إليه نادر في غيظ وقال محذرا:

ـ بشر. أرجوك.

لكن بشر قال:

ـ أرجوك أنت يا نادر. يارا لابد أن تعرف كل شيء. لا يجب أن تتحمل مسئولية عمل هي ليست مكلفة به.

احمرّ وجه يارا وبدت عليها حيرة شديدة فخاطبها بشر:

ـ يا عزيزتي يارا نحن أعضاء في حزب شيوعي سرّي ـ كان نادر يجز على أسنانه في غيظ شديد ـ اسمه الحزب الشيوعي المصري.

قال حسن لنادر:

ـ بشر عنده حق يا نادر.

لم يرد نادر. نظر إلى أسفل والغيظ لا يبارحه. قال بشر:

ـ إذا قبض علينا لن يكون هذا بعيدا عنك لأنك لا تفارقينا، ونحن لا نستطيع أن نفارقك.

ابتسمت يارا ثم نظرت إلى نادر في حب وقالت:

ـ كان لديّ شعور عميق بذلك. أنا معكم في أي شيء.

حط عليهم الصمت، وعلت وجوههم الدهشة، وراحوا ينظرون إلى بعضهم غير مصدقين. قال بشر:

ـ إذن يحدثك نادر فيما بعد عن الحزب وأهدافه ويعطيكِ مطبوعاته. من اليوم اسمك الحركي «فاتن»، طبعا لا تستخدميه بيننا فنحن نعرف بعضنا ـ ونظر إلى نادر مبتسما كأنه لا يريده أن يذكر يوم التقيا في مقهى «أنّح» واستخدم بشر الأسماء الحركية ـ لكن إذا تم الاتصال بينك وبين آخرين من خلايا أخرى من خارج خلية الطلبة في كلية الآداب. خليتنا صغيرة لاتزال لا تضم إلا نحن الأربعة. أنا وحسن وكاريمان ونادر. الآن صرنا خمسة.

لكن يارا قالت باسمة:

ـ فاتن حمامة. إذن نادريكون عمر الشريف.

ضحكوا بصوت عال، بينما نادر تحول غيظه إلى حيرة واستسلام. نظر إليها كأنه يعتذر عما جرى. فقالت:

ـ لا تقلق عليّ يا حبيبي أنا أقوى مما تعرف. أستطيع أن أتحمل المسئولية معك في أي مكان.

استمروا ساعتين وضعوا خلالها خطة الاتصال بالطلاب الآخرين من كليتهم ومن كليات أخرى. قرروا أن ينضم نادر إلى نادي الأدب بقصر ثقافة الحرية ليجند بعض الأدباء، وكذلك أن يعود حسن للتردد على جماعة المسرح بقصر ثقافة الحرية لنفس الغرض، وينسى ما جرى بشأن مسرحيته. حددوا أربعة كتب لقراءتها ومناقشتها كل شهر، هنا أو في أي مكان آخر يختارونه. نريد أن نهز عرش الرئيس المؤمن. قال بشر ذلك فضحكوا بقوة، وقرروا أن ينزعوا ما يستطيعون من الملصقات على جدران الإسكندرية التي تدعو إلى الحجاب. وأن يطمسوا الشعارات المكتوبة على الجدران التي تدعوا إلى ذلك أيضا. ولطول النقاش والوقت الذي استغرقوه، قرروا أن تتم كتابة المجلات بعد ثلاثة أيام، سيأخذ نادر من يارا مقالاتها، وكذلك سيفعل حسن مع كاريمان، على عكس ما أرادت كلتاهما. لا داعي لحضورهما هنا كل وقت. فقط الاجتماع الأسبوعي. وقال نادر فجأة:

ـ سأحضر لكم قصائد لشاعر لا يعرفه أحد، قتل في معتقل الواحات في الستينيات من أثر التعذيب.

أغمضت يارا عينيها متأثرة. قال حسن:

ـ كيف عرفت بذلك؟

ـ هناك كراسة قديمة بها كل شعره عند نوال.

قال بشر ضاحكا:

ـنوال بوط! وما علاقتها بذلك؟ هل كانت معتقلة ونحن لا نعرف؟

قال نادر:

ـ كانت في خلية شيوعية قديمة أيضا.

نظروا جميعا إلى نادرفي دهشة. قال:

ـ حكاية طويلة قد أحكيها يوما.

قال بشر:

ـ ياإلهي. ألهذا تحبنا؟

ـ بالضبط.

قال حسن بابتسامته الصغيرة:

ـ شيوعية وصاحبة ملهى ليلي. عجيب!

قال بشر:

ـ لم نذهب إليها منذ وقت طويل.

لاحظ نادر أن كاريمان تنظر إلى يارا التي بدت شاردة فجأة. أمسك بيد يارا يقبلها ويقول:

ـ ليس في حياتي غير يارا.

لكن حسن قال فجأة:

ـ لابد أن نفكر في طريقة يخرج فيها أحمد من الشقة. لا يجب أن يستمر معنا. لا يعجبني تربيته لذقنه وصمته الدائم والسبحة في يده. هناك شيء ما تغير فيه.

قال بشر:

ـ مالا تعرفه عنه أنه أصبح شديد الانتظام في الدروس الدينية الليلية بجامع القائد إبراهيم. وأنا لاأعرف ماذا يحدث هناك.

ضحك نادر ولم يستطع أن يمنع نفسه عن الكلام ساخرا:

ـ دروس دينية، لقد جاء الأسبوع الماضي ومعه امرأة محجبة؟

حطّ عليهم الصمت. أحس نادر بالخجل. ارتبكت يارا. وقفت. قالت:

ـ لقد تأخرت كثيرا.

وقفت كاريمان وخرجت معها، لكنها التفتت تبتسم لهم، وتهز رأسها كأنها تلومهم وتتوعدهم..

* * *

في جلسة الكافتريا بالكلية اليوم لم يكن عيسى سلماوي مهتما أن يستمع إليهم في أي شيء. كان الجو باردا في الخارج، ومطر خفيف يسقط، وجميعهم في ملابس خريفية، وهو يتحدث إليهم عن ميدان المنشية.

الميدان الكبير الذي كان في بداية القرن التاسع عشر مكانا رمليا، يأتي إليه البدو من أطراف المدينة يبيعون فيه أغنامهم ومنتجاتهم. لقد بدأ التفكير في إنشائه بعد سيطرة «محمد علي» على حكم مصر. تغيرت أسماؤه كثيرا، من ميدان الجيش، إلى ميدان محمد علي، إلى ميدان القناصل، إلى ميدان التحرير. نشأت حوله في البداية الوكالات التجارية والأسواق، وقام بتصميمه المهندس الإيطالي

مانشيني Mancini، وقامت حوله القنصليات الأجنبية مثل القنصلية اليونانية والفرنسية والبلجيكية، وشركات تأمين وبنوك ومقاه ومطاعم ومكتبات ومحلات للمجوهرات والملابس الخاصة ببيوت الأزياء العالمية، الفرنسية أكثر من غيرها، كذلك الكنائس مثل الكنيسة الإنجليية، والكنيسة الإسكتلندية، والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والمارونية والأرمنية وكنيسة سان مارك التي صممت عام ١٨٤١. بواسطة المعماري البريطاني جيمس ويليام وايلد James William Wild. وأنشئت في تسع سنوات.

كان عيسى سلماوي يجتهد في تذكر أسماء المهندسين الأجانب، فيجد نفسه قد نسي الكثيرين منهم، لكنه استمر يتحدث عن البورصة القديمة، التي صارت الآن مقرا للاتحاد الاشتراكي العربي، حزب النظام السياسي الوحيد، والتي تعود أن يلقي عبد الناصر خطبه من شرفتها، وفي إحداها عام ١٩٥٤ جرت محاولة اغتياله من قِبل جماعة الإخوان المسلمين. قال إنها كانت من أكبر البورصات العالمية، وكان بها مكتبة بها أكثر من ثمانية آلاف كتاب، وكانت الأرصفة أمامها تمتلئ بالصيارفة الأجانب من الأرمن واليهود، والمقاهي كذلك تعج بالتجار والمضاربين في البورصة، والميدان أبيض يمتلئ بعطور النساء الجميلات، والأزياء العالمية تعدو في الطرقات، وحول تمثال محمد علي الذي نحته فنان فرنسي وأقيم على قاعدته الرخامية التي صممها أيضا فنان فرنسي بين عامي ١٨٧١ و١٨٧٣ في عهد إسماعيل باشا. أما حين أقيمت القنصلية الفرنسية عام ١٩٠٩ فقد أقيم أمامها ميدان الحدائق الفرنسية، وكانت الأشجار المهملة الآن صورة من حدائق فرنسا وتنسيقها. أسماء كثيرة من رجال المال والأعيان

الأجانب والمصريين عرفها الميدان مثل آفيون Aghion ومينشا Menashe وسيرسوك Sursock ورولو وبوفوس نوبار Rolo and Bughus Nubar ورالي Rally وسلفاجو Salfago وبيناكي Benaki، والبوسطة التي هدمت مع هجوم الإنجليز على الإسكندرية عام ١٨٨٢ وأعيد بناؤها بعد ذلك. كثير من هؤلاء انتقلوا إلى عمارات وبيوت أخرى مع امتداد خط ترام الرمل، لكن ظلت البنايات التي ساهم الإيطاليون من المهندسين أكثر من غيرهم في تصميمها وبنائها. تمثال الجندي المجهول والنصب التذكاري له الموجود الآن، كان في البداية مصمما لتمثال إسماعيل باشا ينظر إلى البحر، تماما كتمثال سعد زغلول في محطة الرمل، البحر المتوسط حيث تقع أوروبا خلفه، وليس الجزيرة العربية التي يأتي منها الوهابيون الآن، فكرا ورجالا، ليخرجوا مصر عن تاريخها الطبيعي، كمكان وهبة للنيل. لا أحد يعرف اين ذهب الضباط الأحرار لثورة يوليو بتمثال إسماعيل باشا. يقولون إنه ملقى في أحد المخازن الملحقة بقصر أنطونيادس.

فجأة قاطعته يارا سائلة:

- بمناسبة ما يحدث الآن من حديث صاخب عن العودة إلى الإسلام، أنا أحيانا أندهش، هل كنا كفارا مثلا ولا ندري؟

ضحكوا، وابتسم عيسى، فقالت:

- العجيب أنه لا مسجد جديد واحد في جمال المساجد القديمة. أنا أسكن في الأنفوشي حولي المساجد في كل مكان. أبو العباس والبوصيري وسيدي العدوي والشوربجي وجامع تربانة وغيرها.

بالمناسبة يا أستاذ عيسى جامع تربانة هذا جميل جدا. تحفة معمارية. هل تعرف شيئا عنه؟

تنهد عيسى تنهيدة طويلة وقال:

ـ طبعا. هو في الحي التركي الذي قام بين الميناء الشرقي والميناء الغربي، وطبعا هذا الحي هكذا أقدم من ميدان المنشية. إنه يتمدد بين المنشية والجمرك والسيّالة والأنفوشي، وبه وكالات وأسواق تعرفونها. والمسجد يعود لتاجر مغربي كبير هو إبراهيم تربانة، بناه في القرن السابع عشر. ربما عام ١٦٨٤. كانت لإبراهيم تربانة وكالة مثل كثير غيره من التجار المغاربة والأوربيين في شارع فرنسا بقلب الحي التركي. مسجد الشوربجي أيضا مع هذا المسجد من أهم ما تبقى من العصر العثماني.

ثم أخذ نفسا عميقا من جديد وقال:

ـ حديث المساجد هذا يحتاج يوما وحده. جامع العطارين الذي كان اسمه قديما جامع الجيوشي نسبة إلى بدر الدين الجمالي الفاطمي أمير الجيوش. جامع الطرطوشي في الباب الأخضر في الجمرك نسبة إلى أبوبكر الطرطوشي المدفون فيه، الذي جاء مصر من الأندلس. كان فقيها على المذهب المالكي، وبالمناسبة المذهب المالكي هو الشائع في المغرب. لقد مات عام ٥٢٠ هجريه. يعني من حوالي ألف سنة!

راحوا ينظرون إلى بعضهم غير مصدقين هذه المعرفة الدينية التي فاجأهم بها عيسى سلماوي. هل هو حقا يحدثهم عن الإسكندرية أم يتغير شيء ما في روحه، خاصة أنه استمر يتحدث عن كثير من المساجد،

الشاطبي وأبو العباس، وسيدي القباري، وسيدي جابر، والقائد إبراهيم حتى وصل إلى مسجد أحمد يحيى باشا في زيزينيا. عرفوا الكثير عن أصحابها، وعن المهندسين الذين بنوها، وخاصة الإيطاليين.

قالت كاريمان مندهشة:

ـ الايطاليون بنوا المساجد أيضا؟!

قال:

ـ جامع أبو العباس وجامع القائد إبراهيم وسيدي تمراز وجامع محمد كريم مثلا بناها مهندسون إيطاليون. كلها تزاوجت فيه كلاسيكية الغرب مع الزخرفة الإسلامية.

وضحك وقال:

ـ تماما كما بنوا السينمات، سينما مترو وسينما رويال، وكما بنوا هانو في ميدان سانت كاترين. أنتم لا تعرفون كيف كان هانو قديما مركزا للجمال. وكما بنوا شيكوريل في شارع سعد زغلول، وأيضا كما بنوا المستشفيات، الحميات، والإسرائيلي، والملكة نازلي وغيرها. أما البنوك، فاذهبوا وزوروا بنك مصر أو البنك الأهلي وانظروا كيف تزاوجت الروح الإسلامية مع الروح الأوربية في البناء.

قال بشر ضاحكا:

ـ أستاذ عيسى. الإسكندرية كبيرة جدا. أخاف تبدأ الحديث عن العمارات والفلل أيضا.

ضحكوا وضحك عيسى سلماوي. قال:

ـ واضح أنكم تريدون الانصراف. أنا أيضا أريد أن أتغدى في أتينيوس. مستعد أن أعزمكم جميعا.

نظر حسن إلى كاريمان الذي يريد أن يأخذها معه إلى الشقة، فنظرت إلى الأرض.

قال حسن:

ـ عزومة جميلة لكن سأعتذر عنها.

قالت يارا:

ـ أنا أيضا سأمضي بقية اليوم في مكتبة الكلية أنهي البحث المطلوب منّا عن الإمام محمد عبده.

قال بشر الذي هو على موعد مع أحد الزملاء في الحزب في مصنع الغزل والنسيج بكرموز:

ـ أنا أيضا للأسف سأعتذر.

قال عيسى بسرعة:

ـ لا تعتذر يا نادر. أنت بالذات أريدك اليوم معي. أرجوك لاتعتذر.

سكت نادر وبدا موافقا. لكن يارا قالت بحماس:

ـ انتظروا. سؤال واحد فقط للأستاذ عيسى؟

ـ من الذي بنى فندق سيسيل. هل تذكر؟ دخلته مرة ووجدته جميل جدا.

ـ بناه أيضا المهندس الإيطالي لوريا عام ١٩٢٨. بالمناسبة

ستجدون اسم لوريا كثيرا في العمارة الإيطالية. أنا لا أعرف اسمه بالكامل، هو C.A. loria. لقد تكرر هذا الاسم في قراءتي مع ذكر المستشفى الإيطالي والمستشفى الإسرائيلي وبنك مصر كما قلت لكم.

ابتسم حسن وقال:

- طيب بالمرة فندق متروبول. باشوف كثير ستات قاعدة وراء الزجاج وأنا ماشي في شارع سعد زغلول.

لكزته كاريمان في ذراعه. ضحك عيسى بصوت عال هذه المرة مما أدهشهم جدا. قال:

- بناه مهندس إيطالي أيضا اسمه فيما أظن بيرجوليزي Pergolesi. هذا أقدم من سيسيل لأنه بني عام ١٨٩٠..

قال بشر وهو يهز رأسه:

- أسماء الإيطاليين أحيانا تكون صعبة.

ابتسموا. قال عيسى بسرعة:

- فعلا. تعودنا على الإنجليزي. لكن قصر المنتزة مثلا والحرملك بناهما فيروسي Verrucci، والقنصلية الإيطالية في محطة الرمل بناها إنريكو بوفيو Enrico Bovio، والبنك الأهلي بناه بارا سكيفاس..

قال حسن مندهشا:

- من؟

قالها عيسى بالحروف اللاتينية:

ـ Paraskevas. وبالمناسبة هناك أسماء سهلة مثل لوريا الذي ذكرته معكم، ومثل كاسيلي الذي بنى مدرسة الدون بوسكو. هل تعرفونها؟

قال نادر:

ـ من لا يعرفها يا أستاذ. أمرّ عليها بالترام كلما جئت من المكس إلى محطة مصر.

وقفت كاريمان فجأة. تمطت وتثاءبت ثم ابتسمت وقالت:

ـ آخر حاجة محطة الرمل.

وقفوا جميعا. قال عيسى:

ـ صممها وبناها لازياك Lasciac.

هتف بشر:

ـ يعني المصريين ماعملوش حاجة خالص؟

ـ كانوا جميعا مصريين. هذا هو العصر الكوزموبوليتي، الذي كانت مصر فيه، والإسكندرية بالذات، مدينة العالم. العصر الذي انتهى مع حرب السويس عام ١٩٥٦ . وبالمناسبة كانت هناك شركات مقاولات مصرية عظيمة مثل شركة المهندس محمد عوض بك والعبد ومختار إبراهيم وعلي لبيب جبر وعلي ثابت. وقبل أن نتفرق هل ستزورون معي المتحف اليوناني الروماني؟

قال حسن:

ـ قبل أن نتفرق أجبني لو سمحت لماذا لا يجلس خلف زجاج متروبول غير النساء العواجيز؟

ضحك عيسى الذي بدا سعيدا جدا هذا اليوم، وهز رأسه وقال:

ـ أنت أكيد حتزعّل كاريمان.

ضحكوا فقال:

ـ ليتكم تزورون معي المتحف اليوناني فعلا الأسبوع القادم.

قالوا جميعا:

ـ مؤكد. وسننطلق الآن في الإسكندرية نتفرج على كل ما حدثتنا عنه.

قالت يارا ضاحكة:

ـ ح نعيط إن شاء الله.

ضحكوا جميعامن جديد وتركوه ومعه نادر، فمشى على مهل لا يصدق كيف تحملوه كل هذا الوقت. فكر أنه قدم لهم كثيرا من المعلومات، التي لايزال لديه مثلها عشرات المرات، لكنه لم يحدثهم عن فن العمارة نفسه. ملامحه وأساليبه. ذلك صعب الآن يا عيسى. المهم أن تستيقظ المدينة في نفوس أهلها. لابد أنهم سيفعلون ذلك مع من يعرفون، ولابد أنهم سيجعلون مجلاتهم على الحائط المرة القادمة من أجل ذلك. سيقترح عليهم ذلك فيما بعد. لم يكن يدري أنهم ما إن ابتعدوا عنه حتى أوقفهم بشر وقال لحسن:

ـ الشهر القادم ثلاث مجلات حائط جديدة كلها مخصصة لمجد الإسكندرية..

ـ الله أكبر.

هتفت يارا وانطلقوا ضاحكين وسط المطر الخفيف.

* * *

أمام «عم السيد» بائع الكتب في محطة الرمل، وقف عيسى قليلا ومعه نادر، قبل أن يتجها إلى أتينيوس. سأله عيسى عن كتابه «معنى البيان الشيوعي» فابتسم عم السيد ابتسامته المعهودة وقال:

ـ أخيرا بعنا نسخة والحمد لله. تحب تأخذ ثمنها؟

قال عيسى مرتبكا:

ـ لا. لما تبيع أكثر.

تردد عيسى في الحديث إلى الحاج الرملي صاحب الفرش المجاور.

الحاج الرملي يبدو جادا دائما. تحدث هو إلى عيسى قائلا:

ـ يا أستاذ عيسى. ليتك تأخذ نسخ كتابك تبيعها في مكتبات الكتب القديمة في العطارين. تاخد لك قرش صاغ في كل نسخة أفضل لك من ركنتها. صدقني. كتابك عندنا منذ أكثر من سنة الآن.

بدا عيسى أكثر ارتباكا خاصة أن معه نادر الذي وقف مبتسما حائرا أيضا. لم يكن سعر الكتاب كبيرا. عشرة قروش لكن لا أحد يشتريه، وعيسى لايزال على أمل أن يباع.

مشى عيسى إلى أتينيوس ونادر معه. قال:

ـ لن أيأس أبدا من بيع الكتاب.

لم يرد نادر. اكتفى بالابتسام. فجأة ظهرت البهجة على وجه عيسى وقال:

ـ ستقابل معي اليوم اثنين مفاجأة لك. الأول هو خريستو آخر يوناني في المدينة تقريبا. مصور من طراز رفيع. لديه كنز من الصور للمدينة. وأيضا يا صديقي الشاعر الجميل ستقابل نوال.

ملأت الدهشة وجه نادر. الفرحة في الحقيقة. ترى هل دبر عيسى هذا اللقاء أم دبرته نوال أم هي صدفة؟ ليست صدفة لأنه أصرّ على أن يصحبه معه. لكنه وجه الدعوة للجميع أيضا. ربما كان يتوقع اعتذارهم ويريد أن تبدو الدعوة أمرا عاديا. اتسعت ابتسامته، وما إن صعدا سلم أتينيوس حتى قال أحد الجرسونات لعيسى مبتسما:

ـ مادام نوال تنتظرك هنا.

وأشار إلى الغرفة الصغيرة على يسار الداخل والتي تسمى غرفة ألكساندر. دخلا الغرفة ورأى نادر أمامه نوال تتصدر المنضدة وعلى يمينها النافذة تطل ككل نوافذ أتينيوس على الميناء الشرقي، وعلى يسارها مقعد خال. أمامها يجلس خريستو الذي وضع الكاميرا الخاصة به على منضدة أخرى خلفه.

وقفت نوال تصافحهما. لم يقف خريستو الذي قال:

ـ تأخرتم علينا أوي.

وكانت نوال قد أخذت نادر في حضنها وتقبل خديه، وهو الذي استسلم لها في خجل لم يستطع أن يمنع نفسه عن الإمساك بيدها ويقبلها.

أشارت إليه ليجلس جوارها. جلس عيسى جوار خريستو وقال على الفور وهو يشير إلى النافذة:

ـ هل يوجد في الدنيا مشهد بهذا الجمال. تحت هذه المياه قصور البطالمة والرومان. من هنا كانوا يحكمون العالم..

فاجأهم خريستو سائلا نادر:

ـ مين حضرتك. أخو مدام نوال؟

ابتسم نادر. قال عيسى:

ـ نادر طالب في الجامعة. مثقف وصديق وشاعر.

اندهش خريستو وهز حاجبيه وقال:

ـ كل ده؟ ممكن برضه.

ضحكت نوال. ابتسم نادر. كانت فوق المنضدة زجاجة نبيذ أحمر وكأسان مملوءان. رفع عيسى زجاجة النبيذ أمامه فنظر إلى الورقة الملصقة بها وعليها بياناتها وقال:

ـ كم تمنيت أن أسافر لبوردو. فرنسا كلها حلم قديم لم أحققه. أنا أحسدك يا نوال. لكن هل سافرتِ إلى بوردو؟

ـ زرت بوردو وزرت لاروشيل أيضا مع إيريني صديقتي اليونانية. وضحكت ثم استطرت بحماس مفاجئ:

ـ زرنا بوردو في يوم ظهور نبيذ «البوجولية» كانت اللافتات على كل الجدران تعلن وصول «البوجولية». كانت هذه أول مرة أسمع عن هذا النبيذ. في كل مكان لافتة « Beujolais Nouveau Est arrivé» البوجولية الجديد وصل. سألت. قالت إيريني هذا أشبه بعيد للبوجولية.في مساء الثلاثاء الثالث من هذا الشهر، وكنا في نوفمبر، تقدم كل المطاعم والمقاهي هذا النبيذ. وكنا في مساء ذلك اليوم. لا تسألوني لماذا هذا اليوم. ولماذا في المساء. ليس لديّ معلومات. المهم تعشينا في مطعم تركي. المقاعد شلت فوق الأرض. المطعم أشبه بخيمة كبيرة. راقصة جزائرية كانت ترقص رقصا جبليا. الناس يشربون البوجولية كأنه ماء. تعشينا كبابا تركيا وكبّة ولبنة وكل ماهو تركي. خرجنا في منتصف الليل. رأينا مشهدا لا يمكن توقعه في فرنسا، رجال يتبولون على جدران البيوت في الشوارع من أثر الشرب الذي شربوه، ولا يستطيعون أن يتحكموا في أنفسهم. كانت ليلة شديدة البرودة جدا. وفي الصباح قرأت إيريني عنوان جريدة الليموند «مائتا مليون زجاجة نبيذ فتحت أمس في فرنسا».

هتف خريستو:

ـ شربتو ميتين مليون إزازة إنتِ وصاحبتك؟

نظروا إليه لحظة في دهشة، ثم ضحكوا بصوت عال. قالت نوال:

ـ أنا وهي شربنا مليون فقط.

ضحكوا من جديد. صب عيسى لنفسه نبيذا ولنادر.

كان شوق نادر لنوال يملأ صدره، كأنما كان لقاؤهما أمرا

صعبا، رغم أنه هو الذي لم يذهب إلى زيارتها. حضر اثنان من الجرسونات يحملان طعام الغداء وزجاجة نبيذ أخرى. كان واضحا أن نوال طلبت من قبل كل شيء. الأطباق الشهية بالأسماك والمشهيات ملأت المنضدة وصعدت رائحتها الجميلة إليهم لكن خريستو قال:

ـ أنا زرت باريس كتير. كل سنة أزورها وأشتري صورا من بياعين على نهر السين أبيعها هنا في إسكندرية. صور حلوة لأفلام زمان وملكات الجمال والممثلين القدامى والمواصلات القديمة. عربيات وترمايات وقطارات زمان.

قالت نوال ضاحكة:

ـ أنا التي أشتريها وأهديها له كل عام. خريستو هذا جميل جدا والله..

قال عيسى:

ـ طيب خريستو. صورنا معا ربما تبيع هذه الصورة يوما.

قام خريستو وتناول الكاميرا القديمة الخاصة به، وصورهم عددا كبيرا من الصور. فوجئ نادر بنوال تضع ذراعها على كتفه في كثير منها. ملأت السعادة صدره وروحه. جلس خريستو ليأكل فقالت نوال ضاحكة:

ـ خريستو حكى لي حكاية غريبة حدثت له اليوم. احكها لهم خريستو. كانوا قد بدءوا يأكلون. لكنه تساءل:

ـ إيه حكاية دي؟ أنا مش فاكر.

قالت باسمة:

ـ حكاية الناس الذين كادوا يضربونك..

بدا كأنه تذكر فجأة وقال:

ـ آه. كنت في شارع فرنسا. شوف شارع فرنسا دا كله جواهرجية. يعني كل اللي يمشي فيه معاه فلوس لأنه رايح يشتري دهب. لاقيت راجل ماسك عيّل صغير بيضربه بالقلم. عيل شغال عنده. بيقول له أنت ليه بتسب الدين. ناس تقوله خلاص يا معلم. خلاص يا حاج. معلم حمار مافيش فايدة يضرب في الولد. أنا بصيت له وقلت له. أنت ليه بتضربه. كل إسكندرية بتسب الدين. معلم بص لي. الناس ضحكت. أنا قلت كمان كل الناس اللي بتعيش في المواني بتسب الدين. دي عادة مش كفر. هما كده. لأن البلاد اللي على البحر فيها أديان كثيرة. يعني واحد بيسب الدين أسهل من أنه يسأل أنت اسمك إيه أو بتشتغلي إيه.

بدا عيسى سعيدا من قدرة خريستو على التحليل فجأة، ونوال تضحك ونادر يبتسم مندهشا واستمر خريستو:

ـ قلت للمعلم يعني أنا أقول لك أنت ابن دين كلب مش أقصد بصحيح. وبعدين أنت يا معلم مش إسكندراني..

تساءل عيسى:

ـ وعمل فيك إيه؟

ـ قال لي أنت دين أهلك إيه؟ الناس ضحكت وخدوني بعيد. قلت دين أهلك أنت يا خمار. ومشيت.

ضجوا بالضحك واستمر يتحدث:

ـ بصراحة مشيت خايف يكون ابن دين كلب ييجي يضربني..

ضحكوا أكثر وللحظات طويلة، ثم بدءوا يأكلون في صمت طال. نادر لا يكف عن هز رأسه من الدهشة. حتى قال خريستو:

ـ خلاص. مش فيه إيليت..

نظروا إليه فقال:

ـ مش عارف كريستينا باعته والا لأ. شفته حواليه جدران خشب وقزاز غامق. يعني مش تشوف حد قاعد بياكل أو يشرب.

قال عيسى:

ـ هذا منذ بداية العام الماضي تقريبا، لكن كريستين لم تبعه. أحيانا أراها هناك. الآن لا يجلس أحد على الرصيف في محطة الرمل مثلا ليشرب البيرة أو الخمور عموما، لا في كاليتيا ولا الأجلون ولا حتى هنا في أتينيوس. تقعد على الرصيف تشرب قهوة فقط.

قال خريستو غاضبا:

ـ كده خلاص يعني مش فيه خرام؟!

لكن الطعام كان مغريا فلاذوا بالصمت من جديد، وانشغلوا بالأكل والشرب دقائق حتى قالت نوال:

ـ خريستو أنا لا أراك إلا مرة واحدة أو مرتين في الصيف كل عام. هل يمكن أن تمضي ليلة رأس السنة معنا هذا العام؟

ـ ممكن. أنا كل سنة هنا في أتينيوس. لكن أنا وحشني الرقص البلدي.

عادوا يضحكون. ضحكوا كثيرا وارتفعت ضحكاتهم تخرج من الحجرة التي فيما يبدو طلبت نوال من قبل أن لا يشاركهم فيها أحد. وخرجوا من الحجرة يضحكون. لم يعد نادر يشغل نفسه كيف رتب عيسى هذا اللقاء مع نوال. على الرصيف قال عيسى:

ـ سآخذ خريستو ونترككما.

هل ستأخذه نوال معها إلى مكان آخر؟ إلى شقتها مثلا الآن؟ سأل نادر نفسه وهو يركب معها سيارتها الفيات.

قالت له:

ـ طبعا تسأل نفسك كيف تم هذا اللقاء. زارني عيسى ورتبته معه. قلت مادمت لم تعد تزورني. لاتقل لي أي سبب منعك عن الزيارة. كنت واحشني جدا ووجدتك. أنا اليوم سعيدة جدا.

ـ أنا أيضا سعيد جدا. اليوم كله كان جميلا. في الصباح حدثنا عيسى عن جمال إسكندرية وتاريخها وعمارتها. والآن مضت ثلاث ساعات وأنا معك.

كانت الساعة تدخل في الخامسة، والغسق يزحف على المدينة.

قالت له:

ـ أين تريد أن أوصلك؟ هل ستذهب إلى بيتكم في المكس؟

ارتبك لحظة. إذا هكذا يكون انتهى اللقاء. قال:

ـ إلى شارع تانيس..

ابتسمت. قالت:

ـ هل ينتظرك شيء أجمل هناك. يارا مثلا؟

هزّ رأسه مبتسما. قال:

ـ لا. ليس هناك أجمل منك اليوم.

ومد يده أمسك يدها اليمنى يرفعها يقبلها. ثم تركها وقال:

ـ يبدو لي إنك كنت تريدين أن تقولي لي شيئا مهما.

ـ هناك الكثير الكثير يا نادر أريد أن أقوله لك. لكن الآن دعني أطلب منك أن تأتي إلى الملهى مع أصحابك ليلة رأس السنة. أمامنا أسابيع قليلة. ستكون ليلة غير كل الليالي.

كان الكورنيش شبه خال من المارة والسيارات، الغيوم سوداء ملأت الفضاء، والمطر أشتد، والسيارة تمشي على مهل، حتى دخلت إلى شارع تانيس الذي بدا خاليا تماما. جوار المنزل أشار لها أن تتوقف. سألته:

ـ تسكن هنا؟

ـ أجل.

نظرت إليه وقالت:

ـ هل تحب شارع تانيس؟

ضحك. قال:

ـ هذه أيضا حكاية يطول الحديث عنها.

ـ لا. أنا أعرف كل شيء عن هذا الشارع الجميل.

ارتبك لحظة. ثم بدا أنه لايريد أن يترك السيارة. في الحقيقة كانت هي التي تمسك يده بين يديها، والمطر يشتد ويرتفع صوت اصطدامه بالسيارة، ويغطي زجاجها من كل جانب، إذ ينزل عليه موجات بعد موجات، والأضواء المتسللة من خلف نوافذ البيوت لا تكفي لمقاومة الظلام الذي حل على المدينة لدخول الليل، وامتلأت السماء بالسحب السوداء.

ـ كأنني في باريس.

قالت ذلك ومالت عليه تقبله في فمه. راحا في قبلة طويلة لم يستطع فيها أن يمنع يديه من الإمساك بثدييها، والمشي بهما على بطنها وفخذها، همس لها:

ـ اصعدي معي إلى الشقة.

ـ لا. دعنا هنا

ـ السيارة لا تتسع لنا.

كان يهمس وهو يلهث ويمشي بشفتيه على عنقها وهي بدورها تلهث وتتأوه. قالت:

ـ شيء لم أفعله في باريس. دعني أفعله هنا.

وراحت يده تحوطها من أعلى والأخرى تحت فستانها بين فخذيها وقبلاته تطارد وجهها وعنقها وصدرها، وهي بدورها كانت تشده إليها وتقبله وتترك يدها بين ساقيه. وفي اللحظة التي أحست به غير قادر على أن يتحكم في نفسه أبعدته قليلا. ونظرت إليه وعيناها متالقتان وأنفاسها تتلاحق وشفتاها مفتوحتان وهمست:

ـ يكفي هذا. تمنيت وأنا في باريس لو كنت معي. بل حلمت بك تفعل هذا معي هناك، وبالليل كما نحن الآن.

اقترب منها فابتسمت وصدته بيديها في صدره وقالت مبتسمة:

ـ لا تنس أننا في مصر. لو رآنا أحد لقبض علينا واتهمنا بالفعل الفاضح في الطريق العام.

همس:

ـ لا أحد في الشارع.

قالت:

ـ لقد حققت أمنيتي. الوداع الآن ـ وضحكت ـ ثم لا تقل لي أن شخصا يسكن في شارع تانيس محروم من النسوان.

ابتسم. تركها ودار حول السيارة من الأمام، ليدخل من باب العمارة الصغيرة المفتوح دائما.

تحركت هي بالسيارة، بينما هو يصعد السلم على مهل، أدار المفتاح في الباب متمنيا أن لا يجد أحدا. أن يخلو ساعة إلى نفسه يسترجع فيها كل ما مضى في هذا اليوم الجميل. ما إن فتح الباب

حتى رأى أمامه أحمد باسم جالسا إلى ترابيزة السفرة وأمامه روايح وغادة وبينهما بقايا طعام. رآه أحمد فوقف قائلا بعد أن أخذ السبحة التي على الترابيزة في يده:

ـ ها هو نادر. حدثوه كما تريدون.

كانت دهشة نادر من أحمد ليست أنه يرتدي الجلباب. هكذا صار. لكن لماذا يحرص على السبحة في يده حتى في البيت.

قالت روايح:

ـ خلاص. عرفنا أن مدام نوال حتبيع الملهى. ماصدقنا اشتغلنا عندها.

نظر إليهما في دهشة سرعان ما صارت ضيقا. هل كان هذا لقاء الوداع مع نوال. كيف وقد طلبت منه الحضور مع أصحابه ليلة رأس السنة؟ ثم قالت روايح:

ـ اقعد معنا دقيقة. سأخبرك من سيشتري الملهى.

لم يرد. لكن غادة قالت:

ـ نريدك أن تجعلنا نفهم فقط. عرفنا سبب شراء الملاهي لتحويلها إلى مقاه أو صالات أفراح لأنها حرام. طيب هل السينما حرام؟

نظر إليها مبتسما فاستطرت:

ـ الرجل الذي يتفاوض مع مدام نوال على الملهى يقولون عنه إنه اشترى سينما في كرموز اسمها سينما «النيل» ليحولها إلى مصنع، وسينما في راغب اسمها «الجمهورية» ليحولها إلى عمارة.

لم يجد شيئا يقوله غير أن يهز كتفه غير مبال، لكن أحمد عاد وخرج من حجرته ليقول:

ـ وسينما التتويج في الأنفوشي وقيس وليلى في باكوس وكليوباترا في الفراهدة وسينمات المنشية ومحطة الرمل، الشرق وريكس والهمبرا وبارك وماجيستك وريتس. كله سيهدم يوما ما. اتهدوا انتم بأه!

ثم عاد إلى غرفته من جديد بينما صار نادر في منتهى الدهشة والغيظ. من أين تأتي كل هذه المعلومات لأحمد باسم؟ هل لذقنه علاقة بما يحدث في المدينة حقا؟ هل فعل ذلك بنفسه ليحصل على شيء ما؟ ستظهر له الأيام ما خفي عنه!!

* * *

شهدت الأسابيع الأخيرة من العام جوا من الانفراج السياسي في مصر، حيث تحولت المنابر السياسية داخل الاتحاد الاشتراكي العربي، تنظيم الدولة السياسي الوحيد، إلى أحزاب. صار للاشتراكيين على اختلاف اتجاهاتهم ودرجاتهم، حزب سياسي يحمل اسم «التجمع الوطني التقدمي الوحدي» تندر عليه البعض وسموه «توتو» اختصارا لاسمه، وتوتو طبعا اسم دلع للأطفال. لكنه أيضا اسم يطلقه المساجين على موقد كحولي صغير يصنعونه في السجن. وظهر حزب العمل، وحزب مصر الاشتراكي، والحزب الناصري، وأقيمت الانتخابات النيابية فشهد لها بعدم التزوير لأول مرة في تاريخ مصر الحديث، وكان جيمي كارتر قد فاز برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وانتخب سيد مرعي رئيسا لمجلس الشعب في مصر بأغلبية كاسحة، وظهرت أسماء

جديدة في سماء السياسة من الإسكندرية مثل الشاب أبو العز الحريري نائبا عن العمال في كرموز، والناصري كمال أحمد عن دائرة العطارين، وكان أبو العز الحريري معروفا في أوساط الماركسيين، كذلك سطع اسم النائب السكندري المستشار محمود القاضي، وكانت النوات الشتوية تتوالى منتظمة ذاهبة إلى العام الجديد، وعرضت سنيما مترو فيلم «المذنبون» لسهير رمزي وهو الفيلم الذي بلغ الغاية، قياسا على الأفلام المصرية، في المشاهد الجنسية، وعكس جرأة مخرجه الشاب سعيد مرزوق صاحب الأفلام الرائعة بالسينما المصرية مثل «زوجتي والكلب» و«الخوف»، ولأن الفيلم يقوم على حبكة التحقيق الجنائي في مقتل البطلة، الممثلة في الفيلم، نكتشف العلاقات الجنسية بينها وبين رجال المال والسياسة الجدد في المجتمع، وحجم الفساد الهائل. الفيلم صار موضوع الصحافة، هجوما ومدحا، بشكل لا ينقطع، وأصبحت أسماء الممثلين عادل أدهم وحسين فهمي وزبيدة ثروت وسمير غانم وكمال الشناوي لا تذكر إلا مع الفيلم، رغم أنهم قاموا بأدوار أخرى كبيرة في تاريخهم، وتاريخ بعضهم الطويل في السينما مثل كمال الشناوي، وافتتح الرئيس السادات مشروعا للدواجن ينتج سبعة ملايين دجاجة في العام، وعرض مسرح الزمالك في القاهرة مسرحية «علي بيه مظهر» لمحمد صبحي، وأقيم أول مركز إسلامي في غينيا بتصميمات هندسية مصرية أهداها السادات إلى الشعب الغيني، وصار الحوار بين الأحزاب الشيوعية السرية عما يمكن أن يحدث الآن، وقد صار هناك حزب علني لليساريين، وتوقع بعضهم انفراط عقد الأحزاب السرية، وأعد بشر ونادر وحسن وكاريمان ويارا ثلاث مجلات جديدة تحمل صورا وموضوعات عن عمارة

الإسكندرية وتاريخها، في تطور حير طلاب الجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين، وجذبت المجلات أعدادا كبيرة من الطلاب يقفون أمامها مندهشين سعداء من الصور التي تم جمعها من قبل من المجلات والصحف القديمة ومما كتبوه تحتها. وحدث قبل نهاية العام بأسبوع أن دخل أحمد باسم الشقة ومعه محمد شكر الذي استقبلوه بدهشة وفرح. قال أحمد:

ـ وجدت محمد شكر في الشارع يبحث عن سكن قلت له أن يسكن معنا. عرفوا من محمد شكر أن صاحب الشقة التي يسكن فيها في شارع طيبة، طلب منه ومن معه، أن يخلوا الشقة مع بداية العام، وأن زملاءه وجدوا سكنا في شقق أخرى في الشارع مع أصدقاء لهم، هو لم يجد هناك فجاء يبحث في شارع تانيس ليقابله أحمد. رحبوا به سعداء أن يشاركهم السكن. سيكون مع أحمد في غرفته أو أي غرفة أخرى، وبعد أن دخل الغرفة مع أحمد قالوا لبعضهم، نادر وحسن وبشر، كنا نفكر كيف نتخلص من أحمد. الآن صار معنا اثنين. لكن ما يعرفونه عن محمد شكر وكيف يحبه كل الطلاب جعلهم يرحبون به. كانوا يتساءلون هل قابله أحمد صدفة حقا، أم هو يريد أن يعرف منه حكاية حبه لفوقية بنت الوزير؟ وربما عن طريقه يصل إلى أختها فوزية، صار أحمد لغزا لهم الآن، وإن كانوا على يقين أنه على اتصال بالجماعات الإسلامية أو الإخوان المسلمين، محمد شكر لايمكن أن يكون كذلك. والذي حدث أن محمد شكر أشاع كثيرا من البهجة إذ صار صوت عبد الحليم لا ينقطع قادما من غرفته يغني من جهاز التسجيل الخاص به كل أغاني الحب والغرام، وأحمد لا يعترض. الحقيقة صار أحمد لا يأتي إلى الشقة كل يوم إلا لينام، فينتقل محمد

إلى غرفة حسن يذاكر معه ومعه جهاز التسجيل الصغير، ولا ينتبه أن لديهم جهاز تسجيل يمكن أن يستخدمه ويضع فيه الشرائط التي يحبها. بدا كأن الشرائط وجهاز التسجيل الخاص به شيء واحد، وكان ذلك يضحكهم.

جاءت ليلة رأس السنة، فاعتذر محمد شكر عن الذهاب معهم إلى نوال بوط، سيمضي الليلة وحده يستمع إلى الغناء من الكاسيت، وبالطبع اعتذر أحمد هذا العام ولا يعرفون أين سيمضي ليلته، حتى إذا كانت ليلة عيد الميلاد قررت كاريمان البقاء في البيت، فإذا قبض عليها يتم في بيتها. أما يارا فقد كانت أحسن حظا إذ لم تهاجمها آلام الدورة الشهرية كما حدث العام الماضي، لذلك صحبها أبوها وأمها معهما إلى أصدقائهما. كانت فقط تفكر، متى ستقضي ليلة رأس السنة مع نادر؟ وهل سيأتي هذا اليوم؟ تماما كما كانت كاريمان تفكر في حسن.

ذهبوا هم، نادر وحسن وبشر، قابلوا هناك عيسى سلماوي، وجلسوا حول نوال يستمعون.

على شط بحر الهوى رسيت مراكبنا
والليل جمعنا سوا إحنا وحبايبنا
على شط بحر الهوا.. رسيت.. مراكبنا.

كان المغني الشاب إبراهيم أحمد يغني أغنية كارم محمود، والراقصة علياء تتحرك بخفة أمامه وحوله وبين الجمهور الذي ملأ الصالة الليلة، والشتاء لا ينقطع في الخارج. عيسى سلماوي جالس بينهم لكن يفكر أنه لم يقم بجولته التي فعلها العام الماضي. جاء

مباشرة في العاشرة إلى ملهى «نوال بوط» وهو الآن جالس معها، ومع بشر ونادر وحسن..

نوال ترتدي كالعادة فستانا سواريه عاري الأكتاف، تدخن سيجارة في مبسم طويل في رشاقة، والنور الخافت للمكان يجعل أجساد النساء العارية تلمع، وفتيات الملهى يدرن بالطلبات على المناضد، يرفعن ما استهلكه الحاضرون، ويضعن ما يطلبونه من إضافات، ولا يزال هناك من يأتي. كان من بينهن روايح وغادة اللتان كانتا تبتسمان لهم من بعيد وهما واقفتان خلف الجالسين في انتظار أن يدعوهما أحد من الجالسين لتشاركاه الجلسة مثل نساء أخريات. كان بشر سعيدا جدا وهو يتكلم عن المجلات الجديدة التي علقوها وعليها صور عمارات الإسكندرية العظيمة وآثارها وعيسى يشعر بالفخر. قال:

ـ لكننا لم نذهب بعد إلى المتحف اليوناني الروماني. أؤجل زيارته حتى تأتوا معي. وبالمناسبة هناك الكثير لم أحدثكم عنه من الآثار الدارسة في الإسكندرية. لقد حدثتكم أكثر عن الحاضر.

قال حسن مبتسما ابتسامته الصغيرة المعهودة:

ـ سنفعل كل شيء يا أستاذ عيسى. لكن دعنا الآن نستمع إلى الأغنية الجميلة التي لم أسمعها من قبل:

بحر الغرام ميّته أحلى من السكر
واللي الهوا غيّته لو داقها راح يسكر
واللى يزور حيّنا يدعي ويتمنى
يفرح ويسعد زيّنا باحبابه يتهنّى

والشوق جمعنا سوا
إحنا وحبايبنا

وبينما كان نادر يمد يده من أسفل المنضدة، يمسك بيد نوال يضغط عليها متأثرا بكلمات الأغنية وهي تبدو شاردة، قال عيسى فجأة لنوال:

ـ خريستو يعتذر لك عن الحضور.

اندهشت فقال:

ـ أخبرني منذ يومين في أتينيوس أنه تعود على المكان هناك ـ ثم ضحك ـ وأنه لم يعد يحب الرقص البلدي.

قالت ضاحكة:

ـ رغم ما قاله ونحن معا «وحشني الرقص البلدي». المهم إنه يتذكر دعوتي، إذن هو سليم العقل. لماذا تراه غير ذلك؟

ابتسم عيسى وقال:

ـ أنا أعتبره سليم العقل في كل ما يقوله، لأن أفضل شيء لمواجهة ما يحدث من حولنا هو الجنون!

كانت حياة الجميلة تضع بينهم زجاجات النبيذ والأطعمة، وبشر لا يرفع عينيه عن ساقيها كعادته. قال نادر:

ـ هل ستغني نانا الليلة؟ أرى صورتها على كثير من الملاهي الآن..

قالت نوال:

ـ اشتهرت هنا، والليلة طلبت مني السماح لها بالغياب. ستغني في فندق فلسطين. طبعا لم أمنعها. وبصراحة ستستمعون لي وحدي الليلة..

هتف بشر وحسن معا:

ـ الله!!

نظر إليها نادر ثم أمسك بيدها وقبلها وقال:

ـ ليتنا لا نسمع غيرك حتى آخر العمر..لكن بشر سألها:

ـ هل صارت روايح وغادة تعملان عندك؟

قالت نوال:

ـ امرأتان لطيفتان. جاءتا إليّ وقالتا لي إنهما يسكنان معكم، وإنهما طلبا من نادر أن يتوسط لهما في العمل عندي.

قال نادر:

ـ هذا حدث حقا وأنا نسيت أطلب منك ذلك.

ـ أعجبتاني. جمالهما لابأس به ولديهما خبرة. قلت لهما لقد حدثني نادر عنكما حقا. لم أشأ أخيب أملهما.

قال بشر مندهشا:

ـ ولم يخبراني!

قال حسن:

ـ ربما خشيتا أن تحسدهما يابشر. والنبي ياست نوال تهتمي بهما.

ضحكوا. كان كثيرون من الجالسين يصفقون للمطرب إبراهيم أحمد، وبعض النساء تركن أماكنهن ليرقصن مع علياء. لاحظت نوال أن نادر ينظر إلى الطعام ويبدو عليه التفكير فقالت:

ـ هل قرأت اللافتة الموضوعة أمام الملهى الليلة؟

قال نادر:

ـ قرأتها. ليلة سكندرية.

قالت:

ـ كل أنواع الأكل الليلة من الإسكندرية. الأسماك وفواكه البحر والسمان والكباب والكبدة والحلويات. كلها مما عرفته الإسكندرية في تاريخها. أكل تركي وأكل إيطالي وأكل يوناني وأكل شامي وأكل فرنسي، مثل كل من عاشوا هنا وتركوا آثارهم.

ضرب عيسى سلماوي جبهته وقال:

ـ كيف فاتني أن أحدثكم عن مطاعم الإسكندرية. مطاعم راحت مثل

Restaurant des fouls et foules ومطعم يونيون الذي كان قريبا من الشيخ على وكان من رواده عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ولهما مقعدان محجوزان دائما، وزاره أيضا تشرشل وروزفلت. وماي فير إن May Fair Inn في ستانلي على البحر، وكان مثل تحفة من الخشب، ومطعم كلينزو المغلق الآن ويقال إنه بيع، ومطاعم وبارات وأماكن للحلوى والجاتوه باقية مثل أتينيوس

طبعا وديليس، ومخبز هاموس اليوناني الذي افتتحه صاحبه دميتري هاموس في شارع فرنسا في الحي التركي عام ١٩٠٠، ثم أصبح الآن اسمه إلكسندرا هاموس يملكه أحفاد ديمتري، لكن في شارع عمر لطفي بسبورتنج الصغرى.وطبعا سان جيوفاني الذي تأسس عام ١٩٣٩ والبوريفاج السويسري الذي اشترته عائلة سلامة وصورت فيه أفلام عربية كثيرة.

قالت نوال ضاحكة:

ـ عيسى لن يسكت الليلة. كأنه يودع الإسكندرية. يا حبيبي نحن لن نودعها أبدا.

قال عيسى ضاحكا:

ـ آسف. لقد نسيت نفسي. في الكلية أفضل أحدثكم عن باستارودس وتريانون وموناكو وأستيريا وشي جابي وسان ستيفانو وديليس وزفريون وسي جل وسانتا لوتشيا والنادي اليوناني.

فاجأتهم نوال واندفعت تبكي.نظروا جميعا إليها في حيرة وقلق. قالت لعيسى:

ـ لماذا تفعل ذلك. أنا أخفي موعد سفري القريب عنكم جميعا. أخفيه عن نفسي. لماذا تجعلني كأنما أودع المدينة؟

كانت موسيقى شرقية فقط تأتي من الباند الشرقي. لم يكن هناك غناء ولا رقص الآن. ارتبك عيسى جدا.أمسك يدها يقبلها ويقول:

ـ آسف. آسف جدا. كان يجب أن أنتبه إلى الرقص والغناء الليلة.

سامحوني جميعا. لقد قرأت كثيرا الشهور الماضية. أنا أشعر فعلا أن إسكندرية تفر من يدي. آسف جدا..

وراح يقبل يد نوال من جديد، ثم أخذها في حضنه وقبلها. قامت وتركتهم إلى غرفتها القريبة. أسرعت حياة التي كانت تراقب ذلك خلفها. نظر نادر إلى عيسى في عتاب فقال عيسى:

ـ لا تؤاخذني حقا يا نادر. لاتؤاخذوني جميعا.

صارت أصوات الحاضرين عالية تطالب نوال أن تغني. يصفرون ويصفقون، ولم تكن نوال قد عادت بعد. مضى الوقت مملّا، عشر أو عشرون دقيقة لكنها كانت كالدهر بالنسبة إلى نادر الذي وقفت أمام عينيه صورة الدموع على وجنتي نوال وهي تترك المكان مسرعة، ورواد الملهى سكتوا لارتفاع الموسيقى وعدم توقفها، ثم ظهرت نوال عائدة وقد غيرت فستانها بفستان أجمل. أحمر هذه المرة بعد أن كان أخضر وسواريه أيضا واستعادت مكياجها.

اتجهت مباشرة إلى البست ووقفت، فملأ التصفيق والصفير فضاء الملهى. اقتربت من الفرقة الموسيقية تهمس لأعضائها فتهادت موسيقى عرف الجميع أنها لسيد درويش.

أاااانا هويت وانتهيت وليه بأه لوم العزوول
يحب اني أقول ياريت الحب دا عني يزووول.

دوى التصفيق لكنها لم تتوقف. ارتفع صوتها يصدح:

مااادمت أنا بهجره ارتضيت
خلّي بأه اللي يقول يقوول.

دوى التصفيق من جديد وتوقفت نوال واستمرت الموسيقى لتعود تكمل الأغنية على إيقاع البهجة:

أنا وحبيبي في الغرام مافيش كده
كده كده كده. ولا في المناااام.

ويعود التصفيق ويتبادل الرجال مع النساء القبلات السريعة في فرح.

وبدأت نوال في الأغنية الأخرى على الفور. صدحت الموسيقى فصفق الحضور وضحكوا وارتفعت الكاسات. وبدا حسن ونادر وبشر في غاية الدهشة. سألوا في لحظة واحدة عيسى سلماوي إذ رءوه يبتسم سعيدا.

- هو فيه إيه!

قال:

- أغنية الحشاشين.

زادت دهشتهم فقال:

- اسمها أيضا التحفجية.

قال نادر:

- لم أسمعها أبدا. في الحقيقة لا أعرفها.

قال بشر ضاحكا:

- مادام عن الحشيش والحشاشين إذن هي صحيح لسيد درويش. خلونا نسمع:

ضحكوا وقال حسن ساخرا:

ـ كل الناس عارفه الأغنية إلا أنتم. فعلا إسكندرانية!

وبدأت نوال والضحكات تملأ فضاء الملهى:

يا ماشاء الله ع التحفجية
أهل اللطافة والمفهومية
اجعلها ليلة مملكة يا كريم

صار الضحك في الصالة لايمكن السيطرة عليه. تتوقف نوال لحظات وتكمل بأداء تمثيلي للحشاشين يدهش الجميع.

دا الكيف مزاج إذا تسلطن
أخوك ساعتها يحن شو شو شوقا
إلى حشيش بيتي نيتي نيشي
اسأل مجرب زي حالاتي

تتوقف لحظات لتترك للصالة فرصة الضحك والتصفيق من جديد.

حشاش أراري يسفخ يوماتي
خمسين جراية. ستين سبعين
هأهأهأ يامرحب.
صدق وآمن بالذي خلقها
وقال كوني «جوزة» لكل من يدوقها

ثم بإيقاع هادئ كأنها تعلن حكمة أزلية:

مايسلا أنفاسها بملايين

والضحك ينفجر ثم يرتفع إيقاع الموسيقى وتسرع في الكلام:

بس الأكادة حبسة ظلومة
يكفينا شرك يادي الحكو حكو حكومة
أول ما تسمع زنة ناموسة
تبص تلقى كل «الشخوصة»
إكسبريس راحم طايرين

الضحك هذه المرة طويل يكاد لا ينقطع:

هو احنا يعني علشان غلابة
لابتوع قراية ولابتوع كتابة
تهينونا.. فلتحيا التفانيييين

ينخفض الضحك قليلا بينما تستمر هي:

كان يبقى شنبي من غير مؤاخذة
على كلب رومي ولا على معزة
أول ماتنده وتقول ياقرقر
أجيك مشمّر
من غير تأخر
هو ابن مصرح يخاف من مين
هأ هأ يا مرحب
ورينا أجدع بيه ولا باشا
يقدر يعايب على الحشاشا
فشر يا دقدق صلاة على الزين

واقولك الحق يوم مانلقى
بلادنا طبت في أي زنقة
يحرم علينا شربك يا جوزة
روحي وانتي طالقة مالكيش عوزة
دا مصر عايزة جماعة فايقين.

وقفت نوال تضحك وأنفاسها تزداد سرعة فيرتفع صدرها وينخفض، والجمهور في ضجيج من السعادة وتصفيق طويل جدا هذه المرة، وهتفت لهم:

ـ الليلة كلها سيد درويش. موافقين؟

هتفوا:

ـ عاش سيد درويش. عاش سيد درويش.

وهكذا راحت تغني: «خفيف الروح بيتعاجب.. برمش العين والحاجب». فترقص الصالة ويملأها المرح من جديد. ثم «طلعت يا محلا نورها»، فيسود الهدوء، حتى غنت: «أنا عشقت وشفت غيري عشق». فساد هدوء غريب كأن الحاضرين جميعا عشاق رومانسيون.

عشر أغنيات لسيد درويش، وبدا على نوال التعب، ونادر يفكر لماذا حقا كل الأغنيات لسيد درويش الليلة، نوال حقا ستترك الإسكندرية في القريب العاجل. لايجد معنى غير ذلك. هي قالت ذلك ودائما كان عنده أمل ألا تترك المدينة. تترك فيها الآن آخر نبضات روحها، تعلن للمدينة الآن كل حبها لها، وله أيضا، لأنها على طول ما غنت كانت كثيرة الالتفات إليه. وقام أحد الموسيقيين وهمس

في أذنها، فهزت رأسها. كانت هناك دقائق لتصل الساعة إلى الثانية عشرة وتطفأ الأنوار فانطلقت تغني:

زوروني كل سنة مرة
حرام تنسوني بالمرة.

وما كادت أن تنتهي حتى أطفئت الأنوار، التي ما إن عادت بعد دقيقة. لم يعد أحد يرى نوال. كانت قد خرجت في دقيقة الإظلام، وأسرعت إلى سيارتها، وإلى بيتها وحدها تكمل هناك انتحابها.

-٨-

لم يقبض على أحد من الشيوعيين ليلة رأس السنة هذا العام. كان ذلك مدهشا. قيل ربما حدث ذلك اتساقا مع الروح السياسية الجديدة بعد السماح بقيام الأحزاب.

صار ممدوح سالم رئيسا للوزراء، وسافر نادر إلى القاهرة في زيارة جديدة لإحضار أعداد جديدة من مجلات الحزب. ذهب إلى مجلة الطليعة ليقابل الناقد الكبير كما يعتبره فلم يجده. لا يعرف حتى الآن إذا كانت قصيدته ستنشر أم لا. الآن يعرف الطريق إلى الزمالك. ومثل المرة السابقة لديه الوقت، فالموعد أيضا في الساعة السابعة مساء.

ذهب إلى مقهى ريش مترددا. شمله شيء من الخوف. هل حقا يمكن أن يقابل هؤلاء الكتاب ويجلس بينهم مرة أخرى؟ نجيب سرور وأمل دنقل وسليمان فياض، وفاروق عبد القادر. هذه المرة عليه أن يكون أكثر شجاعة ويتكلم. هم أبدا ليسوا على ما يبدون عليه.

ذهب إلى المقهى عله يقابل فاروق عبد القادر ويعرف مصير

قصيدته. لم يجده. لم يجد نجيب سرور أو سليمان فياض. لم يجد أحدا. جلس وحده بعض الوقت في القسم الداخلي ينظر إلى صور الفنانين الذين رحلوا عن الدنيا وكانوا من قبل يجلسون هنا.

حوله كثير من الأجانب. أكثرهم من الشباب. فتيات جميلات في ملابس شتوية ورائحة البارفان تملأ فضاء المكان. يرى الجرسون «ملك» يمر يشخشخ جيبه دائما، فيتذكر نجيب سرور ويبتسم. رأى الجرسون النوبي الأسمر فلفل، فرأى على وجهه طيبة أبدية تذكر بها خليل، أدرك أنها طيبة محفورة في وجوه النوبيين جميعا. كان قد جلس في القسم الخارجي ساعة، وأمضى هنا ساعة، وأحس بالملل. قرر أن يترك المقهى، ويمشي كيفما اتفق في وسط البلد. تذكر أنه يمكن أن يمر لأول مرة على مكتبة مدبولي. كان يعرف أنها قريبة هنا في ميدان طلعت حرب. ذهب إليها. وجد فرش الكتب والصحف أمامها، ووجد الحاج مدبولي في جلبابه البلدي يرتب بنفسه بعض الكتب. أجل، لابد أنه هو الذي يرتدي الجلباب البلدي. وقف مرتبكا. هل يطلب منه كتبا ممنوعة في مصر حقا؟ لكن ماهي عناوين الكتب الممنوعة التي يريدها؟ لا يعرف. بدا ارتباكه للحاج مدبولي الذي نظر إليه مرة واحدة ثم بدا لا يهتم. وجد نفسه يسأل عن أي كتب جديدة. نظر إليه الرجل واتسعت عيناه بدهشة خفيفة وقال:

ـ أي كتب؟

بدا مرتبكا أكثر. قال الحاج مدبولي:

ـ سياسية مثلا أم أدبية؟

تردد لحظة وقال:

ـ سياسية وأدبية.

نظر إليه الحاج مدبولي نظرة هادئة لم يفهمها نادر ثم نادى أحد عماله وقال له أن يصحبه إلى المخزن في الخلف من مدخل العمارة. قال له أن يطلعه على آخر ما وصل من بيروت.

بدا سعيدا جدا وهو يتبع العامل الشاب. تركه العامل في المخزن المليء بالكتب على الجانبين وعلى الأرض وخرج. أمضى هو نصف ساعة كاملة وخرج يحمل كتابين اثنين فقط «الأقدام العارية» « لطاهر عبد الحكيم» الذي يحكي قصة الشيوعيين في معتقل الواحات، وديوان «عيون إلزا» لأراجون. قدمها إلى الحاج مدبولي مرتبكا فنظر إليه مبتسما وقال:

ـ خمسة عشر جنيها.

ارتبك أكثر. فكر هل هكذا الكتب غالية في القاهرة؟! قال الحاج مدبولي:

ـ ليس معك ما يكفي؟

ـ معي خمسة جنيهات فقط.

ـ خلاص. ادفع الخمسة.ولما تيجي تاني ادفع العشرة.

ارتبك أكثر. نادى الحاج مدبولي على أحد عماله الذي جاء بسرعة فقال له أن يأخذ اسمه ويجعل له صفحة في دفتر الشكك.

كان معه في الحقيقة ثمانية جنيهات. يريد أن يحتفظ بثلاث منها

للعودة ولدفع ثمن ما سيطلبه في كازينو كليوباترا حين يقابل وفاء. وقبل أن يملي اسمه على العامل قال للحاج مدبولي:

ـ لكن أنا ربما أغيب شهرا أو أكثر. أنا من إسكندرية.

قال الحاج وهو يرتب بعض الكتب على الفرش دون حتى أن ينظر إليه:

ـ مش مهم. تعال في أي وقت.

دفع الخمسة جنيهات ومشى لايصدق نفسه. لن ينسى ذلك أبدا للحاج مدبولي.

راح يمشي في شارع طلعت حرب ثم شارع قصر النيل، مندهشا من أناقة المحلات والناس، ثم عاد من جديد إلى مقهى ريش، لا ليدخلها، لكن ليعبر الممر كما حدث من قبل ويدخل شارع هدى شعراوي، ليركب الأوتوبيس إلى الزمالك ليمشي تحت أشجارها قليلا حتى موعده.

في نهاية الممر وجد مقهى يحمل لافتة مقهى البستان. أمام المقهى لم يكن هناك أكثر من ثلاثة أشخاص يجلسون على الرصيف. لكن في نهاية الممر كان يجلس أمل دنقل وحده يشرب فنجانا من القهوة. وقف أمام أمل دنقل الذي ما إن رآه حتى ابتسم. تذكره إذن.

ـ أهلا يا نادر.

أدهشه ذلك جدا.إنه يذكر اسمه أيضا. صافحه فقال أمل دنقل:

ـ تعرف تلعب طاولة؟

ـ طبعا.

قال ذلك بشغف.

ـ اجلس العب معي. لديك وقت؟

ـ طبعا.

جلس. سأله عما يحمل من كتب، فقدم له الكتابين اللذين اشتراهما من مدبولي. نظر إليهما أمل وأعادهما إليه دون أن يعلق عليهما مما أربكه حقا لكنه سأله:

ـ لماذا لم يظهر الأستاذ فاروق عبد القادر اليوم؟

أشاح أمل بيده مبتسما وسأله:

ـ أنت شاعر؟

ابتهج وقال بحماس:

ـ أجل أكتب قصيدة النثر.

لكن أمل دنقل لم يعلق على ذلك. قال:

ـ انتبه حتى لا أغلبك.

ارتبك نادر وفكر في لحظة لماذا حقا لم يعلق أمل على كلامه. هل لا يحب قصيدة النثر؟ لكن أمل الذي بدا يلعب جادا أخذه من أفكاره إلى اللعب. لعبا ثلاثة أدوار بسرعة شديدة كسبها أمل كلها ووقف وقال:

ـ أنا رايح المستودع أشرب بيرة. تحب تأتي معي.

ـ للأسف أنا مرتبط بموعد.

صافحه أمل ومضى في الممر. وقف هو لحظة يفكر في هذا الوقت الغريب الذي مضى في لعب الطاولة، وليس في الحديث عن الأدب ولا عن أي شيء. قال لنفسه «غريبة هذه القاهرة» ومضى إلى محطة الأوتوبيس بسرعة ليقابل وفاء بعد قليل في الكازينو.

كانت ابتسامة وفاء الجميلة جدا كافية أن ينسى كل شيء. أحس حقا بشغف كبير في روحه أن يجلس معها أكثر وقت ممكن، لكن ما إن صافحها وجلس حتى قالت بسرعة:

ـ لابد أن ننصرف الآن.

ـ لماذا؟

ـ هناك توتر كبير هذه الأيام في القاهرة. لقد قررت الحكومة أمس رفع الدعم عن كثير من المواد التموينية. هناك استجابة لمطالب صندوق النقد الدولي، ومطالب وزير الخزانة الأمريكي السابق والمستشار الاقتصادي للرئيس السادات.

سألها:

ـ هل للسادات مستشار أمريكي؟

قالت:

ـ روكفلر. ألا تعرف؟

هزّ رأسه نافيا. قالت:

ـ إذن هيا بنا. لقد شربت شايا سأدفع ثمنه ونمضي.

عند باب الكازينو صافحته قائلة:

ـ سأركب التاكسي وحدي هذه المرة. لايجب أن نكون معا.

أشارت إلى تاكسي يمر ركبته بسرعة، وأشارت له بيدها مودعة.

وقف في غاية الدهشة والضيق. مشت معها ابتسامتها من أمامه. الفضاء انكمش حوله. أدرك حقا أن الليل قد وصل، وإنه يقف وسط الظلام رغم أضواء الشارع. لم يكن أمامه إلا أن يشير إلى تاكسي آخر.

في القطار هز رأسه متعجبا وحاول نسيان كل هذا اليوم الذي انتهى كئيبا. تذكر أن أجمل مافيه كان لعب الطاولة مع أمل دنقل دون كلام. فكر فجأة باسما في هذا المستودع الذي ذهب إليه أمل ليشرب البيرة. لابد أن يعرفه في المرة القادمة.

مرت ثلاثة أيام، وفي يوم الاثنين السابع عشر من يناير، ظهرت الصحف الصباحية تحمل قرارا برفع أسعار عدد كبير من السلع. في قرار واحد ارتفعت أسعار الذرة غذاء الفلاحين الفقراء وأسعار السكر والزيت والشاي والسمن والزبد الطبيعي والصناعي واللحوم والسجائر بأنواعها وأسطوانات البوتاجاز والمنسوجات القطنية والصوفية والصناعية بحجة توفير مائة وسبعين مليون جنيه من ميزانية الدولة، وارتفعت أيضا إيجارات المساكن لتشجيع المستثمرين على البناء كما ارتفعت الضريبة على السيارات، وزادت رسوم الدمغة والرسوم الجمركية وأسعار البنزين والغاز، وهكذا دخلت مصر كلها في حوار غاضب بالبيوت والمصانع والمدارس والجامعات.

كان الهواء شديدا، وانقطع المطر من فوق الإسكندرية، وصار

صوت الهواء يشغل كل جنبات الفضاء، وزادت سرعة السيارات الخاصة والمركبات العامة والترام والناس في الطرقات. بدا أن كل شيء في المدينة يدخل في شجار مع عدو لا يظهر ولا يراه. وترك بشر ونادر وحسن ويارا وكاريمان الكافتيريا بعد جلسة قصيرة مع عيسى سلماوي الذي كان ينوي أن يذكرهم بوعدهم له بزيارة المتحف اليوناني الروماني التي لم تتم، لكنه لم يتحدث في ذلك. بدا هادئا وهم ثائرون حوله من هذه القرارات. كان يتحدث بحكمة قائلا أن هذا يتوقع من نظام سياسي يرى أن حل مشكلة الشرق الاوسط تملك مفاتيحه كلها أميركا، فالسادات لا يكف عن الحديث عن أن ٩٩٪ من الحل بيدها، وطبيعي جدا أن يخضع لتعليمات البنك الدولي. وبشر في غاية الغيظ يقول كيف نسكت على هذا. لابد أن نتحرك. وبينما الطلبة يتحركون خارج الكافتيريا أمامهم يبدون سعداء، حتى طلاب الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمون يقفون أمام مجلاتهم ولا يتحدثون في هذه القرارات مع أحد، ولكن فيما هو منشور في المجلات عن تاريخ تعذيب الإخوان المسلمين وعن فقه ابن تيمية وعن المراقص الداعرة وفيلم الكافرين الذي يحمل عنوان «المذنبون» وكفر نظام البنوك الربوي وضرورة البنوك الإسلامية وأهمية شركات توظيف الأموال الإسلامية التي تقدم أرباحا خيالية تصل إلى عشرين في المئة كل شهر وتملأ إعلاناتها الصحف وإقبال الناس عليها وحديث نُسب للنبي الكريم يقول «لأن يزني الرجل بأمه جوار جدار الكعبة خير من ربا البنوك» يقرأه بعض الطلاب ويندهشون ثم ينصرفون.

كان هذا الحديث مثيرا للسخرية من بشر الذي سمع به فذهب

يتأكد بنفسه، وحين رآه سأل الطالب الملتحي الذي يقف أمام المجلة قائلا هل كانت هناك بنوك أيام الرسول، فنظرإليه الشاب متنمرا وهتف فيه وانت مالك، ومشى بشر غير مصدق وجلس مع أصحابه يخبرهم بالحديث فاندهشوا وقاموا من الكافتيريا واحدا وراء الآخر قرءوا الحديث وعادوا يضحكون. عيسى سلماوي الذي لم يتحرك معهم قال بعد عودتهم إلى الكافتيريا:

ـ للأسف قرأت هذا الحديث مع إعلان عن إحدى شركات توظيف الأموال الإسلامية في الصفحة الأولى لإحدى الصحف.

قالت كاريمان:

ـ دعونا من هذا التخريف الآن. ماذا سنفعل في هذه القرارات الاقتصادية؟

قال حسن هادئا ولكن في همس:

ـ لابد أن نفعل شيئا حقا.

قال نادر:

ـ لابد أن نتصل باليساريين في الكليات الأخرى.

قالت كاريمان:

ـ نكتب بيانا نشجب فيه هذه القرارات ونقوم بتصويره ثم نوزعه على الناس في الشوارع.

هنا قال عيسى:

ـ يمكن لكم أن تفعلوا كل ذلك. لكن الحديث هنا في الكلية خطر. ابحثوا عن مكان آخر.

بدا لهم كأنه يريد أن ينصرف. لكن بدا لهم أيضا أن كلامه مقنع. وقف بشر وقال:

ـ إذن لنترك الكلية الآن.

وصافح عيسى سلماوي ففعلوا مثله. ما إن خرجوا من الكلية إلى شارع بورسعيد حتى قال نادر:

ـ أظن أنه لاداعي لحضور كاريمان ويارا معنا إلى الشقة اليوم. سنفعل ما قالته كاريمان ونلتقي هنا غدا.

قال حسن:

ـ أنا أيضا أرى ذلك. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا اليوم.

قال بشر:

ـ أتوقع طبعا أن تقوم وزارة الداخلية بإجراءات وقائية وتقبض علينا جميعا ـ ثم مد يده في حسم ـ مع السلامة يا يارا. مع السلامة يا كريمان. نراكما غدا.

أخذوا طريقهم إلى الشقة التي لم يجلسوا فيها كثيرا. انتهوا من كتابة البيان بعد ساعة. ولم يكن محمد شكر قد عاد بعد، ولا أحمد باسم الذي يعود متأخرا كالعادة. قرر بشر ونادر أن يعود كل إلى بيته الليلة حتى لا يقبض عليهم معا في مكان واحد. حسن بقي في الشقة قائلا وهو يبتسم:

ـ أخشى أن يتم حقا إجراء وقائي فيتم القبض على أحمد باسم ومحمد شكر معي.

ضحك بشر ونادر، وتركاه. أخذ بشر نسخة من البيان الذي كتبوه معه، ونسخة أخرى أخذها نادر. اتفقا أن يقوم كلاهما بتصوير أعداد كبيرة من نسخ البيان، وفي صباح اليوم التالي يقومان بتوزيعها في الكلية.

في صباح اليوم التالي وصلا إلى الكلية في حوالي الساعة العاشرة. وجدا الطلبة جميعا لايدخلون إلى مدرجاتهم. كلهم في الفناء أمام مدرج العبادي وفي الكافتيريا وعند ملاعب التنس عند مدخل الكلية وفي كل الطرقات التي تقع بين الفصول في أقسام اللغة العربية والإنجليزية والفرنسية من ناحية، والتاريخ والآثار والجغرافيا والاجتماع من الناحية الأخرى. التقيا بحسن وكاريمان ويارا بين الجموع. تناولت كاريمان ويارا نسخا كثيرة من البيان الذي أحضر بشر ونادر مئات الصور منه، وراحوا جميعا يوزعون البيان على الطلبة.

«نحن طلاب كلية الآداب جامعة الإسكندرية نيابة عن جميع طلاب مصر، نستنكر ونرفض القرارات الاقتصادية الجديدة لنظام الرئيس السادات، التي تؤكد في أجلى صورة العمالة للنظام الأمريكي وللرأسمالية العالمية المتوحشة، والتي تضرب بقوة في المنجذات الاجتماعية والاشتراكية التي تمت للطبقات الفقيرة، وتؤكد تخلي الدولة عن دورها الاجتماعي في العدالة بين طبقات الشعب، وتفتح الباب واسعا للكسب غير المشروع للرأسمالية الجديدة الطفيلية التي جاءت في مصر نبتا شيطانيا استولى على

أموال البنوك وأموال دافعي الضرائب. نطالب الرئيس السادات ورئيس وزرائه بالاستقالة فورا من مناصبهم وفتح باب الانتخابات لأول مرة في مصر بين الناس لاختيار رئيسهم من بين أكثر من مرشح والانتهاء من عصر الاستفتاء على رئيس واحد الذي صنع فرعونا جديدا في مصر منذ ثورة يوليو ١٩٥٢».

دقائق وصار البيان في يد الكثيرين. لكن الحديث كان يشتعل عن خروج طلاب كلية الهندسة في حشود هادرة في طريق جمال عبد الناصر، وعن تحرك حشود هائلة من عمال شركة الترسانة البحرية بالإسكندرية بالورديان ملأت شارع المكس الآن. كيف كانت هذه الأخبار تصل إليهم؟ لا أحد يعرف. الحقيقة أن عمال شركة الترسانة البحرية خرجوا من الساعة التاسعة، بعد أن دار الحوار الغاضب بينهم في كل ورش الشركة، واندفعوا خارجين من الأبواب يحملون بعض الشباب يهتفون ضد القرارات الاقتصادية.

«مش كفاية لبسنا الخيش جايين ياخدوا رغيف العيش. يا حكومة الوسط وهز الوسط كيلو اللحمة بقى بالقسط. يسقط يسقط أنور السادات»

وأخذوا في طريقهم عمال شركة باتا للأحذية، ولما اقتربوا من منطقة مينا البصل أخذوا كل العاملين في محالج القطن وشركات الشحن. وكان في الخلف منهم بعيدا، عمال شركات البترول والكيماويات والأسمنت الذين جاءوا من المكس أيضا، وفي الطريق انضم إليهم طلاب مدرسة الورديان الثانوية وطاهر بك الإعدادية، والجميع يتجهون إلى ميدان المنشية قاطعين شارع السبع بنات

وهتافاتهم تهز الفضاء. ومن ناحية الجمرك جاء عمال شركات الشحن والتفريغ والحمالون قاطعين شارع البحرية إلى شارع النصر في الطريق إلى المنشية، وفي الشرق البعيد تحرك عمال شركة النحاس بسيدي جابر وشركة النسر لإطارات السيارات، يلحقون بعمال شركة الغزل والنسيج القادمين من باكوس ليأخذوا طريقهم أيضا في شارع جمال عبد الناصر، ومن كرموز وراغب جنوبا جاء عمال شركات الزيوت والصابون والغزل والنسيج قاطعين الطريق إلى ميدان الشهداء ـ ميدان محطة مصر ـ ليدخلوا في شارع النبي دانيال إلى محطة الرمل إلى المنشية بعد ذلك أوسع ميادين الإسكندرية. ظهرت اللافتات من القماش عليها شعارات ورسومات للسادات ووجهه عليه علامة إكس أو وهو بملابسه الداخلية، ولا يعرف أحد كيف كتبت ورسمت الشعارات والصور بهذه السرعة ومتى تم تجهيزها.

«يا حاكمنا في راس التين بسم الحق وبسم الدين.. فين الحق وفين الدين. هو بيلبس آخر موضة واحنا بنسكن عشرة في أوضة. قولوا للنايم في عابدين العمال بيباتوا جعانين»

اندفع طلاب كلية الآداب أيضا هادرين في شارع بورسعيد ليقابلهم طلبة كليات الحقوق والتجارة والتربية وأخذوا طريقهم إلى الكورنيش.

شاهد نادر ويارا فوقية ومعها أختها فوزية تقفان بعيدا عن الزحام مع محمد شكر الذي يطيّر الهواء شعره الأصفر الناعم ولا يكف عن الابتسام. كان واضحا أن فوقية تريده أن لا يخرج في المظاهرة، وكان هو مبتسما يحاول إقناعها بأن لا تخف عليه. في النهاية صافحها

وصافح أختها وجرى إلى الحشود. رأى نادر علامات الخوف على وجه فوقية ممزوجة بالغضب.

كانت المشكلة هي كيف يكون نادر وحسن وبشر وكاريمان ويارا قريبين من بعضهم. بعد وقت قليل لم يعد أحدهم يتذكر الآخر. يارا ظلت قريبة من كاريمان التي فجأة صارت محمولة على كتفي شابين لاتعرفهما وتهتف «إحنا الطلبة مع العمال ضد تحالف رأس المال. الصهيوني فوق ترابي والمباحث على بابي»، وبشر صار محمولا في جهة أخرى على كتفي حسن الذي لم يكف عن الابتسام، ثم على كتفي غير حسن حين يتعب، وصوته الهادر «ياحرامية الانفتاح الشعب جعان مش مرتاح. يشربوا ويسكي وياكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ» ومن بعيد يأتي شعار وهتاف «يا أمريكا لمي فلوسك بكره الشعب العربي يدوسك» ثم ترتفع الحناجر بإيقاع عنيف من أكثر من مكان «بالطول بالعرض حنجيب ممدوح الأرض» يقصدون طبعا رئيس الوزراء ممدوح سالم.

نادر كان يحاول أن يكون قريبا من يارا دائما ولا يستطيع. في نهاية شارع السبع بنات ارتفعت في الجو قنابل فوسفورية تضيء الفضاء لتخيف حشود العمال القادمة. كان واضحا أن أعدادا من جنود الأمن المركزي يقفون هناك من جديد. كانت الموجة الأولى من الجنود تقطع الطريق على المتظاهرين عند كوبري التاريخ وفشلت وتجاوزهم المتظاهرون، بل وألقوا ببعض الجنود إلى ترعة المحمودية تحت الكوبري، فتراجع الباقون ولم يظهروا من جديد إلا عند نهاية شارع السبع بنات. ثم تتالت بعد القنابل الفوسفورية القنابل المسيلة للدموع،

لكن الحشود تقدمت بعضها داخل إلى شارع الميدان الذي أغلق تجاره كل محلاتهم وأخفو عربات بضائعهم، ليلتفوا من نهاية شارع الميدان إلى مدخل المنشية من ناحية شارع النصر حيث أغلقت كل المحلات أيضا. كذلك فعل المتظاهرون من الناحية الأخرى، حيث دخل الكثيرمنهم إلى ميدان سانت كاترين ليخرجوا إلى ميدان المنشية من خلف الجنود. في ميدان الشهداء ـ محطة مصر ـ لم يستطع جنود الأمن المركزي البقاء طويلا أمام الحشود وتفرقوا، وأخذت الحشود طريقها إلى محطة الرمل والمنشية. كانت القنابل تلقى عليهم فيلقونها مرة أخرى على الجنود، واستطاعوا خلع بلاط الأرض وانهالوا به عليهم بعد أن كسروه إلى قطع صغيرة.هنا أيضا أغلق التجار محلاتهم واختفى تجارالشوارع. خلا الميدان وعبرته الحشود إلى شارع النبي دانيال إلى شارع فؤاد في طريقها لشارع صلاح سالم في طريقها إلى المنشية.

الذاهبون من هذا الشارع توقعوا مقاومة من جنود الأمن المركزي أمام نقطة بوليس شريف، لكن المفاجأة أن أحدا لم يعترضهم، وبدا كأن نقطة البوليس خالية، رغم أنها مفتوحة أمامهم، والمتظاهرون بدورهم لم يقفوا أمامها ولم يهاجموها. واصلوا طريقهم في شارع صلاح سالم، الذي أغلقت جميع محلاته مثل بقية الشوارع.

كانت حشود الطلاب القادمة من الكورنيش تشهد أعدادا كبيرة من الطالبات بين الطلاب، وكذلك كانت حشود الطلاب الآتية من كلية الهندسة والزراعة والطب والصيدلة، حتى أنه حين هتف شاب «هو بيلبس آخر موضة واحنا بنسكن عشرة في أوضة»، ورددها حوله

الكثيرون، ابتسمت إحدى الفتيات وقالت لزميلتها « ماحنا لابسين آخر موضة أهو. والنبي إحنا أجمل من جيهان السادات». وضحكت زميلتها. لكن هتافا آخر ارتفع « سيد مرعي دا يبقى مين.. يبق حرامي الفلاحين». فقالت الفتاة لزميلتها كدا ماشي! وضحكتا.

كان أحمد باسم يمشي بين الجموع صامتا كأنه شارد في شيء آخر. اصطدم أكثر من مرة بإحدى الطالبات في الزحام، فكان يعتذر ويستمر ماشيا في ذهول غريب، حتى جاورت الصدفة بينه وبين محمد شكر الذي قال له:

ـ طول عمري أشوف مظاهرات الطلبة في الأفلام. أول مرة أشوف مظاهرة حقيقية. يا ترى علام تنتهي؟

قال أحمد باسم:

ـ أظن أن الدراسة ستتعطل. لذلك سأنتظر قليلا ثم أسافر.

قال محمد شكر:

ـ إلى أين؟ المظاهرات في مصر كلها.

ـ لا أظن أنها ستكون في دسوق فما بالك في قريتنا. الناس هناك عايشين في العصور الوسطى.

كانت كل المقاهي التي على الكورنيش قد أغلقت أبوابها. المحلات في المنطقة الممتدة من سيدي جابر حتى المنشية أغلقت أيضا أبوابها باستثناء المحلات الصغيرة في الأزقة والشوارع الجانبية. أرتال من قوات الأمن المركزي تظهر فجأة لا أحد يعرف كيف،

تحاول أن توقف مسيرة المتظاهرين. في شارع جمال عبد الناصر فشلوا في إيقاف الطلبة الذين دخلوا من حول حدائق الشلالات إلى شارع السلطان حسين في طريقهم إلى المنشية أو محطة الرمل. في المنشية نفسها كانت قوات الأمن المركزي قد اختفت، إلى أن ظهرت الآن بأعداد كثيفة قادمة من شارع النصر ومن شارع السبع بنات الذي تجاوزه المتظاهرون، وانهالت القنابل المسيلة للدموع على المتظاهرين الذين تفرق الكثير منهم في الشوارع الجانبية، ثم مالبثوا أن عادوا يخلعون الأرصفة مع الصامدين، ويلقون بحجاراتها على قوات الأمن المركزي التي اختفت من جديد.

أصبح عشرات الآلاف من الطلاب يملئون ميدان المنشية، يقفون يرددون الهتاف مع زملائهم «مجلس الشعب دا قرع وكوسة والحرية يا ناس محبوسة. يا سادات منك لله معاك العيشة مابقتش حياة. عايزين حكومة حرة العيشة بقت مرة». وظهرت لافتة كبيرة يحملها اثنان من الطلاب عليها صورة لجيهان السادات ببدلة الرقص، يضحك كل من يراها ويقفز في الهواء غير مصدق.

بدا أخيرا أن الميدان قد استسلم تماما للطلاب والعمال. تجاوز الوقت الظهر إلى العصر، وجمعت الصدفة فجأة بين نادر وحسن وبشر وكاريمان ويارا ومحمد شكر الذين وقفوا يضحكون غير مصدقين.

سأل بشر:

ـ هل رأى أحدكم أحمد باسم؟

قال محمد شكر:

ـ أنا رأيته.قال لي إن الدراسة ستتعطل واختفى. أظن إنه سيسافر إلى البلدة.

سأله حسن:

ـ وأنت يا محمد ألن تسافر؟

ـ أنا مندهش جدا مما أرى. أشعر أني في فيلم سينما.سأظل للنهاية.

والهتافات حولهم ترتفع ولا تتوقف «لم كلابك يا ممدوح دم اخواتنا مش هيروح. قولوا للنايم في عابدين العمال بيباتوا جعانين»

كان الخوف واضحا على وجه يارا وهي تنظر إلى نادر الذي صارت الدموع واضحة في عينيه من أثر دخان القنابل، والذي كان لا يزال يسعل بقوة. قالت له:

ـ تعال ندخل في أزقة المنشية. أكيد سنجد محلا نشتري منه شيئا نأكله أو نشربه.

قال لها:

ـ لن أتركهم.

وقالت كاريمان:

ـ وأنا أيضا. هذا أجمل يوم في عمري. بالمناسبة أين الطلبة الإسلاميين؟

قال بشر:

ـ بعيد هناك. مجموعة صغيرة ترفع علما أسود عليه شارة (لا إله إلا الله). لا يهتفون بأي شعارات.

قالت يارا:

ـ من يرى غضبهم في الكلية يقول إنهم صاروا أغلبية في البلد. عدد لا قيمة له.

قال بشر:

ـ ليس هذا وقت المناقشة. يجب فعلا أن تعودي إلى البيت يايارا، وكذلك كاريمان.

ـ أنا معكم. سنبيت في الميدان كلنا. سأكون آخر فتاة تترك الميدان. لكن أفضل أن تعود يارا إلى البيت. أنا لن يسأل عني أحد.

أخذتها يارا في حضنها وقبلتها. فقالت:

ـ أنا تعودت على ذلك يا يارا. ولو مت لن أحزن.

نظروا إليها مشفقين. قال حسن:

ـ ليتك يا نادر تأخذ يارا إلى البيت الآن حقا.

نظر نادر إليها وفي نظرته رجاء أن توافق. قالت:

ـ آخذ كاريمان معي.

قبل أن تتكلم كاريمان قال بشر:

ـ نحن الرجال ونأمركما بالانصراف. المعركة لم تبدأ بعد. لن يكون لدينا فرصة للدفاع عنكما. سيكون كل تركيزنا في صد الهجوم الذي لابد أن يحدث.

وما كاد ينتهي من الكلام حتى ظهرت عربات أمن مركزي من جديد قادمة من الاتجاه المخالف في شارع أحمد عرابي وفي الاتجاه الطبيعي لشارع صلاح سالم، وأيضا قادمة من الكورنيش. نزل منها الجنود بعيدا عن الميدان أعدادا هائلة، فانقسم المتظاهرون قسما يهجم على الجنود القادمين من الكورنيش فصارت منطقة الحدائق الفرنسية معركة حقيقية ارتفع فيها دخان القنابل فملأ فضاءها. وقسما يهاجم الهجوم القادم من ميدان محمد علي. انطلقت رصاصات حية، فسقط أكثر من طالب حمله زملاؤه بسرعة إلى الأزقة الجانبية في هلع شديد، لكن لم يتراجع الطلاب، استطاعوا زحزحة الجنود إلى الخلف وطاردوهم على الكورنيش. ولا يعرف أحد ماذا حدث إذ بدأت الحرائق تشتعل في المقاهي المغلقة، والجنود يتراجعون بسرعة والمتظاهرون يوالون قذفهم بالحجارة التي صارت في أيديهم بعد خلع الأرصفة وتحطيمها إلى قطع صغيرة. على الناحية الأخرى هجم المتظاهرون على قوات الأمن المركزي حول تمثال محمد علي، وطاردوهم في الأزقة واشتعلت النار في بعض المحلات مثل محل بيع المصنوعات ومحمد يوسف للحلوى، ومحل ملابس الأهرام، وظهر بين الشباب شاب مستدير الوجه مربع الجسم يهتف هتافات مدوية ويرددها حوله الشباب، وكان بشر ونادر قريبين منه. قال بشر في فخر:

ـ هذا تيمور الملواني. أعظم المناضلين في كلية الهندسة.

وجاءت أصوات من جهة أخرى تنادي بالهجوم على مبنى الاتحاد الاشتراكي، وكان المنادي بذلك محمولا أيضا على أكتاف الشباب فقال بشر:

ـ وهذا حسني عبد الرحيم من كلية الهندسة أيضا. كدا دين أم السادات على الحكومة. سنهزمهم!

واندفع الطلاب إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي، البورصة القديمة، التحفة المعمارية العظيمة، واستطاعوا تحطيم أبوابه وانطلقوا في أدواره وطرقاته، ولم يطل الوقت حتى ظهرت ألسنة النيران خارجة من أعاليه. تراجع الطلاب بعيدا في الميدان. أبعد من تمثال محمد علي. ووقفوا ينظرون في دهشة إلى النار.

قالت يارا غير مصدقة:

ـ حرام. هذا مبنى أثري.

كانت كاريمان جوارها. قالت:

ـ لن تتوقف الحرائق اليوم. هناك يد مجهولة تفعل ذلك.

قال محمد شكر الذي كان قريبا منهما:

ـ يجب حقا أن تعودا إلى البيت لتمر الليلة بسلام..

نظرت يارا إلى كاريمان وقالت:

ـ تعالي معي. أرجوكي لا تتركيني أعود وحدي.

ظهر حسن فجأة متوترا شديد التوتر يقول:

ـ بنات كتير تترك الميدان الآن. لابد أن تعودا إلى البيت. قلنا ذلك لكما أكثر من مرة.

أخذت يارا كاريمان من يدها ومشت. ابتعدت بها حتى دخلت إلى شارع فرنسا. كانت مغلقة كل محلات المجوهرات، وكان الواقفون لا يكفون عن النظر إليهما في دهشة. كثير منهم شباب يقفون أمام المحلات المغلقة لحمايتها.

نادر وبشر وحسن ومحمد شكر متجاورون الآن وسط الجموع التي لاتكف عن الهتاف. وما زالت جموع تأتي وما زالت جموع تتابع المسيرة على الكورنيش في اتجاه الشاطبي وسيدي جابر تطارد قوات الأمن المركزي التي بعد أن تراجعت لم تنقطع الجموع عن السير خلفها لتصل إلى أبعد نقطة ممكنة. كان ذلك يحدث بشكل طبيعي ودون تفكير.

في الليل دانت الميادين، المنشية ومحطة الرمل وميدان الشهداء عند محطة مصر، للمتظاهرين الذين جلسوا في حلقات يغنون أغاني الشيخ إمام سعداء. أو يلقون قصائد للأبنودي وصلاح جاهين وفؤاد حداد، وهطل مطر خفيف على المدينة سرعان ما اشتد فدخل الكثيرون إلى الأزقة وبقي الكثيرون صامدين. غسل المطر رائحة دخان القنابل من فوق الأرض ومن الفضاء. من تفرقوا إلى الأزقة الجانبية جلسوا في بعض المقاهي المفتوحة وراحوا يتابعون في التلفزيون مشاهد اليوم العصيب. أكاذيب الحكومة عن العناصر المندسة وعن الشيوعيين الذين يريدون خراب البلاد.

كانت الأخبار تأتي باشتعال الحرائق في القاهرة أمامهم، وشارع الهرم، ولم يصدق الطلاب ولا العمال أن زملاءهم في القاهرة فعلوا ذلك.على الفور أدرك الجميع أن وزارة الداخلية أطلقت سراح البلطجية واللصوص المحجوزين في أقسام البوليس ليفعلوا ذلك. لم يصدق أحد أن حرائق وسائل النقل، الأوتوبيسات والترام في القاهرة، من أفعال المتظاهرين.

كان من يترك المقهى يعود إلى الميدان. صارت المنشية مركزا للحرية، ومن محلات الفول والأفران في الأزقة عاد كثير من الطلاب والعمال بما استطاعوا شراءه من أكل يقتسمونه مع الآخرين. لكن الحريق في مبنى الاتحاد الاشتراكي كان لا يزال بينما حرائق كثيرة من المقاهي على الكورنيش كانت قد انطفأت، وجاءت الأخبار بحرائق في بعض الملاهي المغلقة. قال بشر ساخرا:

ـ حتى يتم بيعها نهائيا.

ابتسم حسن وشرد نادر يفكر أن ذلك قد يكون حقيقيا.

قال محمد شكر:

ـ ألن نعود إلى الشقة ننام ونستريح.

قال بشر:

ـ أنا قرأت عن كوميونة باريس. نحن الآن في كوميونة الإسكندرية.

ابتسم نادر. كانوا جالسين على الرصيف متعبين، وحولهم المئات بين جالس وواقف ومتحرك، ولا أحد يعرف كيف مر الليل بالغناء،

والشعرولم يشعر أحد بالوهن. مع الساعات الأولى من الصباح حدث هجوم آخر من الأمن المركزي لكنه هزم كما حدث أمس. امتلأت المستشفى الأميري القريبة بالمصابين، وفي الظهر عرفوا أن الرئيس السادات قد ألغى كل القرارات الاقتصادية فهللوا مكبرين ورقصوا فرحين. عرفوا أيضا أن قوات الجيش ستنزل الميادين والشوارع، وأن حظر التجوال قد تقرر من الساعة الرابعة عصرا.

لم تنم يارا تلك الليلة ولا كاريمان. ظلتا في البداية مع أم يارا وأبيها وأخيها في الصالة أمام التلفزيون. كانت كاريمان دائما صامته وهي ترى فؤاد أخا يارا يسب ويلعن المتظاهرين. بذلت جهدا كبيرا حتى لا ترد عليه. أحست بها يارا التي كانت في ضيق شديد منه لكن لا تبدي ذلك. طلبت منها الدخول معها إلى حجرتها ومتابعة الأحداث من الراديو. طاوعتها كاريمان لتتخلص من هذا الأخ وحديثه. كانتا متعبتين. عند الساعة الواحدة صباحا لم تستطيعا الاستمرار في السهر. في الصباح تركت كاريمان البيت ووعدت يارا أن تعود إلى بيتها مباشرة، لكنها ذهبت إلى ميدان المنشية وقابلت أصحابها وبقيت معهم حتى ذاع أمر حظر التجوال فبدأ الجميع يفكرون في الانصراف.

قال بشر:

ـ لقد تراجع الرئيس المؤمن عن قراراته. إذن لقد انتصرنا ونترك الميدان الآن.

قرر حسن أن يصحب كاريمان إلى أقرب مسافة من بيتها البعيد في المندرة. لاتوجد أي مواصلات الآن والناس تترك الميادين

جماعات في الطريق إلى بيوتهم. مشى بشر ومحمد شكر إلى الشقة على الكورنيش مع الكثيرين، على يسارهما البحر لايزال غاضبا، لاتكف الأمواج عن الحركة العنيفة إلى الشاطئ والاصطدام بسور الكورنيش والارتفاع فوقه، وعلى يمينهما المقاهي مغلقة احترق أكثرها أو به آثار حريق خفيف. قال بشر:

ـ الأفضل أن تسافر يا محمد. حسن سيوصل كاريمان وسيسافر إلى المنصورة، ونادر كما تعرف عاد إلى بيته في المكس، وأحمد باسم اختصر الوقت وسافر أمس كما قال لك.

ـ وأنت ألن تذهب إلى الشقة؟

قال بشر:

ـ أنا أسكن في باكوس. سأتركك وأمشي إلى شارع جمال عبد الناصر وأستمرفي المشي حتى هناك.

ابتسم محمد شكر ثم قال:

ـ سأقول لك سرا. الدراسة تعطلت كما ترى. سأبقى في الشقة حتى أستطيع أن أقابل فوقية في الأيام القادمة التي لن يشغلنا فيها شيء.

ـ لكن أهلك في البلد لابد سيقلقون.

ـ سأتصل بهم الليلة. لقد حاولت الاتصال بالتلفون من أكثرمن محل في أزقة المنشية لكن الخطوط مقطوعة. غدا سأجد طريقة لأطمئنهم. عندي أمل ألتقي فوقية كثيرا حتى تعود الدراسة.

كاد بشر يقول له إنه يمكن للبوليس مداهمة الشقة الليلة، لكنه

وقد قرر أخذ طريقه إلى البيت، وجد نفسه يفكر في نفسه هو وأنه لو تم القبض عليه سيتم من بيته كما حدث من قبل. سكت ولم يعلق!

دخل محمد شكر الشقة وحده متعبا والساعة تقترب من الثالثة والنصف عصرا. اكتشف أنه لاشيء في الشقة ليأكله وهو جائع شديد الجوع.

الآن لن يستطيع أن يخرج لشراء أي شيء. نصف ساعة باقية على حظر التجوال لاتكفي ليجد محلا مفتوحا في الأزقة.

خلع جاكيت البدلة الزرقاء التي يظهر بها كثيرا في الكلية، وخلع الكرافات، وتمدد فوق السرير يفكر ماذا يفعل. لكنه سقط في النوم العميق ليستيقظ في حوالي الساعة العاشرة ليلا على طرقات الباب. لم يكن يدري أين هو بالضبط. احتاج لدقائق ليتعرف على مكانه وزمانه. لقد ذهب في النوم إلى بلاد لايعرفها.

أضاء النور وخرج إلى الصالة فوجدها مضاءة. أدرك أنه حين دخل أضاءها ولم تكن في حاجة لذلك. قال في رعب:

ـ من؟

جاءه صوت روايح:

ـ افتح ياسي بشر.

اندهش لحظة. هل صوته يشبه صوت بشر المتحشرج دائما؟

أدرك أنه الهتاف الذي ردده أمس واليوم مع الآخرين. أحس حقا باحتقان في حلقه. يعرف أن روايح وغادة تسكنان في الشقة السفلية.

لم يحدث أن تحدث مع أي منهما من قبل. هل يفتح لهما؟ من يدري ربما يجد عندهما طعاما هو الذي يشعر بالجوع الشديد.

فتح الباب. كانت روايح وغادة في ملابسهما المنزلية، وكان المطر قد صار شديدا يأتي صوته من الخارج. قالت روايح:

- يوه. يقطعني. حضرتك سي محمد..

ابتسم. دخلتا وجلستا دون استئذان. قالت غادة:

- أين سي بشر وسي نادر وسي حسن وسي أحمد؟

قال:

- عادوا إلى بيوتهم.

قالت روايح:

- ولماذا بقيت. ألست من الريف؟

ابتسم. قال:

- هذا ما حدث.

قالت روايح:

- ماذا جرى في البلد. التلفزيون يقول إن الجيش في الشوارع.

- صحيح.

- طيب حظر التجوال هذا ما معناه؟ لدينا أكل يكفينا يوما واحدا.

قال:

ـ حظر التجوال حتى الصباح فقط.

بدأ يتألم من الجوع ويضع يده على بطنه ويبتسم. قالت غادة:

ـ شكلك جعان.

ـ جدا.

قال ذلك دون تفكير.

قالت غادة:

ـ دقيقة واحدة. سأنزل وأصعد بالأكل. مادام حظر التجوال حتى الصباح فقط.

قالت روايح:

ـ الأفضل أن تنزل تتفرج معنا على التلفزيون وتأكل. ما رأيك؟ مادمت وحدك.

فكر لحظة وقال:

ـ لامانع. أغير هدومي لأني نمت بها. سأرتدي بيجامة.

ـ نحن في انتظارك هنا حتى لا ترجع في كلامك.

ابتسم. ارتدى البيجامة ونزل معهما.

راح يأكل بشهية حقيقية. وهما تجلسان حوله تتفرجان عليه في دهشة ولا تكفان عن الكلام.

ـ سنرجع للعمل في المقهى مرة أخرى.

ـ الملاهي أغلقت واحترق أكثرها.

ـ السادات منه لله هو السبب.

ـ عايش أحسن عيشة ومجوّع الناس.

ـ لكن جيهان جميلة جدا خسارة تتشتم وتتبهدل.

ـ كان لازم أيضا تقول له عيب.

ـ شكلنا كده سنترك إسكندرية ونرجع بلادنا.

ـ يا ترى هل هذا ممكن؟!

كان لايرد. يستمع إليهما فيفهم من الكلام قصة لم يعرفها لكل منهما.

ـ الله يخرب بيته الشيخ زعلان. اتجوزني وطلقني. طيب كان كتب لي مؤخر يريحني في الدنيا..

ـ حتى ملهى ست نوال المحترمة اتحرق.

ـ معقول ليلة واحدة تمر على إسكندرية دون غناء ورقص وفرح؟!

ـ منها لله إذاعة إسكندرية ذاعت كل اللي حصل في الراديو. إنتِ إيه ياغادة اللي خلاكِ فتحتِ الراديو النهاردة طول النهار.

ـ قسمتي ونصيبي. التلفزيون بيذيع أخبار القاهرة قلت أعرف حصل إيه في إسكندرية. حبيت اطمئن.

ـ على أي حال كده كده كنا حنعرف. لينا رب اسمه الكريم.

التزم الصمت طويلا يبتسم حتى بعد أن أكل وشرب الشاي بينهما. قالت غادة فجأة:

ـ قل لي يا سي محمد. أنت جميل جدا. أشقر وعنيك زرق.. هل أنت من الشام؟

ضحك. قال:

ـ لماذا؟

ـ أصل روايح كانت تحب واحد من الشام شبهك بالضبط. لذلك جالسة تنظر إليك طول الوقت.

ضحك مرة أخرى. قال:

ـ أنا مصري بن مصري.

ثم بدأ التلفزيون يبث مسرحية «مدرسة المشاغبين» فانطلقتا ضاحكتين. قالت روايح:

ـ الله على يونس شلبي.

قالت غادة:

ـ ولّا عادل إمام وسعيد صالح.

قالت روايح:

ـ ياه. وأحمد زكي. مسكين ياعيني أمه تشتغل شغالة عند حضرة الناظر.

ثم سكتتا وبدأتا متابعة المسرحية الضاحكة، التي ما إن انتهت

حتى وقف محمد يشكرهم ليصعد، لكن روايح أعطته كيسا به ثلاث برتقالات وقالت:

ـ خذها معك حتى إذا جعت تجد شيئا تأكله. قلت غدا لا يوجد حظر تجوال حتى العصر. إذن سنشتري غيره.

أحس بالامتنان والود نحوهما. في لحظة فكر أن لايصعد ويظل معهما. لكن سرعان ما تراجع عن ذلك حين تذكر فوقية. صعد إلى الشقة. جلس يفكر هل كان بقاؤه هنا الآن صوابا حقا؟ وجاء من بعيد صوت أذان الفجر الشجيّ. ما أجمل الفجر حين يكون كل شيء في صمت! لكن دق جرس الباب دقات طويلة أزعجته. كانت قوة من الشرطة يقودها ضابط من جهازأمن الدولة.

-٩-

خلسة أخذت يارا الصحف التي اشتراها أخوها. كانت تفعل ذلك من قبل كشيء عادي. هذه المرة كانت تشعر أنه سيسألها لماذا تهتم بالصحف هكذا. راحت تقرأ ليومين أخبار الاعتقالات وأسماء المعتقلين. أسماء لم تسمع بها من قبل تقرأها بدقة وتأمّل لأن شيئا من الرعب يجثم على قلبها. لم يتصل نادر بها ولا تعرف طريقة للاتصال به. كما لايرد أحد على تلفوناتها لكاريمان التي لم تتصل بها أيضا. المئات من المعتقلين من الجنسين توزعوا على سجون القلعة وطرة والاستئناف وأبوزعبل والقناطر بتهمة التحريض على المظاهرات والعمل على قلب نظام الحكم. تقرأ الأسماء وتقول يارب لا يكون بينها اسم نادر ولا بشر ولاحسن ولا كاريمان. تقرأ كل اسم مرتين لتتأكد أنه ليس لأي منهم: عبد القادر شهيب، رشدي أبو الحسن، محمد عزت عامر، محمود الشاذلي، كمال خليل، محمد هاني الحسيني، عريان نصيف، أمير سالم، أحمد بهاء الدين شعبان، وأمامه كلمة هارب، شبل السيد سالم، زهدي العدوي، صلاح عيسى، نادية محمود، عبد الحكيم تيمورالملواني، تتذكر أنها رأته عالي الهتاف،

سمير عبد الباقي، شُهرت العالم، راندة عبد الغفار، فاروق ناصف، قطب حمزة، شوقية الكردي، ماجدة محمد عدلي، سميحة أحمد الكفراوي، فاروق رضوان، حمدي عيد، أسامة خليل، إكرام يوسف خليل، مسعد الطرابيلي، إبراهيم فهمي، حسين عبد الرازق، محمد رفيق الكردي، مجيد سكرانة.

وتتوقف تلتقط أنفاسها ثم تتابع الأسماء: زين العابدين فؤاد، عاطف عبد الجواد، عبد الخالق فاروق حسين، شوقي الكردي، رضوان الكاشف، سمير غطاس، حسني عبد الرحيم، رأته وتتذكر ذلك، سلوى ميلاد، أحمد نصر، زكي مراد، مبارك عبد ه فضل، محمد علي الزهار، محمد شكر، نبيل عتريس وعماد عتريس، بشر زهران، نادر سعيد، حسن حافظ، كاريمان على.

تنهار مكانها ولاتكمل بقية الأسماء. مضت ثلاثة أيام الآن بعد انفضاض المظاهرات، وعرفت أن التهم كلها موزعة على الأحزاب الشيوعية الأربعة السرية. الحزب الشيوعي المصري، والتيار الثوري، وحزب العمال الشيوعي، وحزب ٨ يناير، بالإضافة إلى أعضاء من حزب التجمع وقياداته، والحديث كله في الصحف والتلفزيون عن المؤامرة الخارجية التي نفذت بعناصر داخلية. لكنها استمرت تقرأ لثلاثة أيام تالية ماينشرمن أسماء لمتهمين هاربين أو ألقي القبض عليهم.

ميشيل كامل، محمد يوسف الجندي، عبد المنعم القصاص، محمود أمين العالم، عبد المنعم تليمة، أحمد فؤاد نجم، رفعت السعيد، نبيل الهلالي، عز الدين نجيب، براء الخطيب، عبد ه جبير، صلاح زكي.

كل من قبض عليهم كتاب وفنانون وأدباء، روح وقلب الوطن فكيف

يكونون فاسدين؟! مائة وثلاثون شخصا متهمون بالانتماء للحزب الشيوعي المصري، وواحد وتسعون شخصا متهمون بالانتماء للتيار الثوري، وكثير آخرون متهمون بالانتماء إلى حزب العمال الشيوعي وحزب ٨ يناير. كثير من الأسماء قرأت لها مقالات من قبل في الصحف، وبعضها قرأت له كتبا، وبعضها رأت رسومه في الصحافة.

تقرأ الجريدة أكثر من مرة في اليوم تعيد الأسماء وترى أسماء أصحابها بينها، فتبكي وتعمل جاهدة ألا يظهر عليها أثر للبكاء.

في كل مرة تقرأ تتمنى من جديد أن لا تجد أسماء نادر وحسن وبشر وكاريمان ومحمد شكر الذي اندهشت كثيرا لوجوده بينهم، هو الذي سكن معهم منذ أقل من شهر، كيف اعتبروه مثلهم، هو الذي أحب فوقية ابنة الوزير السابق. ليته استمع إلى كلام فوقية ولم يذهب إلى المظاهرات. لم تكن تدري أن ما جرى لمحمد شكر جرى لكثيرين مثل المحامي ظريف عبد الله المقيم في باريس منذ ٩ سنوات وجاء اسمه في عريضة الاتهام وهو خارج مصر ويعمل الآن في الأمم المتحدة، كذلك اسم أحمد رفاعي المقيم ويعمل في اليمن منذ ثلاث سنوات. أما أكبر نادرة فهي الذهاب للقبض على الدكتور محمود القويسني اليساري القديم وكان قد توفي قبل المظاهرات بأسبوع، كما ذهبوا للقبض على مجندين في الجيش لم يتركوا وحداتهم منذ أوقات طويلة. لم تكن تدري أن جرس شقتهم سيدق طويلا بعد ستة أيام عند الفجر.

كانت نائمة واستيقظت.ظلت في حجرتها حائرة.ارتبك كل من في البيت، أبوها وأمها وأخوها. خرجوا من حجراتهم ووقفوا في الصالة ينظرون إلى بعضهم في دهشة. زعق فؤاد أخوها بغيظ:

ـ من؟

جاءه الرد هادئا من خلف الباب:

ـ بوليس.

تبادلوا النظر في حيرة. سألت الأم الأب:

ـ يعني إيه؟

بدا الأب غير قادر على الفهم فزعق فؤاد في أمه:

ـ ادخلي البسي الروب.

كانت تقف بقميص نوم شتوي لا يظهرشيئا من جسدها، لكنه في النهاية قميص نوم.

استمعت يارا إلى هذا الحوار من خلف باب غرفتها، فأصابها الارتباك والخوف. تحركت الأم إلى غرفتها بسرعة وعادت وفوقها الروب، وآخر تعطيه لزوجها ليرتديه فوق البيجامة، لكنه وضعه على ترابيزة السفرة ذاهلا.

فتح فؤاد الباب ليجد أمامه ضابطا شابا لامع العينين يرتدي ملابس مدنية، يرفع أمامه كارنيه به رتبته في أمن الدولة، وإلى جواره ضابط شاب برتبة ملازم في ملابس رسمية، أدرك أنه من المباحث العامة، ولا يرفع في يده شيئا. خلفهما على درجات السلم يقف عدد من الجنود والمخبرين. الجنود يحملون رشاشات صغيرة.

قال الضابط الذي يرتدي ملابس مدنية:

ـ نقيب عبد السلام سميح من أمن الدولة. تسمح لي بالدخول؟

قبل أن ينطق أحد من الأسرة، كان الجنود والمخبرون قد دخلوا وتوزعوا على أركان الصالة الكبيرة.

قال فؤاد الابن محتجا:

ـ أنا أيضا ضابط في البحرية التجارية. ما تفعله غير قانوني. هل مع حضرتك إذن من النيابة العامة؟

ابتسم ضابط أمن الدولة، وأشار إلى الجنود والمخبرين قائلا:

ـ فتشوا كل المكان.

ثم خاطب فؤاد:

ـ ليس لدينا وقت يا حضرة الضابط. تستطيع أن تعترض في النيابة إذا وجدت من يستمع إلى اعتراضك.

قال ضابط المباحث العامة لفؤاد في جهامة:

ـ أي مقاومة ليست في صالحك.

هنا أحس فؤاد بالحسرة لأنه لا قيمة لكونه ضابطا في البحرية التجارية، فهي ليست أحد أسلحة الجيش المصري. لو كان في الجيش المصري لاختلف الأمر.

قالت الأم وهي تشير إلى غرفة يارا:

ـ دقيقة واحدة لو سمحت. لا تدخل هنا أرجوك. ابنتي نائمة. سأدخل أوقظها أولا.

قال ضابط أمن الدولة:

ـ الآنسة يارا؟

نظروا إليه في دهشة. قال مبتسما في سخرية:

ـ لقد جئنا من أجلها. تفضلي يا هانم أوقظيها لأننا سنفتش الغرفة.

دخلت الأم غرفة يارا في ذهول. لم تكن تدري أن يارا تقف مرتبكة مرعوبة خلف الباب وهي تستمع لكل هذا الحوار.

قال ضابط أمن الدولة للأب:

ـ ابنتك يا حضرة في تنظيم شيوعي. ابنتك ممن حرضوا الناس على المظاهرات.

تراجع الأب إلى أحد المقاعد وسقط جالسا في ذهول.

كان الذهول شديدا أيضا على وجه فؤاد، الذي لانت نبرة صوته وقال للضابط:

ـ طيب لو سمحت فتش دون إحداث خسائر في البيت. أنا أعرف أن أختي لاعلاقة لها بشيء.

هز الضابط رأسه وقال:

ـ حاضر ـ وخاطب رجاله ـ التفتيش بنظام وهدوء لأجل حضرة الضابط.

خرجت الأم من غرفة يارا ومعها يارا شاحبة للغاية، ترتدي الروب فوق قميص النوم. ما إن رآها ضابط أمن الدولة حتى قال:

ـ أهلا آنسة يارا. ليتك تغيري ثيابك لأنك ستأتين معنا بعد أن ينتهي التفتيش.

بدا الأب حزينا تماما، وسقطت الأم منهارة جواره. قالت يارا وقد تماسكت فجأة:

ـ لن تجدوا أي شيء. اخترت المكان الخطأ يا حضرة الضابط.

بدا الذهول من جديد على وجه فؤاد من قوة أخته البريئة الساذجة كما يراها دائما. لكنه بدا يفكر في شيء آخر. أسرع إلى غرفته ليتحدث في التلفون. كان بداخلها اثنان من المخبرين يفتشانها. حين رفع سماعة التلفون لم يجد حرارة. كان ضابط أمن الدولة قد قطع السلك الرئيسي للتلفون في الصالة، ومن ثم انقطع الاتصال عن التلفونات الموجودة في كل الغرف. كانت يارا قد جلست جوار أبيها تقول:

ـ لا تخف يا بابا. لا تخافي يا ماما. أنا ليس لي علاقة بشيء. أي شيء.

ما كادت تقول ذلك حتى خرج أحد المخبرين اللذين دخلا حجرتها رافعا في يده عددا من مجلة «الانتصار» الخاصة بالحزب الشيوعي المصري، وعددا آخر من نشرة «كفاح شعب» الخاصة بنفس الحزب، ويقول للضابط:

ـ وجدنا هذه المجلات يا أفندم.

هتفت يارا وهي تقف وتتقدم بسرعة تريد أخذها من يده.

ـ وضعتموها لي في الغرفة يا كلاب.

جمد الأب والأم والابن في ذهول أكبر، من يارا أكثر من العثور على المجلات. تقدم ضابط المباحث العامة إليها في غيظ، لكن ضابط أمن الدولة أشار إليه بالتوقف. هتف فيه «مكانك» فتوقف في غيظ شديد. نظر ضابط أمن الدولة إلى يارا. بدا أنه قد تأثر بجمالها. قال للأب:

- ابنتكم حقا ليست للبهدلة يا حضرة، لكن هذا عملنا.

حطّ الصمت على الجميع، والتفتيش يتم في كل أنحاء الشقة الكبيرة بدقة شديدة، حتى أنهم كانوا يمشون بأيديهم على ورق الحائط الملتصق بالجدران من أزمان بعيدة علهم يجدون شيئا بينه وبين الجدران. قالت يارا ساخرة:

- لن تجدوا شيئا آخر غير ما أحضرتوه معكم.

قال لها ضابط أمن الدولة ساخرا:

- ادخلي غيري ثيابك وحضّري حقيبة صغيرة بها ملابس للغيار. ستنفعك.

دخلت غرفتها في عزم وقال الأب وهو يجلس حائرا:

- إلى أين ستأخذون ابنتي؟

قال الضابط:

- ربما سجن الحضرة حتى تعرض على النيابة غدا. ربما إلى سجن القناطر بالقليوبية. كان يمكن أن لا أقول لك شيئا لكن فعلا الآنسة يارا مش وش بهدلة.

نزلوا بها ودموع الأم تجاهد لتنزل بطيئة على خديها. إنها سيدة أرستقراطية لاتريد أن تبدو ضعيفة أمامهم. وبدت يارا وهي خارجة معهم في قوة لم يتوقعها أحد من أسرتها. ما إن غادروا الشقة حتى هتف فؤاد لأبيه:

ـ عاجبك مافعلته ابنتك؟

لم يرد الأب. قالت الأم في غضب:

ـ وصل سلك التلفون الذي قطعوه واتصل براجي بيه بدل كلامك الفارغ.

وجرت تدخل غرفة يارا لتلقي نظرة من البلكونة على ابنتها في الشارع. واجهتها أنوار الفجر الهادئة تأتي من بعيد إلى الدنيا، وصوت الموج الذي صار رقيقا كأن البحر في سكون، والمطر الخفيف، وأسفل البيت في الشارع سيارة ملاكي فولكس فاجن، رأت يارا تدخل إلى مقعدها الخلفي، ويجلس ضابط أمن الدولة في المقعد الأمامي.

السيارة الفولكس لها باب واحد من الأمام، لذلك لافرصة لمن في الخلف للهروب. رأت أكثر من سيارة جيب ركب فيها المخبرون والجنود وضابط المباحث، وأسرعت كلها في الطريق الخالي في اتجاه المنشية.

باتت يارا ليلتها في مديرية الأمن. لم يكن معها أحد آخر من الشيوعيين. أجلسها أحد الضباط الكبار في مكتبه حتى الصباح وطول النهار التالي، حتى عرضت على النيابة في المساء. لقد كان للاتصال الذي أجراه أخوها براجي بيه، القبطان البحري القديم، أثره. فهو رجل

له علاقات قديمة قوية بكل المتنفذين في الإسكندرية. لقد طمأنهم تماما. بل فوجئوا باتصال تلفوني في الصباح من سيد بيه عبد الباري رئيس أمن الدولة نفسه يعتذر عما جرى. لم يكن يعرف شيئا عن يارا. هكذا قال لهم. لم يعرفوا طبعا إنه كان يعرف عنها كل شيء، وأنه الذي دبرهذا كله، لكن يبدو أن راجي بيه أجرى اتصالا بشخص كبير خارج محافظة الإسكندرية نفسها. قال لهم سيد بيه عبد الباري لايمكن أن يفرج عنها إلا من النيابة، ولن يقدموا أي أوراق وجدوها معها، لكنه حذرهم من العودة إلى أصحابها، وذكرهم بالاسم، نادر وحسن وبشر وكاريمان الذين هم في السجن الآن. وأفرج عن يارا من سراى النيابة في المساء.

كانت العودة إلى البيت إذا سهلة، رغم ما بدا من شحوب وألم على وجه يارا، التي ما إن جلست في الصالة بين الأسرة حتى اندفعت باكية وقالت:

ـ أنا فعلت ما فعلته كاريمان لكن كاريمان الآن في السجن. رأيت اسمها من قبل في الصحف وأنا يتم الإفراج عني. كيف؟ هذا ظلم.

فوجئت أسرتها بهذا الحديث فهتف فؤاد أخوها صارخا:

ـ زعلانة على صاحبتك الشيوعية. أنت تستحقين القتل. أنت فاشلة وأصحابك فاشلون.

لم ترفع يارا رأسها إليه لحظات. وقفت في هدوء ثم أسرعت إلى المطبخ صارخة.

ـ سأقتل نفسي وأريحك.

صرخت الأم:

ـ الحق يا فؤاد أختك.

لم يتحرك فؤاد. الأب هو الذي أسرع إلى المطبخ ودخل ليمسك بيدها اليمنى وبها السكين قبل أن تمر بها على رسغها الأيسر. ثم صرخ «الحقوني».

لم يكن ذلك لأن يارا قطعت شرايينها، لكن لأنها فقدت الوعي بين يديه وتسقط إلى الأرض.

* * *

على قد الليل مايطول
مسترضي بسهري ونوحي
في حبك يا اللي من أول
ما أشوفك تترد لي روحي
سنين وأيام دايب فيكي
بزمارتي أصحيكي
طول مانا وانتي في الدنيا دي
طز في أهلي وأجدادي
أروح على فين وانتي قصادي

خمسة أشهر تقريبا قضاها كل من بشر وحسن ونادر ومحمد شكر وكاريمان في السجن، يستمعون إلى أغان كثيرة يغنيها الزملاء لكن كانت أغنية سيد درويش تؤثر فيهم جدا رغم اختلاف أماكنهم. كان هناك دائما سجين من الزملاء يردد هذه الأغنية التي يعرفون جميعا

أنها من الحبيب للحبيبة. يرددون معه المقطع الأول بالذات في شجن ثم يضحكون فيما تبقى من الأغنية ويأخذهم التفاؤل إلى حالة من الراحة والأمل. لقد توزعوا على السجون بعيدا عن بعضهم البعض، كأنما تم ذلك بتدبير مسبق من أمن الدولة. بشر في سجن الاستئناف وحسن في طرة ونادر في القناطر، ومحمد شكر في أبوزعبل. كاريمان في سجن القناطر للنساء.

رغم أن بشر قد جرب السجن مرة، إلا أنه هذه المرة مع أشخاص لم يعرفهم من قبل، وفي سجن فاقت قذارته كل توقع. سجن الاستئناف الذي قرأ قديما أنه كان سجنا نظيفا أيام العصر الملكي، دخله السياسيون والمعارضون ومنهم الرئيس السادات نفسه.

صارلكل منهم تجربة يمكن أن يحكيها يوما. لم يلتقوا أبدا، حتى في ذهابهم إلى مقر النيابة في عربة الترحيلات، كانت مواعيدهم تختلف. لكنهم كانوا يعرفون أخبار بعضهم من زملائهم الآخرين.

في كل زيارة للنيابة كان بعضهم يتوقع الإفراج عنه، لكن النيابة تواصل حبسهم. كان محمد شكر أكثرهم ألما وحزنا. في كل مرة يقول إنه لاعلاقة له بالسياسة، وأنه سكن الشقة مع بشر وحسن ونادر قبل الأحداث بثلاثة أسابيع تقريبا وبالصدفة، وأن الذي شجعه على ذلك زميلهم أحمد باسم غير المقبوض عليه ويمكن سؤاله، لكن النيابة تعطيه استمرارا في الحبس.

رأى محمد شكر لأول مرة الشيوعيين يقيمون الندوات في المساء، ويغنون أغاني الشعراء الذين لم يكن يعرف منهم غير صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي. بينما كان أحمد فؤاد نجم وزين

العابدين فؤاد ونجيب شهاب الدين بالنسبة له شعراء لم يسمع عنهم من قبل، عرف أن زين العابدين فؤاد محبوس معهم لكن في سجن آخر، وأن أحمد فؤاد نجم هارب لفترة طويلة. كان من حوله في العنبر ينامون في منتصف الليل، ويظل هو ساهرا يفكر هل سيعود إلى فوقية مرة أخرى؟

لم يختلف مالاقوه كثيرا، فالنوافذ في العنابر عالية رفيعة، زجاجها ملصق بالجدران ولاتفتح، يدخل من خلفها ضوء خافت ولايدخل الهواء، وطعام السجن رديء لا يأكلونه. فقط الخبز كان طيبا، وكان هذا شيئا غريبا لهم، باستثناء بشر الذي جرب ذلك من قبل. عرفوا أن هناك أفرانا تابعة لمصلحة السجون، فرن في كل سجن كبير، باستثناء سجني الاستئناف وأبوزعبل، اللذين كان الخبز يرسل إليهما من السجون الأخرى. أما الفول فكان السوس يسبح فيه ظاهرا للعيان. بعد أن انتظمت زيارات الأهل، لم تعد إدارة السجن توزع عليهم إلا الخبز، لتوفر الطعام لهم من الخارج.

بسرعة تقارب أصحاب الخبرة في السجن مع المساجين الجنائيين، فصار في كل عنبر للسياسين شطرنج وكوتشينة لقتل الوقت، أعطاها لهم الجنائيون نظير السجائر. كان أهالي المساجين، وخاصة من القاهرة، يحملون كميات كبيرة من الأطعمة والسجائر تكفيهم وزيادة، فكانت السجائر طريقهم إلى صداقة الجنائيين أكثر من غيرها. أمدهم الجنائيون أيضا بمواقد كحولية ممنوعة أصلا في السجون، لعمل الشاي والقهوة. كما كان أهاليهم يهرّبون لهم الصحف. يطوونها ويضعونها في أكياس من البلاستيك توضع

تحت الأرز في الحلل. أما كيف كان يتم ذلك، فبطريقة سهلة، إذ يطبخ الأهل الأرز في الحلة ثم ينتظرون حتى تبرد ويقلبونه في حلة أخرى في قعرها الكيس البلاستك وبداخله الصحيفة.

كانت الصحف دائما مثال سخرية كبيرة، من بينها فقط كانت مجلة روزاليوسف هي من يقرءونها بشغف.

تعرض بشر أكثر من مرة للعقاب، لأنه كان دائم الدعوى للإضراب عن الطعام، وكان لايتورع عن الصراخ في وجه مأمور السجن حين يأتي لمناقشتهم لينهوا الإضراب. كان العقاب هو حرمانه من طابور الشمس أحيانا، وأحيانا الحبس الانفرادي الذي وصل مرة إلى عشرة أيام.

بدا حسن حافظ مستقيما لايكف عن الابتسام حين يتكلم، مؤمنا بأنها أيام وستمر. في إحدى المرات سأله أحد زملائه عن سرّ ابتسامته فقال:

ـ نحن الآن عام ١٩٧٧.

بدا زميله لايفهم. فاستطرد حسن:

ـ إذن مرت ١٩٧٧ سنة بعد الميلاد، وستمر مثلها، فلماذا لا ابتسم.

اندهش زميله لكنه راح يبتسم دائما مثله ويقول ضاحكا لزملائه «خلوا بالكو هناك ١٩٧٧ سنة في انتظارنا» ويضحك الجميع.

كان بينهم أطباء مع الوقت صار يستفاد منهم في مستشفى السجن وعيادته. وعرفوا جميعا، وفي كل سجن، من زيارات النيابة، أن خليل لايزال هاربا مع قليل من الهاربين.

طلب حسن من أهله الذين يزورونه كراسة وأقلام رصاص صادرتها إدارة السجن، لكنه حصل على أحسن منها من المساجين الجنائيين.

نادر فعل مع أبيه الأمر نفسه، وحدثت المصادرة نفسها، وحصل عليها أيضا من المساجين الجنائيين.

كتب حسن أكثر من قصة كان الليل الذي لايمر بطلا فيها، وكتب نادر قصائد متفرقة لم يُطلِع عليها أحدا. كثيرا ماكان يحفظ ما يكتبه رغم ضعف قدرته على الحفظ، في الليل والكل ينام حوله يجلس مرتكنا بظهره إلى الحائط البارد يردد القصائد لنفسه يحفظها. توسل إلى أبيه وأمه بعد الزيارة الأولى له أن لايأتوا، فالسفر مرهق لهما من الإسكندرية، والزيارة لاتتم إلا بعد الحصول على تصريح من النيابة. الحقيقة أنه كان لايريد أن يتعذب بدموع أمه التي تحاول جاهدة إخفاءها. كذلك فعل كل من بشر وحسن مع أبيه وأمه أيضا. محمد شكر وجد من أبيه لوما وتوبيخا، إلا أن أفراد أسرته ظلوا يترددون عليه، وكان هو ينتظر زيارة لم تتم! كتب أكثر من خطاب إلى فوقية يشرح لها براءته من كل تهمة، ولم يشأ أن يعطيها لأحد من أهله ليرسلها بدوره بالبريد فقد لا يفعلون. وجد في اقتراح زملائه أن يفعل ذلك عن طريق المسجونين الجنائيين، طريقة أسهل. ظل يتساءل في دهشة كيف يسمح للجنائيين بإرسال الرسائل ولايسمح للسياسيين. عرف أنه حتى الجنائيين لايسمح لهم بإرسال الرسائل، لكنهم يعرفون كيف يقومون بتهريبها.

كان البرد ينخر في عظامهم بسبب اتساع العنابر، وبسبب صغر ارتفاع المراتب، والغطاء القديم الذي لايزيد على بطانية مستهلكة

لكل سجين. كانت دقات الطبول التي ترتفع أحيانا بالليل تثير انتباه حسن ونادر ومحمد شكر، وكل مسجون لأول مرة. دقات ترتفع في كل السجون التي توزعوا عليها، وعرفوا أنها حفل يقام بمناسبة زواج سجين جنائي قديم قوي موثر، بسجين جديد ضعيف لاحول له ولاقوة. رءوا المساجين الشواذ في الفسحة يمشون أمام العنابر وفي الشمس، يرتدون قمصان نوم نسائية تكشف أذرعهم وصدورهم، وقد وضعوا الروج الأحمر الثقيل على شفاههم، ويتحدثون كالقحاب.

محمد شكرالبريء الذي انتظر ردا على رسائله من فوقية، لم يصله أي رد. قال لنفسه ربما لم تفعل ذلك لأنها فكرت أن مثل هذه الخطابات يتم فتحها عند المأمور قبل أن تصل إليهم فيعرفون فحواها ومرسلها. لم يفطن إلى أن رسالة واحدة لا تصل بالبريد إلى أي سجين. لازم الصمت ولم يعد يُرى إلا صامتا، وعزف عن كل نشاط ثقافي، فجلس بعيدا جدا جوار الحائط ينعى حاله ويندهش مما جرى له.

حسن الذي عرف بسجن كاريمان لم ينتظر زيارتها. ابتسم وقال ساخرا إنها هكذا ستكون أفضل حالا من الحياة مع زوج أمها! كان يعرف أنه يساعد نفسه ألا يتألم من أجلها.

كان من المشاهد التي تكررت في كل السجون تقريبا، مشهد سجين جنائي يمشي في وقت الفسحة، وقد خاط شفتيه بالخيط حتى لايتكلم. وفي اليوم التالي يظهر يمشي وقد خاط أنفه، وفي اليوم الثالث يمشي وقد خاط جفونه فلا يرى. عرفوا هم الجدد أن هذه طريقة عند بعض الجنائيين للاحتجاج.

الجنائيون لايعرفون الإضراب عن الطعام كأحد الوسائل التي يستخدمها السياسيون للحصول على حقوقهم. ولقد فعلوها جميعا للحصول على حق الزيارة عبر الأسلاك دون تصريح النيابة وفي أي وقت. لم يضرب محمد شكرعن الطعام. أضرب بشر مع زملائه بإخلاص، وأضرب حسن ونادر من باب التجربة. كان كل منهم يحلم بأقراص من الخبز كبيرة الحجم جدا، تكبر في الحلم فوق الأرض لتملأ الصحراء بدلا من الرمال، ويحكون لزملائهم هذا الحلم العجيب، فيجدونهم قد حلموا بذلك أيضا.

في مواعيد عرضهم على النيابة هتفوا مع قدامى السياسيين داخل عربات الترحيلات، «يسقط يسقط الرئيس الكذاب». وغنوا أغنية الشيخ إمام التي كتبها من قبل زين العابدين فؤاد:

«اتجمعوا العشاق في سجن القلعة
اتجمعوا العشاق في باب الخلق
والشمس غنوة من الزنازن طالعة، ومصر غنوة مفرعة في باب الخلق
اتجمعوا العشاق في الزنزانة مهما يطول السجن مهما القهر
مهما يزيد الفُجر بالسجّانة مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر»
وبعد كل مرة يعودون وفي عيونهم شعور بخيبة الأمل.

رغم الأكل الجيد الذي كانت تأتي به عائلات المقبوض عليهم من زملائهم الذين يعيشون في القاهرة، والذي كانت تساهم فيه الأحزاب وبعض المتطوعين من السياسيين المعارضين، إلا أن كلا منهم فقد كثيرا من وزنه.

لم تكن الحياة في الخارج بعيدة عنهم، بسبب الصحف التي يتم

تهريبها إليهم، لكنهم لم يصدقوا أبدا أن تمضي الحياة على عكس ما أرادوه من الانتفاضة العظيمة، فكل ما كتب عن اعتراف بعض المتهمين بالإعداد للتخريب قبل زيادة الأسعار كذب، فهم يعرفون، لتوزعهم على السجون، أن لاأحد اعترف بذلك إلا شخص أو شخصان، اتضح أنهما عملاء لأمن الدولة. وتصريحات النائب العام عن ضبط منشورات تشيد بالتخريب كذب، أما قرارات السادات بالأشغال الشاقة لكل من أقام تنظيما سريّا مدنيا أو عسكريا معاديا للنظام فهي حقيقة. الرجل يحكم قبضته على البلاد بعد أن وصف الانتفاضة بأنها انتفاضة حرامية. وهم يعرفون أن الحرامية أطلقتهم الشرطة مساء اليوم الثامن عشر من أقسام البوليس للنهب والسرقة والحرق. الرجل الذي يحكم قبضته يجعل أيضا الأشغال الشاقة لكل من دبر أو شارك في اتصال جماهيري أو اعتصام يهدد السلم العام. والسلم العام هو الخضوع للدولة وعدم المعارضة. هكذا كانت الندوات الليلية تسخر من كل شيء. قرارات باطلة وقعها السادات على الملأ أمام الشعب وطلب استفتاء عليها ستظهر نتيجته ٩٩٪، كالعادة منذ بدأت ثورة يوليو ١٩٥٢ في الاستفتاءات. السادات يكرر هجومه على الشيوعيين الذين وثبوا إلى الصحافة، وهم يضحكون لأن تعيين الصحفيين لايتم بعيدا عن الحكومة، كذلك فالشيوعيون إما في السجون أو في خارج البلاد. وحين قرر مجلس الشعب تحويل الشركات العامة الخاسرة إلى شركات مساهمة، أدركوا أنه قد بدأ عصر بيع شركات القطاع العام، للصوص من رجال الحكم والموالين له، وأن سياسة التضييق على شركات القطاع العام لتخسر قد بدأت، وعصر الرأسمالية الطفيلية التي تقفز على أموال الشعب ينطلق بقوة. رأسمالية ليس لها تاريخ. فقط تخدم رجال الحكم.

لم يكن يعنيهم شيئا من أخبار الخلافات مع ليبيا، لا منع دخول المصريين إليها، ولا إعدام أحد عملاء مخابراتها الذي وضع قنبلتين في مجمع التحرير بالقاهرة. رءوا أن ذلك قد يكون أيضا عملا من أعمال المخابرات المصرية. الحقيقة ضائعة بين رئيس مجنون في ليبيا، ورئيس مجنون في مصر. واغتيل الشاعرالفلسطيني راشد حسين في أول فبراير من العام في نيويورك. حرق مجهولون منزله وكان يعمل مراسلا لوكالة الأنباء الفلسطينية. كانت وفاة عبد الحليم حافظ يوم الأربعاء ٣٠ مارس يوم حزن كبير، وإن كان بعضهم يرى في أغاني عبد الحليم، تماما كأم كلثوم، نوعا من الأفيون للشعب. إلا أن الكثيرين كانوا في حزن حقيقي، وأكثرهم حزنا كان محمد شكر الذي بكى بين دهشة كل من في العنبر. كذلك نزلت دموع أخفاها نادر، أما في سجن القناطر للنساء فقد بكت كثير من النساء، وصرخن ولطمن وجوههن حول كاريمان التي بكت بدورها في صمت. ظلت أخبار جنازة عبد الحليم حافظ في الصحف أياما، وانتهت الدهشة إلى مجرد تحريك الحاجبين كأنما تعودوا. وتوفي في نفس الشهر الشاعر محمد علي أحمد صاحب أغنيات «على قد الشوق» لعبد الحليم حافظ و«إن كنت ناسي أفكرك» لهدى سلطان و«بين شطين ومية» لمحمد قنديل، أجمل الأغنيات عن إسكندرية، لكن شغل موت عبد الحليم حافظ الدنيا كلها، وما زال السادات يحقق مكاسب باستمرار قضايا التعذيب الذي قام به رجال العهد السابق، فقد بدأت في أبريل محاكمة شمس بدران وزير الحربية في عهد عبد الناصر ومعاونيه في قضايا تعذيب كبيرة، وضحكوا كثيرا حين لجأ طيار ليبي بطائرته إلى القاهرة. ضحكوا مما قال القذافي وهو يصرخ أنه محاط بالخونة في ليبيا، وأن المشنقة في انتظار كل

من له صلة بالحادث. في النهاية، ومع نهاية مايو استقرت السلطات المصرية على قرار اتهام بمائة وستة وسبعين متهما ممن شاركوا في انتفاضة يناير، فأفرج هكذا عن مائة وسبعة وسبعين آخرين لم يشملهم قرارالاتهام كان بينهم نادر وبشر وحسن ومحمد شكر وكاريمان.

كانت خمسة شهور تقريبا قد مرت. عرف المتأخرون في العرض على النيابة أسماء من سبق الإفراج عنهم في صباح نفس اليوم. وأطلق سراحهم جميعا من السجون بالليل. لاختلاف السجون أخذ كل منهم طريق عودته وحده. توقع حسن أن يلتقي بأي منهم في محطة رمسيس بالقاهرة. توقعوا جميعا ذلك. لكن لم يتقابلوا.

في صباح اليوم التالي كان حسن يقف في فناء الكلية أمام مدرج العبادي. لقد عرفوا من الصحف من قبل مواعيد الامتحانات، وكان هذا اليوم هو اليوم قبل الأخير. لم يذهب حسن لمقابلة أحد من زملائه، فلقد رسبوا جميعا هذا العام، إذ لم تعطهم إدارة السجن فرصة المذاكرة ولا فرصة الامتحان. لكن شعورا مبهجا كان في روح حسن أنه سيلتقي كاريمان. وهاهي قادمة إلى نفس المكان أمام مدرج العبادي فلم يصدق! عيناها الخضراوان فقط هما ما تبقى منها. وجهها الأبيض الذي كان دائما مشرقا بالحمرة صار يميل إلى الإسمرار والشحوب، وظهرت فيه حبوب صغيرة، وفقدت كثيرا من وزنها. لكنها كاريمان حبيبته التي يدق لها قلبه الآن، هو الذي رأته أيضا وقد صار مثلها في كل شيء، حتى أن ابتسامته الصغيرة التي لم تكن تتسع صارت أقل!

كانت هالات من السواد عميقة حول عيني كاريمان. وكانت تدخن السجائر في شراهة وهي واقفة، يمر حولها عدد قليل من الطلاب الذين

سيؤدون امتحانهم بعد الظهر، وجاءوا مبكرين يراجعون ما ذاكروه المراجعة الأخيرة، فكانوا يمشون يقرءون في أوراق معهم، بينما من هم بداخل اللجان لم يخرجوا بعد. لماذا جاءت كاريمان وهي مثلهم لم تذاكر ولم تؤدي الامتحان ورسبت هذا العام! لابد أنها توقعت حضوره.

رأته فتسمرت مكانها، واندفعت دموعها. جرى إليها أمسك بيديها يقبلهما دون كلام، ثم أحاطها بذراعه دون خوف من أحد، ومشى بها إلى الكافتريا.

ـ كنت أعرف أني سأجدك هنا. عرفت بالإفراج عنك من عسكري بالنيابة. كذلك الإفراج عن بشر ونادر ومحمد شكر. أتوقع أن يأتوا أيضا هنا.

نظرت إليه كأنها تعاتبه. لماذا حقا يأتون؟ هي جاءت متوقعة حضوره. لكنها تذكرت أن نادر قد يأتي ليرى يارا ومحمد شكر قد يأتي ليرى فوقية، وبشر أيضا قد يأتي لأنه أكثرهم جنونا.

ـ لماذا لم تسافر إلى المنصورة؟

سألته في حزن فأمسك يدها وقال:

ـ كنت سأموت إن لم أقابلك اليوم.

شردت عنه لحظة. بدا عليها حزن عميق، وهي تشعل سيجارة من أخرى. قال:

ـ هل وجدت مشكلة مع الأسرة؟

قالت وهي تهز رأسها ساخرة:

ـ المشاكل ليست جديدة. هذه المرة تختلف. لقد تزوج زوج أمي بامرأة أخرى أصبحت تعيش في حجرتي.

قال في دهشة:

ـ امرأة أخرى؟!

ـ أجل. منتقبة. أمي أيضا صارت منتقبة. الاثنتان تجلسان حوله تقدمان له ما يريد في رضاء تام.

ـ هذا مجنون!

مطت شفتيها في يأس.

ـ وأنت أين ستقيمين؟

ـ قال لي لم يعد لك مكانا هنا. اذهبي إلى الشيوعيين الكفرة.

ـ وأمك؟!

ـ قالت لي أنت السبب ولم تزد.

بدا منزعجا جدا. قال:

ـ إذن أين قضيت ليلتك؟

ـ نائمة على كنبة في الصالة. هو يريد ذلك ليراني في طريقه دائما.

عادت الدموع تظهر في عينيها. مد يده يجففها بأصابعه. مدت يدها بمنديل صغير تجفف دموعها فأبعد أصابعه.

ـ لاتبك يا كاريمان. سندبر كل شيء.

ورأى محمد شكر من خلف زجاج الكافتريا وقد صارهزيلا

جدا قادما إلى الباحة أمام مدرج العبادي، وعددا قليلا من الطلاب والطالبات يظهرون قادمين من الأدوار العليا التي تجري فيها الامتحانات ويبدو عليهم الفرح ويراجعون إجاباتهم معا. هتف:

ـ محمد.

وكاد ينهض ليذهب إليه، لكن فوقية وأختها ظهرتا في اللحظة نفسها. قال لكاريمان:

ـ فوقية. ربنا يستر.

كانت كاريمان ترى معه المشهد من خلف الزجاج. لم يسمعا حوارهم القصير. ابتعدت فوقية عن محمد شكر بسرعة، بعد أن قالت كلاما بدا عنيفا من حركة يديها وشفتيها، وأسرعت أختها معها. ووقف محمد حائرا مرتبكا ينظر له الطلاب، بعضهم يشفق عليه وبعضهم يبتسم.

ـ تركته فوقية. انتهت قصة الحب.

قالت كاريمان في أسى ثم استطردت:

ـ مسكين محمد. طيب ومحبوب. لا في العير ولا في النفير. وسجن معنا ظلما.

وقف حسن وقال:

ـ سأخرج لآتي به.

تركها وخرج، وما إن نادى «محمد» حتى راح محمد ينظر إليه حائرا، بينما هو كان قد اقترب واحتضنه وراح يقبله ويربت على ظهره.

لم يبد محمد أي انفعال بلقاء حسن. ترك نفسه له وظل مكسورا حزينا بما فعلته فوقية. ما إن تركه حسن حتى رأى يارا قادمة إلى نفس الباحة أمام مدرج العبادي. ليست هذه يارا أبدا. قالت ذلك كاريمان التي كانت ترى كل شيء أيضا من خلف زجاج الكافتيريا. لقد صارت شاحبة أكثر منا. وخرجت إليها مسرعة. ليس هذا جسد يارا ولا هذه بشرتها. لقد فقدت تقريبا نصف وزنها. كان حسن ينظر إليها ذاهلا بدوره ولاتراه يارا. وقبل أن يناديها كانت كاريمان تهتف «يارا».

نظرت يارا إلى مصدر الصوت فرأت كاريمان. تجمدت واقفة تحملق فيها وصدرها يرتفع وينخفض أمام عيني كاريمان. ما إن تحركت يارا خطوة إليها حتى ظهر رجل في حوالي الأربعين من العمر، يرتدي بدلة رمادية أنيقة، وصار هو الأقرب إلى يارا، فأمسك بيدها ومشى بها بينما وقفت كاريمان حائرة. ليس هذا الرجل فؤاد أخاها لأن كاريمان رأته من قبل عند يارا.

كان في الخلف من كاريمان يقف حسن ومحمد شكر اللذان انتبها إلى الموقف أيضا. كان حسن يتابع الموقف بدهشة شديدة، بينما محمد شكر بدأ يستوعب ما يحدث حوله. لكن يارا بعد أن مشت عدة خطوات مع الرجل توقفت واستندت على ذراعه، ثم ترنحت وشهقت شهقة طويلة، وكادت تسقط على الأرض. تلقاها الرجل بين يديه، وأسرع بها يحملها إلى الكافتريا يضعها فوق أحد المقاعد، وعدد من الطلاب خلفه. قرّب واحد منهم مقعدا آخر، رفع الرجل ساقي يارا عليه. أخرجت إحدى الطالبات زجاجة كولونيا صغيرة، وراحت ترش منها على وجه يارا.

في الخارج ارتكنت كاريمان على جدار مدرج العبادي، وراحت تبكي ووجهها إلى الحائط، ، بينما دخل حسن ومحمد شكر إلى الكافتريا، ووقفا بعيدا قليلا يتابعان الموقف غير قادرين على التصديق.

أفاقت يارا. قدم الجرسون لها كوبا به ماء، رشفت رشفة منه ورفضت الباقي. وقفت في بطء، ثم مشت على مهل، يسندها الرجل الأربعيني الأنيق من وسطها بيده اليمنى، ويمسك بيده اليسرى يدها اليمنى من الأمام. ما إن خرج بها من باب الكافتريا، حتى جلس حسن ومحمد شكر في ذهول، وجاءت كاريمان لتجلس شبه منهارة جوارهما. قال حسن كأنه يحدث نفسه:

ـ ما الذي جرى في غيابنا!

ـ حمدا لله على السلامة.

نظروا إلى مصدر الصوت. زميلة لهم اسمها فايزة، معروفة في القسم بكثرة الكلام، صارت تقف أمامهم وهي التي هتفت بذلك. قالت وهم ينظرون إليها في صمت:

ـ مسكينة يارا. منذ ثلاثة أشهر يغمى عليها كثيرا في المحاضرات دون أي سبب. كل يوم كانت تفقد كثيرا من وزنها. لم تعد تتكلم مع أحد. كان المفروض تكون سعيدة لأنها تزوجت.

وضع محمد شكر رأسه على راحته وأطرق ينظر إلى المنضدة، بينما رفع حسن عينيه إلى المروحة المعلقة في سقف الكافتريا، أما كاريمان فاندفعت في البكاء من جديد.

* * *

حين خرج نادر من باب السجن، كان أول ما فكر فيه هو يارا. سيصل إلى الإسكندرية في منتصف الليل. مثل زملائه يعرف أن الامتحانات بدأت، ولايظن أنها انتهت. سيقضي بقية الليل مع أبيه وأمه وأخيه الصغير، لكنهم سرعان ما سيتركونه لينام. سيظل وجه يارا الذي كان معلقا أمامه في فضاء العنبر، والذي صار يمشي أمامه طوال الطريق، معه في فضاء غرفته.

أحاطه أبوه وأمه بالفرح، وأخوه الصغير بالبهجة، وإن كانت دموع أمه تسقط بين الحين والحين. كلما سألوه عن شيء بدا لهم سعيدا كأنه لم يكن في السجن، وكانت سعادته أنه سيرى يارا في الصباح. لم يحدثها في التلفون، لأنه أراد أن تراه أمامها فجأة. سيمتلك الدنيا من جديد. سيحكي لنوال كل شيء، وسيحكي ليارا كل شيء جميل.

تركته أسرته مع آذان الفجر لينام، ونام من التعب. لدهشته استيقظ في الثامنة. بعد أربع ساعات فقط، ووجد نفسه قادرا على الحركة كأنما نام الدهر كله. ابتسم لأنه لم يحلم بأي شيء. كأنه كان مطمئنا زال عنه كل قلق. أسعد أمه بأن أكل صينية السمك كلها، ليعود إلى وزنه كما قالت، وقبّل يدها وترك المنزل مسرعا.

كانت الساعة التاسعة. سيصل إلى الكلية في العاشرة، فإذا كان هناك امتحان ستكون يارا قد دخلت إلى اللجنة وستخرج في الثانية عشرة، وإذا كان امتحانها بعد الظهر سينتظرها حتى تأتي. لم يفكر أبدا أن اليوم قد يكون خاليا من الامتحانات.

كان يجلس في الأوتوبيس رقم(١)، ويتحرك في جلسته كأنه يريد أن يسبقه. انتبه فجأة إلى أنه قد صار في وسط الخلاء العظيم

لمنطقة المكس، والنور ينسكب عليه كأنه اختص المنطقة وحدها، بعد أن كانت في ظلام دامس. ابتسم. ها هو يرى الطبيعة تتجلى له بالجمال الفائق الذي فجر فيه الشعر من قبل وسيفجره دائما. تذكر أن مأمور السجن أخذ منه كل ما كتب. كان ساذجا أظهر أوراقه وهو ينهي إجراءات الخروج من السجن. كان يمسك بها في يده ولم يضعها في حقيبة ملابسه. كان ممسكا بها حتى إذا ضاع كل شيء معه في الطريق لاتضيع قصائده. ابتسم ساخرا. حتى لو كانت في الحقيبة كان سيجدها المأمورالذي فتشها. أخذها المأمور ولم يأبه بغيظه، ولم يستمع إليه وهو يقول إن ما كتب بها هو شعر من تأليفه. لكنه أيضا لم يلح عليه. حفظ أكثرها في الليل وحده وهو يفكرفي يارا التي استحكم حبها في القلب وانغلق عليه. لقد كان يتلوه عليها هي التي يقف وجهها أمام عينيه يملا فضاء العنبر. أدهشه أنه لايفكر في نوال، رغم أنه حدث زملاءه كثيرا عن عصمت مفتاح، وقرأ لهم قليلا من الشعر، الذي اكتشف أنه وقر في قلبه منذ قرأه عند نوال. لابد أن نوال هي المهرة المضمونة. كل هذا القلق ليارا مبعثة الحب الحقيقي.

أحس بالخوف. كاد يقف وينزل من الأوتوبيس يطلب يارا في التلفون. لكنه كان قد اقترب من مقهى خفاجي، والأوتوبيس يهدئ من سرعته ليقف في المحطة. رأى لدهشته عيسى سلماوي جالسا أمام الباب، على الرصيف الذي تملأه الشمس، يدخن الشيشة ويتصفح إحدى الصحف. إذن ليس هناك امتحانات صباح اليوم. لديه إذن وقت يمضيه معه، ولابد سيعرف منه الكثيرعن يارا.

نزل في المحطة التي لا يفصلها عن المقهى غير عرض شارع القفال، وعاد الخطوات القليلة بسرعة هاتفا:

ـ أستاذ عيسى.

التفت عيسى ليراه. بدا لايصدق. ترك الصحيفة و«ليّ» الشيشة، وفتح له حضنه، وراح يربت على ظهره في فرح حقيقي.

ـ حمدا لله على السلامة يا بطل. كنت واحشني ـ وتأمله من أسفل إلى أعلى وقال ـ ياه أنت خاسس جدا.

ابتسم نادر وقال:

ـ كنت في السجن يا أستاذ عيسى؟! لماذا تجلس هنا؟ ألا يوجد امتحانات صباح اليوم؟

ارتبك عيسى لحظة ثم قال:

ـ اجلس. احك لي. كيف كان الحال في السجن؟

نسي نادر سؤاله عن الامتحانات. اعتبر أن الامتحانات فعلا بعد الظهر، أو لعلها في الغد وليس اليوم مادام عيسى يجلس هنا الآن. جلس سعيدا مثل طفل وقال:

ـ هذا حديث طويل يا أستاذ. ربما أكتب يوما عن تلك الأيام. لكن ليس مثل ماجرى لكم في الواحات على أي حال. حدثني أنت عن حالك. عن يارا. تصور لا أريد أن أتصل بها بالتلفون لأن وجهها يلازمني ليل نهار. هو الآن أمامي في الفضاء فوق شارع المكس. سأموت حتى أراها يا أستاذ.

سكت عيسى ولم يعلق. ضم الجريدة التي كان يتصفحها ووضعها بينهما على المنضدة. نادى على الجرسون طالبا شايا بالحليب لنادر وقال:

- أكيد لم تتناول إفطارك. الساعة التاسعة والنصف.

قال نادر سعيدا:

- أمي أعدت لي صينية سمك أكلتها كلها. ذكرتني بالأيام الجميلة.

سأشرب شايا دون حليب. المهم دعني أسمع منك. أريد أن أسمع الكثير يا أستاذ.

بدا عيسى مرتبكا لحظة ثم ابتسم وقال:

- نوال للأسف تركت الإسكندرية.

اندهش نادر واتسعت عيناه. إنه حتى لم يسأل عنها. لكن الخبر غير السار يؤلمه حقا. واستمر عيسى:

- أنت تعرف إنها كانت تستعد لذلك من زمان. قبل انتفاضة يناير. احترق الملهى في الانتفاضة فباعته وغادرت إلى باريس.

لم يرد نادر. أحس لأول مرة بنوال. لقد ضاع منه حقا شيء جميل. وأحس بالضيق يحاصره، لكن عيسى استمر يتحدث:

- كان من الصعب أن تنتظرك. حين احترق الملهى قالت إن هذه اللحظة التي دبرها القدر. باعته لرجل أعمال لايعرف أحد من أين جاء بالمال. قال إنه سيحوله إلى ناطحة سحاب أمريكية، ولايزال الملهى مغلقا.

قال نادر في ألم:

ـ كم كنت أود أن أراها حتى أودعها.

قال عيسى فجأة:

ـ هل كنت تحبها يا نادر؟

سكت نادر لحظات ثم قال:

ـ لا أعرف. أعرف جيدا أني أحب يارا. وجه يارا هو الذي يمشي معي. لكن أكذب عليك إذا قلت إني لم أحب نوال.

ـ هي كانت تحبك. كانت تجد فيك ما يعيدها إلى أحبائها القدامى.

ـ أعرف ذلك. كنت أشفق عليها أحيانا، لكني كنت أجد راحة كبيرة معها، وأصبح أكثر قوة.

ـ الأستاذ المصري الذي قابلته في باريس غيّر حياتها، خاصة أنه من نفس المكان الذي ولدت وعاشت فيه. لقاء لاتصنعه إلا الأقدار. هو متزوج، لذلك أفكر دائما أنها ذهبت لتعيش قريبا من حبيبها الحقيقي الذي هجرها بعد أن خرج من المعتقل.

ـ أذكر أنها قالت لي إنه متزوج هناك أيضا.

ـ ولو. هناك محبون يكتفون برائحة المكان الذي يمر به الحبيب. الشعر العربي القديم كله كذلك. الدكتور رشدي ليس إلا حجة للانتقال إلى فضاء الحبيب الأول.

قال عيسى ذلك وابتسم ساخرا فشعر نادر بشيء من الغيظ. ثم انتبه فجأة إلى سؤاله القديم:

ـ لماذا لا تحدثني عن يارا يا أستاذ؟

لكن عيسى قال:

ـ على أي حال نوال تركت لك معي خطابا. بيتي هنا قريب. يمكن أن أنهض لأحضره لك أو تأتي معي. إنك لم تدخل بيتي أبدا.

كان الجرسون قد عاد ووضع كوب الشاي وكوب الماء أمام نادر.

قال عيسى من جديد:

ـ ما يدهشني أن أحمد حبيبها الأول هذا كان شخصا مثاليا في المعتقل. أحبه الجميع. وما أكثر ما كان يتحدث عن نوال وشوقه لها، وكيف ورطها في الخلية الشيوعية لأنه كان يحب صوتها ويحبها. لكن ما إن خرج حتى غادر مصر كلها، كأنه كان يتكلم عن امرأة من خيال. بالمناسبة لقد أخذت معها ديوان عصمت مفتاح. قالت إنها ستجد له طريقة للنشر خارج البلاد. إنها تعتذر لأنها لم تتركه لك.

سكتا قليلا وبدا نادر شديد الشرود. أشار عيسى سلماوي إلى الشاي وقال:

ـ اشرب الشاي.

ـ سأشرب ولكن.

ـ لا تقلق. يارا بخير.

قال نادر:

ـ إذن سأراها اليوم. أو ربما غدا مادام لا يوجد امتحان اليوم.

سكت عيسى لحظة وقال:

ـ الامتحانات صباحية، وهذا يوم المادة قبل الأخيرة. اليوم مادة المنطق الحديث.

ارتبك نادر جدا. ابتسم ابتسامة صغيرة غير مصدق، ثم بدا الذهول على وجهه. نظر إلى عيسى والسؤال الذي يريد أن يسأله له لا يخرج من فمه. في الحقيقة هو لايعرف فيما يريد أن يسأل الآن. لقد اختلط عليه كل شيء. وقال عيسى:

ـ لقد قررت أرسب هذا العام، لذلك لم أحضر إلا مادة واحدة في بداية الامتحانات. أجل. لو ذهبت للامتحان سأنجح وسأفتقدكم العام القادم. ستكونون أنتم تعيدون السنة النهائية وأنا خارج الكلية. ثم أنني لن أجد كلية نظرية أخرى لأنتسب إليها.

لم يتذوق نادر طعم الشاي. وقف مرتبكا وقال في توتر شديد:

ـ لابد أن ألحق يارا.

وأسرع دون كلام ووداع. لم ينتبه إلى أن هناك رسالة له مع عيسى من نوال. لم ينتظر ليأخذها.

* * *

جلس حسن وكاريمان وبشر في مقهى والي صامتين. لقد اتصل حسن ببشر بالتلفون فلحق بهما هناك. كان حزن كاريمان يجعل حسن يشعر بالعجز الشديد.

فوجئ بشر بكاريمان وما آلت إليه. بدا مرتبكا. أراد حسن أن يتكلم، فلم يجد شيئا يقوله غير ما جرى لمحمد شكر أمامهما في الكلية مع فوقية. المدهش أنهما رأيا بشر أكثر سمنة. ويبدو أنه أدرك ذلك من نظراتهما المندهشة إليه. قال باسما:

ـ كنت آكل من الغيظ كل شيء.

لكنهما لم يضحكا. قال بشر من جديد:

ـ ليست المشكلة فيما انتهت إليه قصة محمد شكر، لكن المشكلة أنها ملهاة حقيقية. يسكن معنا ثلاثة أسابيع ليسجن ستة أشهر.

هز حسن رأسه وقال:

ـ قل مأساة.

قال بشر:

ـ أحب ابنة وزير سابق فصار بالنسبة إليها وإلى عائلتها سجين سابق.

قال حسن متوترا:

ـ بعيدا عن محمد وفوقية. ماذا سنفعل مع نادر؟

لم يكن بشر يعرف شيئا بعد عن يارا. حكى له حسن ما شاهداه. بدا حزينا بجد. ضرب جبهته بيده أكثر من مرة وقال:

ـ لا أستطيع أن أصدق.

نزلت دمعة سريعة من كاريمان وقالت:

ـ أنا أعرف يارا أكثر منكم جميعا. يارا ستموت.

حطّ عليهم الصمت. راحت من جديد تجفف دموعها بمنديل صغير، لكن بشر قال فجأة لحسن:

ـ أين بتّ ليلتك؟ توقعت أن تخرج من السجن إلى المنصورة.

ارتبك حسن لحظة وقال:

ـ ذهبت إلى الشقة فوجدتها مغلقة. تركها أحمد باسم لصاحبها الذي نقل أشياءنا إلى شقة روايح وغادة وأغلقها. سيؤجرها مع بداية يوليو كمصيف.

ـ إذن قابلت روايح وغادة.

هز حسن رأسه وقال:

ـ كنت أتصور أنهما في العمل في الملهى، لكني وأنا صاعد إلى الشقة رأيت ضوء شقتهما من تحت الباب. نزلت أسألهما لماذا يوجد قفل على باب شقتنا. لم يتركاني. حكيا لي ماجرى. وعرفت منهما أن محمد شكر سبقني إلى هناك وعرف ما جرى أيضا، فترك أشياءه عندهم قائلا إنه سيأتي يوما ويؤخذها حين يجد مكانا جديدا. أنا أيضا فعلت ذلك لكني لم أعرف إلى أين أمضي ونحن في منتصف الليل فبت ليلتي في شقتهما. تركا لي غرفة وحدي.

طامنت كاريمان رأسها، وبدا على وجهها اليأس. أمسك بيدها وقال:

ـ لم يكن أمامي غير ذلك يا حبيبتي. لم اقترب منهما. بشر يعرف أني لم اقترب منهما أبدا من قبل. أنت أيضا تعرفين.

ثم حدّث بشر:

ـ لقد أخبراني أن نوال باعت الملهى، وأنها تركت لكل منهما مكافأة طيبة، فقط لأنهما صديقتان لنا، وأنهما سيتركان الشقة بعد شهر. ستنتقلان إلى الجنوب. هناك في النزهة كما قالتا. استأجرا محلا صغيرا هناك ـ ثم ابتسم ساخرا ـ ستبيعان ملابس للمحجبات.

كانت يد كاريمان لاتكف عن الارتعاش فأشعلت سيجارة جديدة.

قال حسن:

ـ كاريمان حبيبتي. لماذا كل هذه السجائر؟ أنت على الأقل لم تخسريني. أنا معك ياكاريمان وسنقاوم كل شيء. تذكري نادر وماجرى له واحمدي الله أننا معا. أرجوكِ حبيبتي كفّي عن التدخين على الأقل على هذا النحو.

قال بشر فجأة:

ـ لنحول الحديث. هل لديكما أي أخبار عن خليل؟

قال حسن:

ـ لا أخبار لدينا غير أنه لايزال هاربا.

قال بشر:

ـ إذن سأسافر إلى القاهرة. أعرف كيف أتصل بأحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب. لابد أن نناقش كيف سنعود للعمل. العمل هو الذي سينجينا من كل هذه الآلام. لابد أيضا أن نهيء عملا كبيرا لنادر الذي

سيعاني كثيرا حين يعرف بما جرى ليارا. العمل سيساعده كثيرا على النسيان.

قالت كاريمان في ذهول:

ـ لا يجب أن نترك نادر يُعرف الحقيقة بعيدا عنا. أخاف عليه.

قال بشر:

ـ أنا أعرف بيته وسأذهب إليه الليلة.

قال حسن:

ـ أخشى أن يكون فعل مثلنا وذهب إلى الكلية، وربما عرف كل شيء الآن.

ثم وقف وقال:

ـ آن الأوان للعودة إلى المنصورة. سأفكر هناك يا كاريمان فيما يمكن أن نفعله معا.

لم يكن بشر قد عرف شيئا مما جرى في بيت كاريمان فلم يجد ما يقوله، ولم يشأ يسألهما اختصارا للألم.

* * *

وقف نادر على الرصيف البعيد على الكورنيش ينظر إلى نافذة شقة يارا العالية المغلقة. خلفه شباك الصيد مرفوعة على الحوامل الخشبية منشورة للشمس والهواء، وعلى الرمال وفي الماء الفلائك الصغيرة التي عادت اليوم في الصباح وأفرغت حمولتها من السمك.

بعيدا في الماء لنشات صيد أكبر، ترتفع وتنخفض مع الموج الهادئ الرتيب، فيتسع ظلها في الماء وينحسر. قليل من الأطفال نزلوا إلى الماء بثيابهم الداخلية، يخرجون إلى الشاطئ الرملي يجرون خلف بعضهم ويقذفون بعضهم بالرمال ضاحكين. على سور الكورنيش المنخفض العريض يجلس الكثيرون حول نادر، أمامهم باعة الذرة المشوية وفواكه البحر والفريسكا والحلوى الشعبية وأكثر من عربة آيس كريم. نادر لايشعر بذلك كله. يسمع فقط صوت الموج الهادئ خلفه، ولا يشعرحتى بالهواء المنعش الذي يصل إلى ظهره! النافذة العالية في المبنى لاتنفتح. فقط النخيل الملكي بين نهري الشارع يتحرك مع الهواء، والسيارات ترمح في الاتجاهين.

أكثر من ثلاث ساعات قضاها نادر في مكانه هذا. يمشي يمينا ويسارا أحيانا، ثم يعود يجلس في مكانه الذي لم يشغله أحد، كأن الناس جميعا يعرفون أنه ينتظر أن تفتح النافذة وتطل منها حبيبته.

الجالسون حوله والعابرون أمامه يتغيرون، وهو لايترك مكانه. وإذا تركه لايجلسون عليه، حتى أقبل الليل.

أضيء النور خلف النافذة ولم تفتح. ترك المكان متعبا ومشى في اتجاه المنشية ثم محطة الرمل. ظل يمشي على الرصيف تحت العمارات أمام الجالسين أمام المقاهي الذين بدءوا يزدادون. لقد دخل الصيف حقا والناس تهجر بيوتها إلا يارا. عبر أتينيوس وعبر الأجلون وعبر مسرح كوتة بالأزاريطة وعبر ملهى عطيات حسين الذي صار مغلقا! عبر منطقة الشاطبي حتى وصل إلى سيدي جابر. أكثر الملاهي عليها لافتات مغلقة للتحسينات. تستعد للصيف ربما.

لكن لايزال كثير منها موجودا. فقد سأل نفسه إلى أين هو ذاهب حقا؟ وكان قد وصل إلى نوال بوط فوجد آثار الحريق لاتزال هبابا أسود على جدرانه، وبابه الخشبي الكبير مغلق، وعليه عمودان من الحديد مثبتان كحرف إكس يؤكدان على إغلاقه. اللافتة الكبيرة لم تعد مضاءة، لكن الاسم واضح في الظلام «نوال بوط». أدرك أنه جاء هنا ليقابل نوال. أجل. هي التي كان يمكنها أن تسمعه اليوم. لكنه أخذ طريقه عائدا. لايزال لايصدق ما عرفه بعد أن وصل إلى الكلية. لقد وصل بعد أن تركها حسن وكاريمان ومحمد شكر ويارا. عرف من الجرسون في الكافتريا أن أصحابه كانوا هنا، ولما سأله عمن يقصد قال مبتسما: «كل الذين كانوا معاك في السجن» ودعا له «ربنا هيكرمكم يا شباب».

عرف منه ما جرى ليارا. وأن رجلا كان معها يقولون إنه زوجها، هو الذي حملها إلى الكافتريا. ثم قال له «لا أصدق أنه زوجها لأنه أكبر منها بكثير. لكنه يبدو محترم». ثم قال آسفا كمن يعرف كل شيء «هو دا حال الدنيا يا أستاذ نادر. خد بالك من نفسك».

قطع المسافة بين الكلية إلى بيت يارا في زمن لايدركه. دقائق أوساعات. لايعرف. لا يذكر حتى إذا كان قد جرى إلى هناك أم استقل تاكسي أم مشى حزينا. لم يأكل شيئا حتى الآن. كل من حوله يضحكون ويتحدثون ويسرعون في المشي، وقد ارتدوا ملابس الصيف التي تعلن عن فرحتهم باتساع الفضاء. يفتحون أفواههم وصدورهم وعيونهم لهواء البحر. لايعرفون أنه حزين. ولما وصل إلى لسان السلسلة الذي لايسمح لأحد بالتوغل فيه، ولايزال منطقة

عسكرية، رأى كل الجالسين على سور الكورنيش، أو يمشون على الرصيف أمامه شبابا وبناتا. يحيط الشباب بالبنات ويأكلون الفول السوداني أو الآيس كريم أو يقزقزون اللب، وأكثر من بائع مثلجات يمشي بينهم حاملا جردلا به زجاجات المياه الغازية، ويدق بالفتاحة المعدنية على حافته.

جلس بعيدا ينظر إلى تمثال عروس البحر. هل كانت أوروبا حقا تستحق أن يقطع زيوس من أجلها هذه الرحلة من فوق الأوليمب؟ لابد. هكذا حدثهم عيسى سلماوي. أجل. هي فتنة النساء حتى للآلهة. فمابالك إذا كانت مثل أوروبا أو يارا.أجل وإلا ما انقضى اليوم يبحث عن خبر يقين عنها.وما انقضت الشهور ووجهها لا يفارق عينيه في الزنزانة. لا يملك قدرة زيوس على التخفي ليفوز بها. يارا. أوربا. يارا. يارا أكثر رقة. يارا..لارا. لارا التي أحبها دكتور زيفاجو. ياإلهي. كيف قفزت الرواية إليه الآن. هل هو في جليد روسيا ويمشي بين بلادها البعيدة؟ خنقه الضيق. فكرة أن يارا ستضيع إلى الأبد لايجب أن يستسلم لها. كل ما سمعه اليوم كذب. كان عليه أن يلح على عيسى سلماوي ليعرف شيئا. عيسى كان يناور ولايتحدث عن يارا. إذن ما سمعه من الجرسون صحيح.

طلبها في التلفون أكثر من مرة. ضاعت من رأسه فكرة أن يراها وأن تراه فجأة. يريد صوتها الآن. لم يرد عليه أحد. ربما يكونون في شاطئ ستانلي كما يفعلون كل صيف. أجل. حدث هذا العام الماضي. إذن هذا هو السبب. يارا موجودة تنتظره هناك. والامتحانات لم تنته بعد. إذن ستأتي بعد غد من أجل المادة الأخيرة. سيذهب إليها في

الكلية من جديد. كيف نسي ذلك حقا طول النهار وما انقضى من الليل؟ أراد أن يزداد تفاؤلا. اشترى كوز دره وأخذ يأكله على مهل وهو يمشي شاردا. في لحظة أحس أنه غير قادر على استمرار الأكل. ترك نصف الكوز على سور الكورنيش ومشى. لقد وصل من جديد إلى الأنفوشي، هو الذي كان قد قرر التفاؤل منذ قليل!

وجد مكانه شاغرا كما هو! الناس في ازدياد. أضواء الكورنيش تزيح الظلمة. الموج يزداد توترا وهديرا. أضواء النادي اليوناني ونادي اليخت خلفه تكسر الظلام فوق البحر. نافذة شقة يارا لاتزال مغلقة والنور من خلفها. الناس بدأت تقل أعدادها. مضى وقت طويل حقا. الفلائك فوق الرمال صارت قليلة جدا. أكثرها أخذها أصحابها وذهبوا للصيد. كذلك اللنشات التي كانت كثيرة بالنهار. لا أطفال يلعبون وسط الظلام. فقط رجل أسود ضخم الجسد يسبح في الماء. كيف يرى هذا الرجل حقا وسط الظلام؟ شيئا فشيئا صار نادر وحيدا.

- حبيبي.

مدت يديها ومد لها يديه فأوقفته وأخذته في حضنها. ترتدي يارا ثوب زفاف أبيض يكشف عن صدرها الذي فتحته له ليخبئ رأسه فيه وأغلقت أزرار الثوب عليه وهو يمشي بيده على ظهرها ثم استلقى بها فوق الرمال وراح يقبل يديها وقد فتح ثوبها كله من الأمام وصار يمشي بشفتيه على جسدها حتى إذا وصل إلى وجهها لم يجدها بين يديه.

اهتز وكاد يسقط من فوق سور الكورنيش إلى الرمال القريبة خلفه. لقد نام وهو جالس وأخذته الأحلام في غمضة عين. كان يرى وجه

يارا حقيقيا في فضاء الزنزانة وفضاء الطريق، والآن لايراه أمامه. حتى في الحلم اختفى ورأى جسدها فقط.

كانت خيوط الفجر تتهادى إلى الفضاء، وارتفع الآذان من مسجد المرسي أبي العباس، وبدأ الرجال يخرجون من الشوارع الجانبية إلى الكورنيش فرادى شاردين، كأنهم قادمون من أزقة تاريخية قديمة، ومن بلاد لايعرفها، وراحت أمواج البحرتهدأ وينخفض صوتها، حتى ظن أن البحر قد ضاعت أنفاسه. كيف حقا فعل بنفسه ذلك؟ ماذا يمكن أن يكون قد جرى في بيته الآن ومع أسرته؟ كيف استقبل أبوه وأمه وأخيه الصغير غيابه هذا وهوالعائد من السجن؟

بدأت الزوارق تعود إلى الشاطئ مع الصباح. الناس تزداد في الطريق، وهو يمشي في اتجاه قصر رأس التين. انحنى داخلا في شارع البحرية يمشي مع الترام، في منطقة يعرف أنها تعج بالمحلات الخاصة بأعمال البحر. الناس تزداد من حوله وهو يمشي. يرى البيوت القديمة في كوم الناضورة تظهر فيها النساء في البلكونات. محلات الحبال والخردة والخيام تفتح أبوابها. أصوات تستقبل اليوم بالدعاء. مسافة كبيرة قطعها والدنيا تستيقظ من حوله فتية قوية، وهو يمشي شاردا يشعر أنه في إسكندرية قديمة لم يعرفها بعد البشر.

وصل إلى حي ميناء البصل. عند تقاطع شارع السبع بنات بشارع الخديوي بشارع المكس توقف. وجد الترام قادما من المنشية فركبه. سيصل به إلى المكس. اليوم راحة يارا وغدا الامتحان. سيذهب إليها غدا وما كان له أن يمضي اليوم والليل حقا في فراغ وعدم.

ما إن فتحت أمه الباب حتى وجدته أمامها يكاد يقع من التعب.

ـ ابني.

أخذته في حضنها فجلس على أقرب مقعد. خرج أخوه من حجرته بسرعة، ما إن رآه حتى وقف على باب الغرفة يبكي ويقول:

ـ ماما طول الليل تبكي وبابا راح الشغل من غير ما ينام.

ثم تقدم إليه فأخذه في حضنه يربت على ظهره ويقبله وقال للأم:

ـ سامحيني يا ماما. أمضيت الليل سهران مع بشر على البحر في المنشية. لم أقابله منذ ستة أشهر.

قالت له وهي تمسح دموعها:

ـ لماذا تكذب عليّ يا نادر؟ بشر كان هنا أمس في المساء. جاء يسأل عنك.

ارتبك كثيرا وسكت لحظات ثم قال متعبا:

ـ سأحكي لك كل شيء فيما بعد. الآن أريد أن أنام.

قالت في هدوء:

ـ بشر حكى لي كل شيء. اتركها يا ابني تعيش حياتها. قادر ربنا أن يضع في طريقك أفضل منها.

اندفع يبكي واضعا رأسه في صدرها قائلا.

ـ ماذا فعلت ليحرمني الله من أجمل ما أعطاني؟

-١٠-

صيف اتسعت فيه الدنيا أكثر من كل صيف. لم يكن يرى أحدا حوله أو أمامه. لماذا خلقه الله وحده وسط كل هذا الفراغ والعدم! حتى داخل الأوتوبيس كان نادر يشعر بذلك.

لقد ذهب اليوم الأخير للامتحان، في روحه تصميم وفي قلبه يقين أن يقابل يارا. ظل يمشي أمام مدرج العبادي، لايدخل إلى الكافتريا حتى لاتضيع منه فرصة لقائها، وكل من يخرج مبكرا ينظر إليه، طالبا أو طالبة من زملائه، فيغمض عينيه كي لايتحدث أحد معه، حتى خرجت يارا. يارا وليس أحدا غيرها. يارا الآن وسط الدنيا وحدها أمامه. انزاحت كل البنايات التي حوله، وطار الناس جميعا في الهواء، وها هي تتألق عيناها بالابتسام، وعليه أن يصل إليها قبل أن تطير محلقة في الفضاء مع العصافير والفراشات. لكن من خلفه تقدم الرجل الأربعيني الذي لم يره من قبل، وسبقه إليها وأحاطها بذراعيه وهو يقول:

ـ تعالي يا حبيبتي.انتهى الامتحان والحمد لله.

أخذها وأسرع بها يمر من جواره. لم يبد أنه انتبه إلى أحد، وهي

مشت معه لم تنظر إلى الخلف، وهو يقول لها «على مهلك» حين تباطأت ولم تعد قادرة على الإسراع معه.

ستسقط يارا مغشيا عليها الآن. هكذا عرف عنها. وهكذا تتواتر أنفاسه خوفا عليها. لكنها أمسكت بيد الرجل الأربعيني الأنيق ومشت تستند عليها. ظل واقفا لا يعرف ماذا يفعل. هل يصرخ يناديها؟

كانت قد اتجهت مع الرجل يسارا إلى باب الخروج من الكلية. عليه هو أن يتماسك. هو الذي لايستطيع الوقوف حقا الآن. لكنه أحس بمن يمسك به من ذراعه ويقول:

ـ خلاص يا نادر القصة انتهت.

نظر إليه. أحمد باسم. نفس جرمه القوي، لكن ذقنه طالت، والمسبحة لاتزال في يده.

ـ حمدا لله على السلامة.

قال أحمد ذلك أيضا. نظر إليه نادر في دهشة وألم. قال:

ـ أنت أيضا تعرف؟

ـ كلنا نعرف يا نادر.

ثم ضحك أحمد وقال:

ـ يا أخي أنت تتكلم كأنك كنت معي أمس. لقد وحشتني.

وأخذه في حضنه بينما نادر لايبدي أي انفعال. قال أحمد من جديد:

ـ تعال معي.

ـ إلى أين؟

ـ إلى جامع سيدي جابر. سنسمع درسا عظيما هو آخر ما سأسمعه في الإسكندرية ـ ثم ضحك بقوة ـ هذا إذا نجحت، وإن شاء الله سأنجح. لقد رأيت رؤيا جميلة تبشرني بذلك، رغم إنك لم تكن جواري في الامتحان لأغش منك.

لم يستطع نادر أن يقف معه أكثر من ذلك. أسرع متوهما أنه سيلحق بيارا والرجل الأربعيني. في شارع بورسعيد لم ير شيئا.

لابد أنهما ركبا سيارة أخذت طريقها من شارع قناة السويس إلى شارع الإسكندرالأكبر إلى محطة الرمل ثم الأنفوشي.

أسرع يجري الخطوات القليلة إلى شارع قناة السويس، ونظر يمينا فلم يجد شيئا. إنه حتى لايعرف نوع السيارة التي يمكن أن يستقلاها. ليس أمامه إلا الصمت، والشمس تملأ الفضاء حوله، وحرارتها فوق رأسه. لايذكر في الإسكندرية الآن إلا بيته في المكس يمارس صمته فيه، وأمه تنظر إليه، وتسقط دمعة سريعة من عينها فيختفي من أمامها ويدخل حجرته، يفتح كتبا لايقرأها، يكتب شعرا يمزقه. لقد نسي الآن كل ما كتبه من شعر في السجن. نسي عهده لنفسه أن يقوم بتدوينه من جديد.

لكن لم يكن ممكنا البقاء في البيت طول الوقت، ولأن الوقت إجازة آخر العام فلا طلاب في الإعدادي أوالثانوي يعطيهم دروسا خصوصية، فصار يخرج إلى الشاطئ يجلس على صخوره، يرى

السفن البعيدة قادمة إلى الإسكندرية، والسفن الراحلة من بعيد أيضا. كل هذه السفن لابد تركت وراءها قصصا للفراق والألم.

أمامه مباشرة المصطافون الفقراء، والعربجية مع خيولهم وحميرهم، وعلى يمينه الفنارالقديم والكبائن الصغيرة الخشبية، التي إذا عبر بينها وجد أصحابها المصريين الآن عجائز يجلسون أمامها. طيور النورس قليلة لكنها لاتكف عن الحركة والدوران في الفضاء، والهبوط السريع إلى الماء لتصعد بشيء من الأسماك الصغيرة في فمها. يعرف ذلك وإن لم يره.

لماذا حقا لايلتقي ببشر؟ بشرلم يأت إليه مرة أخرى. ربما ليعطيه فرصة أن يحزن ويتأمل وتصفو روحه وحده. هو يتذكر بشر الآن وكاريمان وحسن. لم يرهم جميعا بعد أن خرجوا من السجن. يعرف رقم تلفون بيت كاريمان. يعرف رقم تلفون بيت بشر. يعرف رقم تلفون بيت يارا. ستقول له كاريمان ما سيقوله بشر، أن يتجلد وينسى. يارا لن ترد عليه. لايجب له أن يظهر في حياتها مرة أخرى. يارا لن تتحمل. نوال التي كان ممكنا أن يلقي نفسه في حضنها صارت سرابا. كل شيء حوله صار خرابا. الإسكندرية خراب. وخراب أينما يذهب. يتذكر كفافيس بعد أن ابتعد عن الإسكندرية حين دخلها الإنجليز عام ١٨٨٢، وغادرت أسرته إلى إستانبول، وشوقه إلى المدينة التي تركها خلفه خرابا من الحرب، والخراب الذي رآه هو في كل ما حوله وإن لم يكن خرابا. عاد كفافيس وأسرته إلى الإسكندرية التي لايستطيع أن يفارقها، لكن هوعليه أن يترك الإسكندرية الآن. الإسكندرية صارت خرابا دون حرب. الدنيا التي كانت معه صارت وراءه. القاهرة مصير

الأدباء والفنانين والسياسيين. الآن فرصته ولايجب أن يأسى على مافات. لكنه يمط شفتيه يلوم نفسه. يلوم حماقته. يارا ستمشي معه أينما ذهب. وسيمشي معه الخراب!

يعود إلى بيته، يأكل متظاهرا بالفرح بما تعده أمه من طعام، حتى ابتسمت مرة أخرى وهي تضع بيديها قطعة شوكولاته في فمه. كان قد انتهى من العشاء ودخل غرفته. قالت:

ـ أعرف أنك غير قادر على النسيان. لكن أعرف أيضا أن الزمن يداوي كل شيء، لذلك أسكت مطمئنة.

نظر إليها بحب شديد. همست له:

ـ سأحكي لك شيئا لا تعرفه. أنا كنت في شبابي أحب شابا جميلا في الدخيلة. من عائلة غنية. عائلة الروبي المشهورة هناك. طبعا تسمع عنهم. وقفت عائلته بيننا. تركني من أجل العائلة.

نظر إليها مندهشا وابتسم. قالت:

ـ الحمد لله أنك ابتسمت. تقدم أبوك لخطبتي في لحظة كانت فيها الدنيا كلها مظلمة. سواد في سواد. استسلمت. تزوجته وأنا لا أعرف ماذا أفعل. لكن كلما نظرت إليك وإلى أخيك أحمد الله. لقد أعطاني الله أكثر مما كنت أتوقع. أقول لم يكن ممكنا أن يكون لي ولدان جميلان إلا من هذا الرجل الطيب.

ضحك. بالفعل ضحك. قالت سعيدة:

ـ مرة قابلت حبيبي الأول هذا صدفة في المنشية. صافحته

ضاحكة. لم أشعر أبدا بشيء يتحرك في قلبي. أحسست حين قابلته أن القصة انتهت. صدقني يا نادر. هكذا قصص الحب.

صار ينظر إليها بدهشة واستمرت تتحدث:

ـ سيأتي يوم تقابلها وتشعر أن ما جرى كله كان حلما وانقضى. هو فقط الحب الأول جرحه عميق لكن دائما ينتهي.

أمسك بيديها يقبلهما، فوجدها قد شردت قليلا وتقول كأنها تحدث نفسها:

ـ لكن اسمها حلو. يارا.

وكأنما استدركت فقالت:

ـ لكن الحب ليس بالأسماء.

كان هو يفكر في اعتراف أمه العجيب هذا. قال:

ـ أنا أعرف أن الزمن يعالج كل شيء، لكن أفكر فيها هي. هل ستتحمل؟ يارا رقيقة جدا. لابد أن ماجرى كان على غير إرادتها. لقد فقدت الكثير من وزنها. صارت يغمى عليها في أي وقت.

ـ في لحظة معينة ستظهر المقاومة. سيرفض الجسد الضعف. صدقني أنا غير المتعلمة، وستمضي الحياة.

نظر إليها بدهشة كبيرة. بدا كلامها جميلا جدا ومقنعا. وسألته:

ـ لماذا لايزورك بشر الآن؟

لم يرد.

ـ إذن اذهب أنت إليه. انشغل معه فيما كنتم تنشغلون. السياسة لا تقتل. الحب هو الذي يقتل.

زادت دهشته أكثر. أخذ رأس أمه إلى صدره وقبلها.

ـ سأقرأ أو أكتب الليلة.

قالت في حسم:

ـ غدا منذ الصباح الباكر تذهب إلى بشر.

لدهشته نام مبكرا، ولدهشته استيقظ مبكرا، وأخذ طريقه إلى بشر في باكوس. بدأ ينتبه إلى ما حوله، خاصة حين دخل إلى شارع السوق، ورأى أمامه باعة الخضر والفاكهة والأسماك. الحي يحمل اسم أحد رجال الأعمال من اليونانيين زمان في الإسكندرية. ويحمل أيضا اسم إله الخمر عند اليونانيين، ولا يعرف ذلك أحد من هؤلاء المتعبين الذين يبيعون أو يشترون.

قال له بشر بعد أن غادرا بيته.

ـ مارأيك في زيارة مجنونة؟

ـ زيارة من؟

ـ روايح وغادة. لقد تركنا الشقة وأغلقها صاحبها لكنهما في شقتهما. لاتتردد. سوف تنسى، وأنا ساتخلص من الغيظ.

قال مندهشا:

ـ وماذا يغيظك؟

قال بشر حاسما:

ـ إنك لاتنسى.

ضحكا. أخذا طريقهما إلى شارع تانيس. نادر يشعر أن هذه ستكون الزيارة الأخيرة للشارع. لايفكر أبدا فيما يفكر فيه بشر. لكن لابأس أن يطل معه عليهما.

وقف نادر في الصالة مندهشا وهو يرى روايح تندفع في البكاء وتقول:

ـ لا أصدق نفسي. أنت لست سي نادر. أنت خاسس جدا. ماذا فعلوا بكم ولاد الحرام في السجن؟

قال مبتسما:

ـ أنا بخير.

قالت غادة:

ـ والله فيكما الخير. تزورانا وتسألان عنا. سنترك الشقة خلال أيام.

وقالت روايح باسمة وهي تقدم إليهما الشاي:

ـ ماذا بينك وبين مدام نوال يا سي نادر.

كان بشر لا يفتأ ينظر إلى جسديهما. ترتدي كل منهما جلبابا خفيفا يكشف عن ذراعيها وكتفيها وينتهي عند الركبة. جلبابا شفافا يشف عن الكومبليزون الصغير الأسود تحته.

ابتسم نادر ولم يرد. قالت:

ـ رأيتها تعطي رجلا اسمه عيسى خطابا وتقول له أن يعطيه لك بعد خروجك من السجن. رأيت دمعا في عينيها.

قال بشر وهو يحوطها بذراعه:

ـ لاتقلبي المواجع يا روايح. جئنا هنا لننسى.

قالت غادة:

ـ هل ستزورانا في مكاننا الجديد في النزهة؟ سأعطيكما العنوان. عنوان الشقة وعنوان المحل.

قال بشر:

ـ هل حقا ستبيعان ملابس محجبات؟

قالت روايح ضاحكة:

ـ رغم أني لا أعرف ماذا تعني ملابس المحجبات، لكن الناس تقول إن هذه هي بضاعة السنين القادمة. المهم أن لا نضطر لبيع الملابس الداخلية!

ضحك بشر وابتسم نادر فقالت غادة:

ـ اسمها لانجيري ياروايح. قلت لك ميت مرة. خليكي ليدي بأه إحنا داخلين على شغل تقيل.

ابتسم بشر ونادر فاستطردت غادة:

ـ أجل. هناك محل كبير آخر فتح لملابس المحجبات، لكن في شارع النبي دانيال. هل سيقدر محلنا الصغير على المنافسة؟ ربنا يستر فعلا ولا نضطر لبيع اللانجيري.

وقالت روايح فجأة:

ـ صحيح يا سي نادر. من النبي دانيال هذا؟ هل هناك صحيح نبي اسمه دانيال؟

ضحك بشر بقوة، وابتسم نادر، فقالت غادة:

ـ أنا لا أعرف إلا دانيال محصل الكهرباء الذي يأتي كل شهر.

إزدادت انطلاق بشر في الضحك، وضحك نادر هذه المرة.

قالت روايح وقد تهللت عيناها:

ـ الحمد لله. ضحكت يا سي نادر. كان ظاهر على وجهك أن همّك ثقيل.

قبّلها نادر على خدها ووقف:

ـ فعلا الحمد لله لأننا اطمأننا عليكما. أتمنى لكما حياة أجمل في النزهة.

نظر إليه بشر في غيظ. لاحظت غادة ذلك فقالت:

ـ لامؤاخذة يا سي بشر. أنا عندي الدورة وكذلك روايح.

قالت روايح:

ـ لماذا تقولين ذلك؟ قولي الحقيقة. سنبدأ حياة جديدة يا سي بشر. هل تأخذ على خاطرك منا؟

نظر إليهما بشر. بدا متأثرا بحق. وقف وقال:

ـ لا طبعا.

وقبّل كل منهما.

خرجا. ما إن وصلا إلى أسفل حتى طلت عليهما روايح من النافذة وهتفت:

ـ لم تأخذا عنواننا الجديد.

قال بشر:

ـ سنأتي مرة أخرى غدا.

ومشى مسرعا مع نادر في الشارع الخالي.

ـ مسكينتان. صدقتا أننا سنزورهما في مكانهما الجديد.

قال بشر هذا ولم يرد نادر، الذي بدا قد دخل في صمت طال لحظات، حتى خرجا من شارع سانت جابرييل الجانبي إلى الكورنيش.

واجها هواء البحر، وشمس النهار القوية. وقف نادر فوقف بشر ينظر إليه ثم قال:

ـ عجيبة حقا هذه الدنيا. تصور أني الآن أشعر أني كنت أحبهما جدا.بل وأشعر أنهما صادقتان تريدان حياة نظيفة حقا.

ابتسم نادر فقال بشر من جديد:

ـ الحمد لله. لقد ابتسمت ومنذ قليل كنت تضحك. إذن هناك أمل.

قال نادر:

ـ أريد أن أسمع القصة من يارا. لو سمعتها منها انتهى كل شيء.

نظر إليه بشر مندهشا للغاية وقال:

ـ أنت مجنون. تعال معي إلى مقهى «والي» ربما نجد كاريمان. ومن يدري ربما يظهر خليل فجأة من مخبئه؟

قال نادر:

ـ هل تعرف مخبئه ولاندري؟

ـ أنا كنت مسجونا أيضا. هل نسيت؟ تعال معي حتى أحكِ لك ما جرى لكاريمان. إني خائف عليها جدا.

ـ سأذهب إلى شاطئ ستانلي الآن. لابد أن أجد يارا. لابد أن أسمع منها.

ـ أنت مجنون.

ـ أرجوك يا بشر. دعني الآن.

ـ ما الذي حدث فجأة. طيب. سآتي معك. لن أتركك رغم أني أعرف أنك لن تصل إلى شيء. حتى لو قابلتها لن تتكلم معك. فقط ستكون سببا في إرباك حياتها الجديدة.

لكن نادر أشار إلى تاكسي توقف فركباه.

في شاطئ ستانلي صار هو وبشر يمشيان بين المصطافين الجالسين تحت الشماسي والمستلقين على الأرض. المايوهات العادية والبكيني حولهما يتأمل بشر أصحابها في حسرة ويقول لنفسه، كل هذه النساء ويبحث نادرعن يارا. حول بائع الآيس كريم

أطفال ونساء وفتيات. وأمام الكبائن يجلس أصحابها. بشر لا ترتفع عينيه عن النساء، وكذلك نادر، لكن نادر يبحث عن يارا. صعدا إلى الدور الأعلى والدور الذي فوقه من الكبائن يمشيان أمامها وأصحابها ينظرون إليهما في ارتباك. قال بشر:

ـ لاأحد يرتدي ثيابه كاملة غيرنا، حتى العواجيز الجالسين على المقاعد على الشاطئ وأمام الكبائن يرتدون الشورتات. منظرنا مريب وربنا يستر.

نادر لا يرد. لأكثر من ساعة يمشيان ولم يعثرا على يارا. تركا الشاطئ فقال بشر:

ـ لابد أن تعرف تفاصيل القصة لترتاح وتكف عن البحث عنها. لابد أن نجلس في المقهى. هناك سأحكي لك ما لم أقله من قبل.

ترك نادر نفسه لبشر. في مقهى والي الواسعة أخذ بشر يتكلم. وحولهما ضجيج اللاعبين للطاولة، وأطفال المصطافين يأكلون الآيس كريم ويجرون بين المقاعد، والهواء القادم من مراوح السقف والجدران يحيط بالجميع.

ـ يارا لم تتركك. يارا تكالبت عليها العائلة. الرجل الذي تزوجته في عمر أبيها. هو نفسه الذي حقق معها في النيابة يوم القبض عليها وهو الذي أفرج عنها.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ من عيسى سلماوي. حكت له يارا كل شيء وكانت تبكي. طلبت مشورته فلم يقدم لها أي مشورة. لم يستطع كعادته.

ـ هل قابلت عيسى؟

ـ أجل. منذ يومين في أتينيوس. الحقيقة قابلته أمام فرشة عم السيد بائع الكتب. هو الذي أخذني إلى أتينيوس. قال لي إنه لم يستطع أن يخبرك حتى لاتكرهه، وبالمناسبة هو يريدك أن تمر عليه في أي صباح بمقهى خفاجي لتأخذ الخطاب الذي تركته لك نوال.

سكت نادر وهو يشعر باليأس. فقال بشر:

ـ ماجرى لك أهون مما جرى لكاريمان.

وحكى له ماجرى لها ثم قال:

ـ كاريمان الآن لاتجد مكانا تنام فيه إلا صالة الشقة. لقد سافرت أنا إلى حسن بالمنصورة. حسن قرر أن يعيش في القاهرة ويأتي نهاية العام الدراسي القادم ليؤدي الامتحانات. سيعتمد عليّ في متابعة الدروس وإخباره بما هو مقرر علينا، وما هو غير مقرر. الأساتذة لن يغيروا ما يقررونه، هذه عادتهم، ومقرر العام الدراسي القادم لن يختلف عن هذا العام. قلت له صراحة أن يتزوج كاريمان ويأخذها معه إلى القاهرة.

نظر إليه نادر في دهشة فقال بشر:

ـ في القاهرة سيبدأ حياته ككاتب قصة ومسرح. سيشق طريقه في الحياة الأدبية. وهي معه يمكن أن يعملا في الصحافة الحرة. في القاهرة مكاتب للصحف العربية بها كثير من الشباب الذي لايجد فرصة في الصحافة الحكومية. المهم يكافحان معا.

ـ وماذا قال لك؟

ـ لم يعلق. سكت.

وسكت بشر لحظات حتى قال:

ـ يبدو أنه تغير في السجن ولاندري.

سكتا معا لحظات طالت قليلا حتى عاد بشر يقول:

ـ أنت أيضا لو سافرت إلى القاهرة سيكون هذا علاجا لك. وبصراحة أفضل نصيحة في مثل هذه الحالات أن تنقل على بنت أخرى.

ـ ماذا تقصد.

ـ البنات كثير. انقل على بنت أخرى تنسى بها يارا ثم اتركها.

نظر إليه نادر في دهشة ثم ابتسم وهز رأسه فقال بشر:

ـ هكذا يفعل كل المحبطين في الحب.

ـ وإذا تعلقت بي البنت الأخرى؟

ـ عادي جدا. الحياة كلها قصص مؤلمة. ثم تستطيع أن تتركها قبل أن تتعلق بك بقوة. وأنا يمكن أن أرشح لك واحدة.

كان نادر مذهولا من حديث بشر الذي قال:

ـ ما رأيك في وفاء؟

ارتبك نادر وسأله:

ـ هل تعرفها؟

ـ طبعا. أنا أذهب إلى القاهرة ولا أخبركم. قابلتها مرة. حدثتني عنك حديثا جميلا. يعني الطريق ممهد.

ـ أنت مجنون.

هتف نادر وهو يهز رأسه في دهشة وغيظ فقال بشر:

ـ إذن إمضِ بقية عمرك تبكي على اللبن المسكوب.

شملهما الصمت لحظات لا يصدق فيها نادر ما سمعه حتى قال بشر من جديد ضاحكا.

ـ أو اذهب إلى نوال في فرنسا.

ثم ضحك من جديد وقال:

ـ يعني شاعر مثلك أمامه فتاة جميلة في القاهرة، وسيدة جميلة في فرنسا، ويبكي على حب ضاع في الإسكندرية. أنت ستجنني.

وقف نادر وقال بهدوء:

ـ أمضيت معك وقتا جميلا يا بشر. الأفضل أن أعود إلى البيت.

* * *

غريب أن يشعر الإنسان أنه يريد أن يمر برأسه من وسط حائط أمامه لايراه. إلى ذلك كان ينتهي شرود نادر وهو ينظر إلى لاشيء ويهز رأسه في أسف.

وجد أن الخروج والمشي في الطرقات هو الحل. في المنشية ومحطة الرمل. ووجد نفسه يقف أمام محلات الملابس الحريمي،

ويقف أمام الكافتريات الشهيرة. يدخلها ويخرج منها. في لحظة فكر أنه يمشي في الإسكندرية التي حدثهم عنها عيسى سلماوي كثيرا. ابتسم ساخرا. هو يعرف أنه يبحث عن يارا. دخل إيليت وبستارودس وإستريا وسانتا لوتشيا وديليس وشي جابي. فكر لحظة أن الرجل الأربعيني الأنيق يمكن أن يكون من رواد النادي السوري، وهو النادي الأرستقراطي كما يشاع عنه في المدينة. ذهب وعلى باب النادي سأله رجل الأمن ما إذا كان عضوا أم لا. ارتبك ثم قال لا، فهز الرجل رأسه آسفا.

فكر مرة أن هذا الرجل الأربعيني قد يصحبها إلى غداء فاخر في سي جل.

وفكر مرة لماذا حقا لا يزور مطاعم بحري والأنفوشي. ثم فكر لماذا لا يتخيل أنها تركت الأنفوشي مع زوجها إلى حي آخر يمكن جدا أن يكون من أحياء الرمل، أو في منطقة سموحة التي بدأت تزداد فيها العمارات. في لحظة من التعب فكر في عبث ما يفعله. قد تكون سافرت إلى أوربا تمضي الصيف مع زوجها، ما دام الرجل يبدو من علية القوم. لكنه ظل يخرج وفي كل يوم تقول له أمه ضاحكة:

ـ إياك تقول لأبيك عما حكيته لك.

يضحك ويقبل وجنتيها فتقول:

ـ ربنا يحميك ويصبرك يا ابني. إن شاء الله سيعوضك الله بأحلى منها.

إذن تعرف هذه الأم الطيبة رحلاته العقيمة، أو على الأقل تشعر بها.

قرأ في صحيفة الأهرام خبرا عن إغلاق مجلة الطليعة دون تفاصيل. شمله الغيظ. لابد أغلقها السادات للأبد باعتبارها مجلة الشيوعيين.

انتبه إلى أن قصيدته لم تنشر. إذن هي لن تنشر أبدا. فكر أن يسافر إلى القاهرة. إلى مقهى ريش ليقابل الناقد الكبير. يفكر معه ماذا يمكن أن يفعل. وفي نفس الليلة كان بشر يزوره ليخبره بضرورة السفر لإحضار مطبوعات جديدة!

في لحظة فكر أن بشر يفعل ذلك فقط كي يَرى وفاء مرة أخرى. ربما حقا يميل إليها لينسى أحزانه. وجد نفسه يقول لبشر:

ـ دعني من السفر هذه المرة.

ـ لكنك أنت الوحيد الذي يفعل ذلك.

فكر لحظة وقال:

ـ وفاء لم تأت إلى الإسكندرية أبدا. والدها يحب مصيف رأس البر. اجعلها تأتي بالمطبوعات إلى الإسكندرية لترى المدينة.

فكر بشر لحظة وقال:

ـ سأحاول لكن ستقابلها أنت.

سكت نادر. واستطرد بشر:

ـ سأقول لك متى وفي أي مكان.

نظر إليه نادر ساخرا وقال:

ـ كل الحلول التي قدمتها لي يا بشر لاتصلح معي. لن أعالج قلبي بكسر قلوب الآخرين. والسفر إلى فرنسا أمر صعب. ربما أفعله يوما للدراسة أو العمل. أعدك أنني سأتعافى. سأسيطر على روحي التي تدفع بجسدي في كل طريق.

نظر إليه بشر معجبا وقال:

ـ إذن سأسافر أنا. أما أنت فأفضل ماتفعله الآن هو أن تقابل عيسى سلماوي تأخذ منه خطاب نوال. أكيد ستجد ما يسرك. ربما تكون كتبت لك عنوانها في باريس. واعذرني على أفكاري السيئة.

* * *

كان نادر ينتظر يوم ظهور النتيجة ليذهب إلى الكلية عدة أيام متتالية ربما تظهر في أحدها يارا. تماما كما جرى العام الماضي. وبالفعل ذهب إلى الكلية. كان عدد قليل من الطلاب يأتون، وعدد قليل منهم في الكافتريا. أحس لأول مرة وبشكل حاسم، أنه ساذج حقيقي.

«انتهت القصة يا نادر» قال لنفسه وأخذ طريقه عائدا إلى محطة الرمل.

«انتهت القصة». صار يرددها في الطريق، ثم توقف عن ترديدها حين أحس بصوته يرتفع وشفتيه تتحركان ويديه أيضا. لن يترك نفسه للجنون. أبطأ من خطواته، ولم يعد ينطق بالعبارة أو غيرها. فكر أنه رغم ما جرى قرأ كثيرا هذه الأيام. وكتب أيضا كثيرا من الشعر. إذن هو قوي. تاقت نفسه أن يعلن ذلك لكل الناس الآن في الطريق.

وقف على الرصيف أمام الجالسين في أتينيوس من المصطافين يشربون الشاي والقهوة والعصائر، وبينهم يمر باعة السوداني والفستق.

فكر على نحو مفاجئ هل يجد عيسى سلماوي هنا حقا والآن، وهو الذي يمضي نهاره عادة في مقهى خفاجي؟ ستكون صدفة رائعة. لو وجده سيظل معه حتى يعود إلى البيت ليأخذ خطاب نوال الذي نسيه كل هذا الوقت.

دخل أتينيوس ولدهشته وجد عيسى جالسا في آخر الصالة جوار النافذة. ربما كان عيسى يراه على الرصيف. لكن لماذا إذا كان قد رآه لم ينادِهِ؟

كان عيسى قد وقف يمد يده يصافحه ويقول:

ـ أخيرا تذكرتني.

كان أمامه كتاب صغير بالإنجليزية قرأ نادر عنوانه فعرف أنه مذكرات إيزادورا دنكان. ابتسم. لقد شاهد الفيلم الجميل عن حياتها التي قامت بدورها فيه فانيسيا ريدجريف. شاهده في سينما الهمبرا إذ كان عرضه الأول منذ سنين طويلة. وجدها فرصة أن يخرج مما هو فيه فجلس يقول:

ـ لقد قرأت كثيرا هذا الأسبوع عن المدرسة المستقبلية في الأدب في روسيا قبل الثورة البلشفية. أحببت جدا ماياكوفسكي وإلكسندر بلوك ويسينين.

ثم أشار إلى الكتاب وقال:

ـ هذا بمناسبة إيزادورا دنكان التي أحبها يسينين.

قال عيسى سعيدا:

ـ لقد تعبت جدا حتى وجدت هذا الكتاب. إيزادورا أعظم راقصة في القرن العشرين.

وأشار عيسى للجرسون قائلا:

ـ غداء بعد ساعة حين يصل خريستو. الآن بيرة لصديقي الجميل ـ ثم قال لنادر ـ مادمت قد عدت إلى القراءة.

أحس نادر بشيء من الراحة. قال عيسى:

ـ قل لي من أعجبك كشاعر. مايا كوفسكي أم يسينين أم إلكسندر بلوك؟

ـ الثلاثة. لكن قصيدة «سحابة في سروال» لمايا كوفسكي أثرت فيّ جدا. رائعة وجبارة. أنقذتني من الحزن لبعض الوقت.

نظر إليه عيسى متأملا وقال:

ـ الشعر علاجك يا نادر. تقرأه أو تكتبه. صدقني. لكن قل لي ماذا تذكر من هذه القصيدة الرائعة. أنا أكاد أحفظها.

نظر إليه نادر مندهشا. بدأ يشعر بشيء من السعادة الحقيقية. قال:

ـ لم أحفظ شيئا منها لكنها كانت تصدر أصداء حولي وهو يهتف باسم مريم العذراء. لغتها متجاوزة. وكما يقول هناك إنسان ينتزع نفسه وينطلق من داخله ولا يجد له ملاذا. قصيدة أكبر من كل ماجاءت به الشيوعية بعد ذلك، ولا تلمني يا أستاذ.

ابتسم عيسى وقال:

- هي كذلك فعلا. ملحميتها وحيوتها فوق العادة. هؤلاء المستقبليون كانوا أكبر مما حولهم.

قال نادر في أسف:

- لقد انتحر يسينين وانتحر بعده ماياكوفسكي.

ابتسم عيسى وقال:

- كثير من الأدباء انتحروا. هيمنجواي وقبله ستيفان زفايج وفرجينيا وولف. حتى في مصر انتحر إسماعيل أدهم في بداية الأربعينيات.

- صاحب مقالة لماذا أنا ملحد؟

- أجل رغم أنه نشرها في نهاية الثلاثينيات ولم يكفره أحد. فقط رد عليها كتاب ومثقفون بمقالات جمعت في كتاب بعنوان لماذا أنا مؤمن. بعد ذلك بأربع أو خمس سنوات انتحر. ليس بسبب مقاله. كان أكبر مما حوله. الشاعر فخري أبو السعود أيضا انتحر أثناء الحرب العالمية الثانية.

قال نادر مندهشا:

- أعرف ذلك. هو الشاعر الرومانسي مترجم رواية «تس سليلة الدربرفيل» لتوماس هاردي. لابد لم يتحمل الحرب والدمار حوله في العالم.

- كان متزوجا من إنجليزية. قامت الحرب وهي في إنجلترا. غرق ابنه الصغير في نهر التيمس في لندن وانقطعت الأخبار عن زوجته فانتحر. أكيد رومانسيته كانت أحد أسباب ضعفه.

قال نادر في نفسه ومن يستطيع أن يصمد إذا فقد الزوجة والولد لكنه كان أيضا سعيدا بالحوار وقدرته على الحديث. قال:

ـ يخيل لي أن الشيوعية في روسيا خذلت ماياكوفسكي.

ـ لا. انتحار الأدباء لا علاقة له بالأنظمة السياسية. ينتحرون إذا أحسوا أن الكون أصغر منهم. وقد يحسون بذلك أيضا إذا فقدوا عزيزا كما في حالة فخري أبو السعود أوفشلوا في قصة حب مثلا.

ارتبك نادر ورأى عيسى ارتباكه فاستطرد على الفور:

ـ لكن الأقوياء لا ينتحرون. الحياة لا تقف من أجل أحد والأذكياء يعرفون أنهم إذا فقدوا شيئا جميلا فلابد سيجدون الأجمل في مكان ما. الحياة نوهبها مرة واحدة وهي جديرة بأن تعاش. أنصحك أن تقرأ رواية «كيف سقينا الفولاذ» لأوستروفسكي. هو صاحب هذه العبارة.

وسكتا قليلا فعاد عيسى يقول:

ـ لقد تحدثنا عن الانتحار كثيرا اليوم.المهم أن تقرأ قصيدة ماياكوفسكي من جديد وتحفظ منها ما تستطيع. ستغير من إحساسك ورؤيتك للشعر. بالمناسبة هل تعرف ماذا كان عنوانها الأصلي؟

قال نادر:

ـ أجل. الرسول الثالث عشر. لكن الرقابة القيصرية رفضت العنوان لأن الرسل اثنا عشر فقط.

قال عيسى:

ـ كيف حقا يكون ما ياكوفسكي رسولا؟ وهو في نظر الرقابة

شخص عابر. لذلك أعطاها العنوان الجديد. هو حقا سحابة لكن في سروال.في شكل إنسان. سيمضي كما تمضي الغيوم، لكن القصيدة والشعر خلداه مثل الرسل.

بدا نادر شاردا لحظات ثم قال بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:

ـ سماء موسكو ملبدة دائما بالغيوم. سماء الإسكندرية مشرقة معظم العام. الإسكندرية في غيمة الآن.

ثم سكت لحظات أخرى بدا فيها عيسى مرتبكا يفكر فيما يمكن أن يقدم عليه نادر الذي فاجأه وقال باسما:

ـ لكن عجيب يا أستاذ عيسى أنك تقرأ لمن لم يتوافقوا مع الشيوعية.

ابتسم عيسى وأحس بشيء من الاطمئنان على نادر وقال:

ـ الشيوعية ليست دينًا يا نادر. والذين لم يتوافقوا معها من الأدباء كانت طموحاتهم أكبر كما قلت لك. لم يكونوا سياسيين من رجال الرأسمالية مثلا. المهم ستغير قراءتك لشعراء مثل ماياكوفسكي الكثير في قدرتك على الشعر.

بدأ نادر يشعر أنه الآن يحتاج إلى أحاديث كثيرة من هذا النوع. أجل.هكذا سيعود إلى الدنيا من جديد رغم الغيوم، وإن شيئا فشيئا. لكن عيسى فاجأه وقال:

ـ هل في نفسك شيء مني يا نادر؟

ـ لماذا يا أستاذ؟

ـ لأني لم أحدثك عن يارا. لم أكن قادرا. حدثت بشر بكل شيء.

ـ فلنعتبر ما مضى قدرا ياأستاذ. لكن قل لي. هل لديك أي أخبار عن نوال. هل أرسلت إليك رسالة مثلا؟

ـ لا طبعا. نوال كانت ماض منذ عرفتها. حاضرها الآن هو باريس. ستنسانا جميعا هي التي لم تنس ماضيها.

ـ سأظل معك حتى تعود إلى البيت وتعطيني خطابها. هل يضايقك ذلك؟

ـ على العكس. سأسعد بك جدا اليوم، وإن كنت حزينا أنكم لم تزوروا معي المتحف اليوناني.

ـ ياه يا أستاذ. كان هذا قبل انتفاضة يناير. ألازلت تتذكر؟

هز عيسى رأسه وقال:

ـ هذا هو الماضي الوحيد الذي أريدك أن تعرفه. لا تصدق أي شيء آخر.

ـ إذن سأذهب معك يوما ما يا أستاذ.

ودخلت فتاة صغيرة جميلة محجبة ومعها شاب في عمرها وجلسا بعيدا مبتهجان، فاندهش عيسى جدا. قال هامسا لنادر:

ـ المحجبة تدخل مع حبيبها علنا إلى أتينيوس.

ابتسم نادر وسكت لكن عيسى قال:

ـ أنا غير مندهش. أعرف الشعب المصري جدا. سيمشي وراء الوهابيين لأن النظام السياسي يوسع لهم. في النهاية سيضحك

عليهم. سيكون الحجاب زيا عاديا وليس علامة على الإسلام. وستكون الذقن والجلباب طريقه عند الكثيرين للتحايل على الحياة والناس.

نظر إليه نادر لايصدق ما يسمع ثم قال:

ـ الشعب المصري ليس نصابا يا أستاذ.

ـ أعرف. الشعب المصري يحب أن تستمر الحياة بأي طريق. المهم أن تستمر ـ وضحك ـ لا تقلق على المصريين.

قال نادر:

ـ ربما تستطيع الأحزاب الجديدة أن تقاوم هذه الأفكار الغريبة.

ـ لا. إنها أحزاب صورية أنتجها النظام ولن يسمح لها أن تكون غير ذلك. لكن الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية لن يكونوا صوريين. ستدفع مصر ثمنا كبيرا لكنها لن تختفي من الوجود. في اللحظة التي سيبدو فيها أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها لتكون مصر ولاية خاضعة للجزيرة العربية سيخلع المصريون كل ما لبسوه من أزياء وأفكار. ربما لا أرى أنا هذا اليوم لكن مؤكد أنك ستراه وستتذكرني.

ثم ضحك عيسى بقوة أذهلت نادر الذي ابتسم بدوره، وفكر في حديث آخر ينقل به عيسى إلى منطقة ثقافية أخرى إذ بدأ يتشاءم، لكن ظهر خريستو قادما من بعيد. قال عيسى:

ـ خريستو هذا ولي من أولياء الله. تذكره تجده أمامك. لقد فكرت فيه الآن.

اقترب خريستو منهما والكاميرا معلقة على كتفه. بدا مرهقا. لا يتخلص من جاكت البدلة رغم حرارة الجو. قال عيسى:

ـ هذا نادر الشاعر يا خريستو. رأيته طبعا معي من قبل؟

قال خريستو وهو يضع الكاميرا على المقعد المجاور له:

ـ خلاص. ما فيش على كيفك.

نظر إليه عيسى بدهشة فاستطرد:

ـ خلاص. على كيفك اتباع لكنتاكي وقفل. دلوقتي يجهزوه للفراخ. مسكين سيف وانلي مش يقعد في على كيفك تاني.

ابتسم نادر فاستطرد خريستو:

ـ مطعم أوربي بقى مطعم فراخ أمريكي. مش مهم. سيف وانلي بيقعد كمان في إيليت. كريستينا تحبه.

كان واضحا أن خريستو لن يتوقف. صب لنفسه كوبا من زجاجة البيرة التي أمام نادر وقال:

ـ إسكندرية دي مجنونة. إمبارح شفت راجل ماشي قدّام سينما الهمبرا وسينما ستراند ينادي على ميداليات يبيعها. كان يقول ميدالية عليها صورة الرئيس المؤمن بخمسة صاغ. النهاردة شفت الراجل دلوقتي ماشي يبيع الميداليات برضه لكن بيقول بصوت عالي ميدالية عليها صورة الرئيس المجنون ببلاش.

ضحك عيسى بقوة، ولم يستطع نادر أن يمنع نفسه عن الضحك أيضا. ارتفع صوت ضحكاتهم حتى أن كثيرا من الجالسين التفتوا إليهم. قال عيسى لنادر:

ـ تأتي تجلس هنا مع خريستو كل يوم تنسى كل شيء.

هز خريستو رأسه وقال بصوت حزين:

ـ خلاص خبيبي مش فيه خريستو.

نظر إليه عيسى مندهشا واستمر خريستو:

ـ خلاص خبيبي. خريستو مش يقعد في إسكندرية. خريستو خلاص يسافر أتينا.

شملهم الصمت لحظة ثم سأله عيسى:

ـ هل ستسافر حقا؟

ـ لازم علشان مراتي هنا. أيوه. جت من أسبوع. أنا كنت فاكرها تعيش معايا. مش نسياني أبدا. قالت لي إنها خايفة أموت هنا وأندفن في حتة مش يعرفوها.

قال عيسى:

ـ في مقابر اليونانيين. ثم إنك صغير خريستو.

ـ لا خبيبي. أنا سبعين سنة. أنا آخذ معايا كل الصور أبيعها في أتينا. في كتير إسكندرانية يونانيين هناك يشتروها. هنا خلاص. مش فيه حد يشتري صور قديمة.

حطّ عليهم الصمت من جديد لحظات حتى قال خريستو:

ـ مراتي قالت لي في أتينا ح أقابل يونانيين كتير. يعني ح أكون في إسكندرية. مراتي مش تكذب عليّ. أنا عارفها.

وعاد الصمت من جديد لحظات أطول خلالها كان نادر ينظر من النافذة المفتوحة ويرى عددا كبيرا من الناس يسرعون في اتجاه واحد، وبعضهم يجري على الرصيف البعيد من الكورنيش، والسيارات أيضا تبطئ من سرعتها. نظر عيسى حيث ينظر نادر وقال:

ـ ما هذا؟

قال نادر:

ـ ربما حادثة.

أطل خريستو من النافذة ونظر يسارا في اتجاه الناس وقال:

ـ لا خبيبي. دي ناس كتير أوي. أنا لازم أروح أصور. مش مهم آكل دلوقتي.

حمل الكاميرا وأسرع فبدا كالعادة كأنه يتدحرج إلى الخارج. قال عيسى لنادر:

ـ ما رأيك؟

قال نادر:

ـ خريستو أبهجني. لا أريد أن أرى شيئا قد يزعجني.

وقف عيسى وقال:

ـ على العكس. يبدو أن ما يحدث غير عادي. تعال نشوف ونعرف أن في الدنيا مصاعب أكبر من الحب والفراق.

وقف نادر مترددا، ثم تحرك مع عيسى الذي قال للجرسون:

ـ دع كل شيء في مكانه. سنعود بسرعة.

خرجا من أتينيوس. ما إن صارا على الرصيف حتى وجدا الزحام يزداد. ناس تأتي من ميدان سعد زغلول ومن الناحية الأخرى للكورنيش. اقتربا والزحام يزداد يسد نصف الطريق والرصيف الآخر كله. سمعا امرأة تقول باكية «يا عيني عليكي يا روح امك» ورجلا يقول « الله يجازي ولاد الحرام اللي كانوا السبب» ورجلا ملتحيا يرتدي جلبابا يقول « لاحولا ولاقوة إلا بالله.الانتحار حرام يا بنتي» وشابا صغيرا يقول لشاب معه «دي بنت حلوة أوي والله خسارة».

كان خريستو يحاول اختراق الزحام، ولما لم يستطع ابتعد وراح يصور الزحام.

كانت الجثة لفتاة ترتدي بنطلون جينز وتوب رفعه الماء يكشف كثيرا من بطنها. وامرأة تهتف:

ـ يا ألله. دي حامل. استغفرالله العظيم.

رد عليها أحد الرجال:

ـ يا ستي متظلميهاش. دي شاربة ميّة بدينها. حرام عليك.

ظهرت فتاة تندفع بين الزحام، وتوسع لنفسها طريقا بيديها في عزم، حتى وصلت إلى الجثة فجلست جوارها على الأرض ثم وضعت أذنها على قلبها لحظات ثم أمسكت بمعصم يدها لحظات أخرى وهي تشير للجميع بيدها أن يصمتوا. لحظات بدا فيها أنها تجس النبض الخافت ثم هتفت:

ـ إنها حية. لم تمت.

وراحت تدلك صدرها، والناس في دهشة، وتضغط على بطنها فيخرج الماء من فمها بغزارة والناس بدأت تهتف الله أكبر..الله أكبر.

كان عيسى ونادر يحاولان اختراق الزحام فنجحا ووقفا يتأملان الجثة غير مصدقين. قال نادر بصوت مخنوق من هول الصدمة:

ـ كاريمان غير معقول!!

كانت الدهشة على لسان عيسى وحاجبيه أيضا. فقال له نادر:

ـ أرجوك. ابق معي. لاتتركني.

كان يتوقع اختفاءه كما يحدث عادة في أي موقف صعب. وبالفعل كان عيسى يفكر في التراجع والاختفاء. جلس نادر إلى الأرض ورفع ظهر كاريمان وأراحه على صدره، والماء لايزال يندفع من فمها في دفعات، وكاريمان تبدأ في التنفس، ثم أخذت نفسا طويلا وعيسى يهتف بين الناس:

ـ وسعوا. وسعوا. خلو الهوا يصل إليها.

استراحت كاريمان على صدر نادر الذي لايعرف هل أدركت وجوده أم لا. وأغمضت عينيها من جديد. كانت عربة الشرطة قد وصلت وتوقفت. نزل منها ضابط شاب ومعه أمينا شرطة يطلبان من الناس أن يوسعوا له الطريق. كان شاب يقف بين الناس وفي يده حقيبة يد جلدية، وملابسه كلها مبللة بالماء. ما إن رأى الضابط يقترب من الجثة حتى قال:

ـ أنا الذي أنقذتها يا حضرة الضابط. رأيتها تضع هذه الحقيبة بين الصخور وتقفز إلى الماء. أخرجتها من الماء ووضعتها هنا، وعدت أحضرت الحقيبة من بين الصخور.

سمعت أصوات سارينة عربة الإسعاف فقال الضابط لأحد أميني الشرطة.

ـ خذ الشنطة وهات هذا الشاب معنا إلى القسم بعد أن تحملها الإسعاف.

ثم نظر للحشود وقال:

ـ هل يعرفها أحد منكم؟

سكت الجميع وبدأ البعض ينصرفون، لكن نادر الذي تردد لحظة قال:

ـ أنا أعرفها.

تردد عيسى لحظة أيضا ثم قال:

ـ وأنا أيضا يا حضرة الضابط.

نظر إليهما الضابط في دهشة ثم قال:

ـ إذن أنتما تأتيان معنا أيضا إلى نقطة البوليس.

نزل من عربة الإسعاف مسعفان يحملان محفة وضعا فوقها كاريمان، ثم أدخلاها إليها. قال الضابط لأحد أمناء الشرطة.

ـ اذهب أنت معها إلى المستشفى. لاتتركها تنصرف بعد العلاج حتى أخبرك أنا.

في قسم شرطة المنشية جلس نادر وعيسى في غرفة المأمور ينتظران دخوله، والشاب مبتل الثياب يقف مرتبكا لأنه لايستطيع الجلوس على المقاعد والماء لايزال يقطر منه. كان الضابط قد أخذ الحقيبة ووضعها فوق مكتب المأمور، الذي ما إن دخل ورأى الشاب المبلل بالماء حتى قال للضابط.

ـ هات له كرسي خشب يقعد عليه.

ثم نظر إلى عيسى ونادر يسألهما:

ـ أنتما تعرفانها. قلتما ذلك للضابط؟

قال عيسى:

ـ زميلتنا في الكلية. كلية الآداب.

قال المأمور:

ـ حضرتك دكتور. أستاذ يعني؟

ارتبك عيسى وقال:

ـ لا. أنا طالب. كلنا في الليسانس.

بدا المأمور مندهشا جدا. كاد يضحك. لكن عيسى قال:

ـ أنا منتسب للكلية. قبل ذلك انتسبت لكلية التجارة وكلية الحقوق. اسمي عيسى سلماوي.

وأخرج بطاقته الشخصية قدمها للمأمور الذي قال:

ـ غريبة. حضرتك غاوي دراسة بقى!

لم يرد عيسى فسأل المأمور نادر:

ـ وأنت منتسب أيضا؟

ـ لا.

وأخرج بطاقته الشخصية. فكر المأمور لحظة وقال:

ـ ما الذي جعلكما تذهبان إلى موقع الحادثة؟

قال عيسى بسرعة:

ـ كنا نجلس في أتينيوس أنا ونادر وخريستو. رأينا الناس تجري. خرجنا نرى ماذا يحدث. وجدناها.

تساءل المأمور متعجبا:

ـ خريستو! من هو خريستو هذا؟

ـ مصور يوناني.

ابتسم المأمور ثم ضحك وقال:

ـ هل لايزال هناك يونانيون في إسكندرية. الظاهر أن أنا قدامي مجانين. قل كلاما غير هذا يا أستاذ.

ارتبك نادر لحظة لكن عيسى قال:

ـ حضرتك لازم تصدقنا. ولا تنس أن دراستي للحقوق تعني أني محام. يعني أعرف حقوقي وواجباتي.

بدا أن المأمور لايهتم بما يقول عيسى. فتح الحقيبة وقلبها على

المكتب لينزل ما فيها. قلم روج وعلبة سجائر وولاعة رونسون وبضع أوراق مالية صغيرة فئة عشرة قروش وربع جنيه وأجندة صغيرة بها تلفونات قليلة ومظروف صغير مغلق.

قال عيسى:

- اسمح لي يا أفندم. المفروض أن النيابة هي التي تطلع على متعلقات الضحية.

قال المأمور وعلى وجهه قليل من الغضب:

- أنت ح تعرفني شغلي يا أستاذ. مش كفاية أنك في السن دا ولسه منتسب للكلية. أرجوك اسكت شوية. حين أسألك تجيب.

فتح المظروف وضيق عيسى يزداد. كذلك بدأ نادر يشعر بالغيظ. أخرج الضابط من المظروف رسالة وراح يقرأ:

«لا تلمني حبيبي حسن. لا تلوميني يا أمي. ربما تشكريني يوما ما. اليوم سأقتل زوجك الشرير الذي يتحرش بي دائما. فشلت في منعه. استمعت إلى كلامه وارتديت الحجاب لأجد لي مكانا أعيش فيه بينكم لكن لافائدة. لايلومني أصحابي، بشر ونادر ويارا الجميلة التي لم أعد أراها ولابد ستعرف من الصحف. لاتبكي يا يارا. الحياة لم تكتب لي. انسوني كلكم. أنا التي لم أستطع أن أنساكم كل هذا الوقت. كاد آخر مرة أن يهزمني هذا الحيوان الذي لايستحق الحياة. سأقتله وأقتل نفسي. لقد أعددت كل شيء من أجل ذلك».

كان نادر في ذهول مما يسمع، كذلك كان عيسى الذي لاتكف

عيناه عن الحركة والاتساع. ضغط المأمور على زر جرس مثبت فوق المكتب فدخل بسرعة الضابط الشاب. هتف فيه المأمور:

ـ هناك قتيل يا حضرة الضابط. البنت قتلت زوج أمها. لاشيء هنا يدل على عنوانها. لابطاقة شخصية لها.

ثم نظر إلى عيسى ونادر وسألهما:

ـ هل تعرفان عنوانها؟ لقد وردت أسماؤكما في الرسالة.

تردد نادر لحظة وقال:

ـ لاأعرف.

ـ هل لديك رقم تلفون أحد من الآخرين الذين ذكرت أسماءهم نتصل به ونعرف.

تردد نادر لحظة وقال:

ـ يارا.

وشعر بالأسف لأنه سيورط يارا في الأمر. ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لتراها يا نادر! لكن دخل أمين للشرطة أدى التحية للمأمور وقال:

ـ يا سعادة الباشا عندي أخبار من عبد الله زميلي الذي ذهب إلى المستشفى الأميري مع الضحية. اتصل بي وقال إنها أفاقت واعترفت بقتل زوج أمها وأعطته العنوان. أملاني العنوان يا أفندم.

وقدم ورقة صغيرة للمأمور. تنهد نادر في ارتياح. لن يتصلوا بيارا.

هتف المأمور في الضابط:

- بلغ المديرية لتخرج فرقة من قسم المنتزه للذهاب إلى البيت في المندرة حيث القتيل. الحمد لله ليس في منطقتنا.

ثم نظر إلى الأشياء على المكتب وقال للضابط:

- خذ هذا كله للنيابة.

ثم نظر إليهم وقال:

- أما أنتم فيمكن أن تخرجوا. مع السلامة.

في الشارع حيث الفضاء الواسع والناس تتحرك كأنها خلقت مع الشارع، وقف عيسى ونادر بعد أن ابتعد الشاب المبلل الثياب واختفى. كان كل منهما ينظر أمامه في دهشة شديدة. كان الارتباك على وجه عيسى أما نادر فكان في خوف شديد. ستحاكم كاريمان بتهمة القتل. قال:

- ماذا سنفعل الأن؟

قال عيسى في عزم:

- سنذهب إلى المستشفى. لن نتركها.

قال نادر:

- أقصد في قتلها لزوج أمها.

قال عيسى في عزم أيضا:

- سأدافع عنها، وسأدفع ما أملك للمحامين الكبار من أجل

إنقاذها. هذا ما يجب أن أفعله الآن. لن أكتفي بعد ذلك من الحياة بالفرجة عليها.

وأخذا طريقهما إلى محطة الرمل.حيث المستشفى الأميري.

في المستشفى كان جندي آخر قد أضيف لأمين الشرطة الذي جاء مع الإسعاف. جلس عيسى ونادر في صالة الانتظار أمام العنبر الذي به كاريمان محتجزة. لم يسمح لهما بالدخول إليها، لكنهما ظلا جالسين على أمل أن يسمح لهما. لابد أن تأتي النيابة حتى لو دخل الليل. ساعتها ربما يمكن لوكيل النيابة أن يسمح لهما بالدخول إليها. لكن فجأة أشار إليهما أمين الشرطة الذي يقف مع الجندي عند الباب. اتجها إليه. قال مبتسما:

ـ عندي خبر حلو. لقد وجدت الشرطة زوج أمها حيا. هو الآن أيضا في المستشفى في قسم الجراحة. مصاب بارتجاج في المخ وجرح قطعي كبير في الرأس.

هتف عيسى بشكل مثير:

ـ الله أكبر. إذن هي جريمة محاولة للقتل وليست قتل. لكن مع التحرش الجنسي فلا معنى لها. تحرش جنسي من رجل يدعي الإسلام. أنا الذي لن أتركه. سأنفق ما لديّ حتى أحبسه. على الأقل خمس سنوات.

ثم نظر إلى نادر وقال:

ـ يمكن لك أن تتركني وتعود إلى بيتك. أنا في بيتي وحيد وهنا وحيد فلا فرق.

قال نادر وهو ينظر إليه بحب شديد:

ـ سأبقى معك يا أستاذ.

قال عيسى ضاحكا:

ـ لا تخف. سأقابلك فيما بعد وأعطيك رسالة نوال.

قال نادر حزينا:

ـ لم أعد أذكر أحدا إلا كاريمان يا أستاذ. كاريمان هي الباقية لنا جميعا الآن.

وترك عيسى وعاد يجلس بعيدا مقاوما البكاء.

-١١-

«مالم تقرؤه يارا من شعر نادر وما لا بد ستقرؤه الآن»

قال لي:

لو لم يكن البحر المتوسط

ما كانت الأوديسا

قلت له:

عاد أوديسيوس

وبدأت متاهتنا.

* * *

قال لي:

البحر الكبير

البحر الخلفي

البحر الهلليني

البحر الذي هو قريب منا

بحر الروم

البحر الداخلي

The mediterranean

أسماء عظيمة على بحرنا

قلت له:

بحر مياهه

من دموع المحبين

* * *

قال لي:

الإسكندرية على عهدها

تفتح صدرها للغرباء

قلت له:

لا تدرك الإسكندرية الآن

أن غرباء اليوم

لا يعرفون الأشجار.

* * *

قال لي:

لماذا تحدق دائما في البنايات في الطرقات؟

قلت له:

كلها صارت علامات استفهام.

* * *

قال لي:

إذا أحب الله رجلا

وضعه في تجربة.

قلت له:

إذا أحب الله رجلا

وضع في طريقه امرأة تحبه.

كل ما خلا ذلك

قبض ريح.

* * *

قال لي:

تأتي النوارس مع السفن

وتذهب خلفها

النوارس تعشق الحضور

وتفرح بالغياب

قلت له:

لا تترك النوارس خلفها أحد.

* * *

قال لي:

لماذا لا تترك الشاطئ

لقد حل الظلام؟

قلت له:

هذه السفن المضيئة

متى تكف عن الرحيل؟

* * *

قال لي:

لا تبحث عن يارا بعد اليوم

كف عن السعي في الشوارع

وراء ظلها.

قلت له:

أنا في بيتي حزين

هي التي تمشي أمامي في الطرقات.

قال لي:

لا تبحث عن يارا بعد اليوم:

صار لها بيت وزوج

قلت له:

وأنا لم يعد لي وطن.

* * *

قال لي:

لك مدينة يهفو دائما إليها البشر.

قلت له:

أولئك الذين لا يعرفون معنى الوطن

يستقرون فيها الآن.

* * *

قال لي:

على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

قلت له:

وأنا معلق بينها وبين السماء.

* * *

قال لي:

الموسيقى عشقك فلماذا تهجرها؟

قلت:

صارت بعيدة في الليل تخبو.

* * *

قال لي:

يبدأ الحب دائما حاملا نهايته.

قلت له:

لايعرف ذلك أحد إلا عند النهاية.

* * *

قال لي:

كل حب ضائع

يمكن نسيانه بحب جديد.

قلت له:

إلا الحب الأول

كلما ذكرته

ملأ الغرفة حولك.

* * *

قال لي:

يرحل الناس وتبقى المدن.

قلت له:

وماذا يبقى للناس

إذا رحلت المدن؟

* * *

قال لي:

لا تسميه فراقا

لقد اكتملت القصة.

قلت له:

لا تكتمل قصص الحب

إلا بموت المحبين.

* * *

قال لي:

لماذا تصعد إلى السطح
مبكرا كل صباح؟
قلت له:
أحلم بيارا تعود
تزيح السحب السوداء
عن المدينة.

* * *

قال لي:
لماذا أيضا تخرج مبكرا إلى الشاطئ؟
قلت له:
أحلم بيارا تعود
تنشر قوس القزح
فوق البحر.

* * *

قال لي:
كل هذا يصنعه الحب؟
قلت له:

كل هذا يصنعه الفراق.

وفراقنا صنعه قطاع الطرق.

* * *

قال لي:

صغير أنت يا ولدي

العالم متسع أمامك

الحق بأي موجة.

قلت له:

لاموج أمامي لألحق به

لاموج خلفي ليعود بي

وحدي قذفني البحر

وتراجع عن المدينة.

* * *

قال لي:

نوال حياتها قصة حب ضائع

في باريس قابلت رشدي

هو أيضا قصة حب ضائع

وضعت السماء النذر في طريقك

لماذا لم ترها؟

قلت له:

هي البشارات

معلقة دائما أمام المحبين

هي الآمال

سحب بيضاء لا يراها غيرهم

لا يدرك المحبون النذر.

* * *

قال لي:

إذن كف عن البكاء اليوم

قلت له:

لكن اليوم لا ينتهي.

* * *

لا يلمني أحد

أعرف أن الخريف يأتي بالسمان

لكنه الحزن أيضا

يأتي في موعده
وأن الأرض تدور
ولا تقف من أجل أحد
لكن ذلك لأننا
لا نشعر بدورانها
وأن العالم واسع فسيح الأرجاء
لكني صرت مثل ماياكوفسكي
غيمة في بنطلون
إنني أترك مكاني كل صباح
لكني أعود إليه كل مساء
يارا وحدها
تعطيني الآن الأمل
تشعرني بالقوة
وأعرف أنها
لن تبرح روحي
مادام طيفها وجه وجسد
نحن كذابون ياسيدي

نتحدث دائما بضمير الذكورة

ونمشي وراء النساء في الطرقات

تمتزج قصة حبي الضائع

بالشعب الذي كان سعيدا

ليس له من عمل

غير مصارعة الديكة

وشرب النبيذ

والتندر على الحكام

تعصف به اليوم

الريح الصحراوية

وذلك الشيخ الذي يهدد

النساء بالجحيم

لا يعرف أن قصص الحب

تصنعها النيران

ذلك الأحمق الذي يغلق النوافذ والأبواب

لا يعرف أنه أغلقها

على المحبين

تتسع بها أطيافهم
هؤلاء لا يعرفون سر النوافذ
صنعت للنور والهواء
فاستولت عليها الرغبات من خلفها
مفتوحة ومغلقة
وهذه الملابس المغسولة
المنشورة على الحبال
للشمس والريح
حكايات تمشي في الطرقات
لقد امتطى الرجل العجوز المهرة
ليسبق الزمن
ستصل المهرة إلى غايتها
وليس على ظهرها الرجل العجوز
ستظل يارا معي
في الصحو والمنام
فراشة كما عرفتها
فرحانة تحت السماء

لانها ترف حول وجهي
تبحث عن النوافذ المفتوحة
تدخلها وتخرج
بالقصص الجميلة
تنشرها بسمات أمامي
فوق الأسطح والطرقات
يارا في قلبي
الذي لن يكف عن الخفقان
بإسمها
أسمعها الآن تهتف لي
لا تتراجع
إمض في طريقك
لقد أسعدتني بما يكفي الآلهة
وما ضاع من سعادتي
لا يزال معك
إجعله زادك
كن على يقين أنك معي

هناك لا تزال امرأة

في الكون تحبك

وإن لم تعد بين يديك

إمرأة ترسل إليك حنانها

عبر الأثير

محملا برائحة الجنة

إمرأة في الكون

تزيل العقبات عن طريقك

ولن تفارق عيني أبدا

ياحبيبي

هكذا أسمعها

إنها تسألني

تريد أن تراني؟

كيف لاتراني

وأنت تسمع ضحكتي

امض في طريقك

لأنك وحدك الذي

ستكتب قصة حبنا
لا تكن مثل أبي وأمي
عاشقا للأشياء القديمة
لأنني أيضا
سأكون دائما معك
ولن تبلى قصتنا
لا تنس يوم رأيت السمان معك
يأتي مع الخريف
وسألتك من أين يأتي السمان
قلت لي من أوربا الباردة
يبحث عن صدر دافئ
قلت لك كم هو مسكين
يموت الكثير منه في رحلته
ماذا لو ظل في مكانه
قلت لي سيموت كله
إذن اترك هذه المدينة
حتى إذا كتبت قصتنا

كتبت قصتها معنا
لن تكتب قصة المدينة
وأنت فيها
وإذا وجدتني
لن تكتب قصتنا
أبدا أبدا.

انتهت

القاهرة
٢٠١٠ - ٢٠١٢

استعنت في كتابة هذه الرواية بالصحف المصرية في النصف الثاني من السبعينيات من القرن الماضي، وخاصة جريدة الأهرام، كما استفدت من بعض الكتب الخاصة عن إسكندرية مثل:

by: Mohamed Awad. «Italy in Alexandria»

by: Mohamed awad and Sahar Hamouda, «A taste of Alexandria»

ومن كتاب «١٨ ـ ١٩ يناير» لحسين عبد الرازق.

للمؤلف

الروايات

١ ـ في الصيف السابع والستين عام ١٩٧٩ ـ الطبعة الثالثة ـ دار الشروق ٢٠٠٨.

٢ ـ ليلة العشق والدم. الطبعة الأولى عام ١٩٨٢ ـ الطبعة الخامسة ـ دار الشروق ٢٠٠٥.

٣ ـ المسافات ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٢ ـ الطبعة السادسة ـ دار الشروق عام ٢٠٠٥.

٤ ـ الصياد واليمام ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٤ ـ الطبعة السابعة دار الشروق عام ٢٠٠٥.

٥ ـ بيت الياسمين ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٦ ـ الطبعة الخامسة ـ دار الشروق عام ٢٠٠٥.

٦ ـ البلدة الأخرى ـ الطبعة الأولى عام ١٩٩١ ـ الطبعة الخامسة ـ دار الشروق عام ٢٠٠٦.

٧ ـ قناديل البحر ـ الطبعة الأولى عام ١٩٩٢ ـ الطبعة الرابعة ـ دار الشروق عام ٢٠٠٦ ـ حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل.

٨ ـ لا أحد ينام في الإسكندرية ـ الطبعة الأولى عام ١٩٩٦ ـ الطبعة العاشرة ـ دار الشروق عام ٢٠٠٩ ـ حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشدي.

٩ ـ طيور العنبر ـ الطبعة الثالثة ـ دار الشروق.

١٠ ـ برج العذراء ـ دار الآداب اللبنانية الطبعة الأولى ـ نفدت.

١١ ـ عتبات البهجة ـ الطبعة الثانية ـ دار الشروق ـ عام ٢٠٠٧.

١٢ ـ شهد القلعة ـ الطبعة الأولى ـ الدار للنشر ـ القاهرة ٢٠٠٧.

١٣ ـ في كل أسبوع يوم جمعة ـ الدار المصرية اللبنانية ـ الطبعة الرابعة ٢٠١٢.

المجموعات القصصية

١ ـ مشاهد صغيرة حول سور كبير ١٩٨٢.

٢ ـ الشجرة والعصافير ١٩٨٥.

٣ ـ إغلاق النوافذ ١٩٩٢.

٤ ـ فضاءات ١٩٩٢.

٥ ـ سفن قديمة ٢٠٠١.

٦ ـ ليلة إنجيلا ٢٠٠٣.

كلها نفدت وهي الآن في مجلد واحد بدار الشروق بعنوان «أشجار السراب».

كتب متنوعة

١ ـ مذكرات عبد أميركي ـ ترجمة عن الإنجليزية ـ تاليف فريدريك دوجلاس ١٩٨٨.

٢ ـ ٢٤ ساعة قبل الحرب ـ مسرحية ٢٠٠١.

٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ أدب رحلات ٢٠٠٣.

٤ ـ غواية الإسكندرية ـ ماوراء الكتابة ٢٠٠٥.

٥ ـ ما وراء الخراب ـ مقالات في الدين والآخروالهوية والنهضة والتراث ٢٠٠٨.

٦ ـ السبت فات والحد فات. مقالات. بيت الياسمين للنشر والتوزيع. ٢٠١٠.

٧ ـ لكل أرض ميعاد ـ أيام التحرير. كتاب الأخبار. أخبار اليوم ٢٠١١.

٨ ـ من الذي صنع الأزمات في مصر. مقالات. بيت الياسمين للنشر والتوزيع ٢٠١٢.

٩ ـ حكايات ساعة الإفطار. حكايات قصيرة. بيت الياسمين للنشر والتوزيع ٢٠٠٥، ٢٠٠٩، ٢٠١٢.

الجوائز

١ ـ الجائزة الأولى في القصة القصيرة ـ نادي القصة بالإسكندرية ١٩٦٩.

٢ ـ جائزة نجيب محفوظ في الرواية عن البلدة الأخرى ـ الجامعة الأمريكية ـ ١٩٩٦.

٣ ـ جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام ٢٠٠٤.

٤ ـ جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٧.

٥ ـ جائزة ساويرس في الرواية لكبار الكتاب عن روايته « في كل أسبوع يوم جمعة».

الترجمات للغات أجنبية

١ ـ البلدة الأخرى ـ للإنجليزية والفرنسية والألمانية.

٢ ـ لا أحد ينام في الإسكندرية ـ للإنجليزية والفرنسية.

٣ ـ بيت الياسمين ـ للفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

٤ ـ عتبات البهجة ـ للفرنسية واليونانية.

٥ ـ المسافات ـ للإنجليزية.

٦ ـ طيور العنبر ـ للإنجليزية.

صفحة الكاتب على الفيس بوك.

ibrahimabdelmeguid@hotmail.com
twitter; @ibmeguid
E.mail ;ibrahimabdelmeguid@hotmail.com
Img444@hotmail.com

«الإسكندرية في غيمة» هي الجزء الثالث من ثلاثية الإسكندرية لإبراهيم عبد المجيد، التي تختلف عما هو معروف عن الثلاثيات. فليس هنا أبطال يواصلون رحلتهم إلا قليلا، لكن هنا مدينة عظيمة في ثلاث نقط تحول كبري في تاريخها؛ الرواية الأولى «لا أحد ينام في الإسكندرية» عن المدينة العالمية أثناء الحرب العالمية الثانية، وكيف هي مدينة التسامح بين الأديان والأجناس ومعاناة المصريين تحت الحرب. الثانية «طيور العنبر» عن المدينة بعد حرب السويس ١٩٥٦، والخروج الكبير للأجانب والتحول لتكون المدينة مصرية فقط وتتغير كثير من ثقافتها.

وهذه الرواية عن المدينة في سبعينيات القرن الماضي، وكيف ظهرت في المدينة موجة جديدة من الفكر المتطرف دينيا تحالف معه النظام السياسي، لتتخلى المدينة حتى عن روحها المصرية وتتغير فيها الأمكنة وعادات الناس؛ ويتراجع فيها التسامح وتودع روحها المصرية وما بقي من روحها الكوزموبوليتانية. الأعمال الثلاثة تشكل ثلاثية عن المدينة في تجليات مختلفة، لذلك يمكن قراءتها متتابعة، يمكن أيضا قراءة كل رواية مستقلة عن الأخرى.



إبراهيم عبد المجيد كاتب سكندري درس الفلسفة وغادر الإسكندرية ليعيش في القاهرة منذ عام ١٩٧٥، له أربع عشرة رواية وخمس مجموعات قصصية، ويكتب المقالات الأدبية والسياسية، ومن رواياته «البلدة الأخرى» و«بيت الياسمين» و«عتبات البهجة» و«الصياد واليمام»، وكتب عن الثورة كتابه «أيام التحرير» وترجمت له أربع روايات إلى الفرنسية وخمس إلى الإنجليزية فضلا عن لغات أخرى، وحصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب وجوائز أخري آخرها جائزة ساويرس لكبار الكتا ب عن روايته «في كل أسبوع يوم جمعة»، كما حولت بعض أعماله إلى التلفزيون والسينما.

ISBN 978-977-09-3179-0

9 789770 931790

دار الشروق
www.shorouk.com